كتاب القدس (٦)

فيصل الخيري

مدن فلسطينية

آثار تتحدى الأساطير



فيصل الخيرى

مدن فلسطينية

آثار تتحدى الأساطير

سلسلة كتاب
القدس (6)



• الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٢٢هـ

أغسطس ٢٠٠١م



• الكتاب: **مدن فلسطينية**

آثار تتحدى الأساطير

• المؤلف: فيصل الخيرى

• السلسلة: كتاب القدس

• قياس الصفحة: ١٤ × ٢٠

• رقم الإيداع: ٩٣٥٣ / ٢٠٠١

• الترقيم الدولي: ٦-٦٥-٥٢٧٤-٩٧٧

مركز الإعلام العربي

ص. ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر

• هاتف: ٣٨٣٣٣٦١ / ٠٠٢٠٢

• فاكس: ٣٨٥١٧٥١ / ٠٠٢٠٢

• الموقع على شبكة الإنترنت:

Home Page: www.Resalah4u.com.

• البريد الإليكتروني:

E .Mail:media-c@ie-eg.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

السؤال الذى يلح دائمًا. كلما قرأ شـخص التوراة: ما هو موقع اليهود من التاريخ؟ أو أين اليهود وآثارهم؟ وإذا كان لهـم وجود فعلى، فلماذا لم تذكرهم الحوليات والآثار الخـاصة بحضارات الشرق القـديم؟ ولماذا صمت عن ذكرهم أبو التاريخ هيرودوت؟

وتكمن خطورة هذا السؤال. إذا ما أخذ مرتبطًا بالجهود المسعورة التى بذلت فى البحث عن تاريخ اليهود القديم. وهى جهود قديمة جدًا حين غدا التنقيب عن أى أثر يعـود إلى العهـد التوراتى بمثـابة هوس أصاب الحـجاج والرحـالة الأوروبيين. منذ القرون المـبكرة لقيام الديانة المسـيحيـة. لكنه تطور إلى هوس مرضى. خـلال القرنين الثامن عشـر والتاسع عشـر للميلاد. فلقد اسـتأثرت الدراسـات اللاهوتيـة والدينية كـمـا يرى «كيث وايـتلام» من خـلال خطاب الدراسـات التوراتيـة بحق تمثـيل التـاريخ الفلسطينى القـديم، وقد كـان ذلك استمـرارًا لحق ادعاء الرحالة الأوروبيين، وخلال هذين القـرنين أصبح التاريخ الفلسطينى أحد التواريخ المستبعدة من التاريخ من جراء التسلط الذى كان يمارسه المتـخصـصون فى الدراسـات التوراتيـة والمؤرخون وعلمـاء الآثار على تاريخ فلسطين والشرق القديم.

وقد كان هذا الاتجاه المشبع بسوء النيـة أهم الأسباب التى عجلت بقيام علم الآثار. وقبل أن نستطرد نجد لزامًا علينا أن نشـير إلى أن التوراتيين قد تنبهوا منذ اللحظة الأولـى إلى الخطورة التى يمكن أن يـشكلهـا هذا العلـم على الخطاب التوراتى، فجرت محاولاتهم الحثيثة للالتفاف حوله. فمنذ حوالى عام ١٨٥٠م تم تأسيس الـكثير من الجـمعـيات فى أوروبا وأمـريكا لاهمَّ لها إلا اخـتلاق إسرائيل القـديمة، وإسكات التاريخ الفلسطينى، وهذا الاتجـاه الذى أطلق عليه «وايتـلام» اسم «الافـتراض المتـأصل» يوضـحـه الدستـور الخـاص بصندوق استكشاف فلسطين - الذى أنشئ عام ١٨٦٥م - بجلاء تام.

الافتـراض الشائع الذى مـفاده أن فلسطين لم تكن مـهمة فـى ذاتها، بل لأسبـاب أخرى متصلة بـالتوراة، ولأجل ذلك كثيـرًا ما خربوا التـتابع الأثرى التاريخى فى حمأة دراساتهم غير العلمية، وبحثهم الفوضوى عن أسانيد تدعم ما بين أيديهم من أخبار ومرويات جاءت فى مسخهم التوراتى المسمى بالتوراة. كمـا يوضح «الافتـراض المتأصل» أيضًـا «صك الانتداب الذى تضـمن وعد بلفور، فى إشـارته إلى الرابط التاريخى بين اليـهود المشتـتين فى العالم وأرض آبائهم كـما أسـموها. وقـد كان هذا أكـبر نـصر فى مطلع القـرن العشـرين للصهيونية ولزعيمهـا «وايزمان» الذى أصر أن يتضمن صك الانتداب مثل هذه الإشارة، إيمانًا منه بأن التركـيز على الجانب التاريخى هو شـرط أساسى لنجاح المشروع الصـهيونى. وهذا يجلو للأذهان نجـاح الصهيونيـين منقطع النظير فى السيطرة على مـراكز الأبحاث والدراسات التى تتولى هـذا الجانب فى الغرب،

وتجنيد مجموعات من الباحثين والآثاريين والمؤرخين التوراتيين، ونجاحهم فى استصدار ملايين من النسخ «كتب ودوريات» لتمرير افتراضاتهم، يدعم ذلك آلة دعائية لايردعها رادع، تذر الرمل فى عيون الذين لم يتبلوروا بعد فى صورة أو شكل معين.

وبحكم الصلة الروحية بين اليهود ومسيحيى الغرب، كان الطابع العام لهذا النهج بالطبع لصالح الصهيونية والتاريخ التوراتى، باستثناءات قليلة، والأخطر فى الموضوع أنه عن طريق هؤلاء الباحثين والمؤرخين والآثاريين، تسربت المعلومات التوراتية على علاتها إلى المؤرخين العرب عمومًا، وبالنقل الحرفى أحيانًا كحقائق تاريخية لاسبيل إلى إنكارها.

واكتملت خيوط المؤامرة بتأسيس دائرة آثار هذا الكيان بعد مرور أقل من شهرين على إعلان الدولة رسميًا، بهدف السيطرة على المواقع الآثارية، وبالتالى فرض رقابة على نتائج التنقيبات، واعتمادًا على سوء نية الغرب ومطاطية ضميره، كلما كان الأمر متعلقًا باختلاق إسرائيل، وغفلة زعمائنا ومفكرينا، قامت تلك الدائرة ومعها المعاهد الجامعية والجمعيات التاريخية والأثرية بالنشاط الأثرى والتاريخى بشكل واسع، ضمن الإطار الثقافى للنظام الاستيطانى العنصرى الجديد، الذي أصبح بمقدوره انتقاء المعاهد والمؤسسات الغربية التى تسير موازية لهذا التيار.

ولماذا لايحالفهم النجاح مادام العالم لاهيًا عنهم، منشغلاً عن مقاصدهم، متعاميًا عن مؤامراتهم، بل متآمرًا معهم بواسطة بعض الزعماء عن طيش

ورعونة وجهل؟!

وترتب على هذا الإرهاب الفكرى ما أطلق عليه «كيث وايتلام» خطاب الدراسات التوراتية، وهو عبارة عن شبكة متداخلة وقوية من الأفكار والتوكيدات التى يعتقد ممارسوها أنها نتاج الدراسات العلمية الموضوعية، بينما فى الحقيقة ماهى إلا ممارسة للقوة.

وهكذا بعد أن استوعب القارئ جذور المخطط التوراتى وأبعاده يستطيع أن يدرك الآن مدى الخطورة التى تكمن فى السؤال الذى طرحناه فى مطلع المقدمة. وقد باءت بالفشل كل الجهود المسعورة - السالف ذكرها - والتى بذلت فى البحث عن إسرائيل القديمة، بل إن علم الآثار بات يشكل عامل فناء للتوراة. فالتنقيبات الآثارية قد أضافت الكثير من الإرباكات المعقدة لأصحاب الخطاب التوراتى، وكل أثر جديد يكتشف يعمق الهوة بين أساطير التوراة وحقائق التاريخ، مما دفع ببعض الباحثين إلى أن يطلقوا على تاريخ اليهود «تاريخ الفجوات» فى عصر قفز فيه العلم قفزات فاقت التصور، فلم يعد فيه للخرافة أية قدرة على الصمود.

وهل هناك دليل أبلغ من اعتراف المرء على نفسه؟ إن الفشل الذريع كان الدافع الأول لرئيس وزراء إسرائيل السابق «مناحيم بيجن» أثناء زيارته لأمريكا، أن يقدم التوراة لرئيسها : «جيمى كارتر» قائلاً: إذا كنت مؤمنًا يجب أن تقر بكل ماجاء فى هذا الكتاب. كم كان هذا معبراً وذا مغزى، وخصوصًا إذا صدر عن رجل مثل بيجن يجلو للأذهان ما لم يهتم أى طرف من الأطراف

المعنية الكثيرة جدًا أن يجلوه، وهو أن ساعة التوراة قد دنت.

كل الشعـوب والأمم التى كانت لها صلة بفلسطين تركت آثارًا لهـا شاهدة على تلك الصلة إلا اليهود، فلم يعثر لـهم على أية آثار، عثر المنقبون على آثار فى «تل العبيـدية» بفلسطين، تعود بتاريخها إلى حوالى مليـون وأربعمائة ألف سنة خلت، واستمر هذا الموقع كغيره من مواقع فلسطين عامرًا بسكانه، وبمرور الزمن نشأت مواقع أخرى - إنه حق - ويجب أن نردد هذا المرة تلو المرة، ولا نمل من الترداد، إن البدايات الأولى لحضارات البشرية انبثقت من هذه البقعة من الأرض التى سـميت بفلسطين، وعلـى أيدى أهلها الأصليين، فـفيـها ظهـر الإنسان العاقل منذ حوالى أربعين ألف سنة، وهو جدنا المباشر والأقرب لنا من كل الأنواع البشرية التى كانت فى عهود مـا قبل التاريخ. وفى العصر الحجرى الوسيط (١٢٠٠٠ ق.م) ظهرت فى فلسطين الحضارة النطوفية، وأقل ما يمكن أن يقال فـيها: إنهـا الخطوة الأولى على طريق تقدم الإنسـان وارتقائه. وتسلم الراية من بعـد النطوفيين الغـسولـيون، وهكذا دواليك.. ويمضى التـاريخ فى حركته، وتدخل فلسطين فى طور جديد من أطوارها التاريخية، حين هاجرت إليها من قلب الجزيرة الـعربية (قبل الألف الخامسة ق.م) قـبائل من العموريين والكنعانيين وغيرهم. ولكثرة أعداد المهاجرين الجدد انصهر فيهم سكان فلسطين الأصليون، وكونوا شعبًا واحدًا، لاتزال فروع جذوره ممتدة فى أرجاء فلسطين. وخلال تاريخ هذه البقعة الطويل تعـرضت لغزوات الكثير من الأمم والشعوب البعيدة عنها والقريبة، بعضها أقام فيها لمدد طويلة، والبعض الآخر قصرت مدة

إقامته، إلا أنها جمعاء تركت ما يدل عليها.

سكان فلسطين منذ العبيديين، والنطوفيين، والغسوليين، والعموريين، والكنعانيين، والمصريين، والهكسوس، والحثيين، والبابليين، والآشوريين، والفرس، واليونان، والرومان، كل هؤلاء قد تركوا فى فلسطين آثارًا تدل عليهم إلا اليهود، لم يستطيعوا العثور على أى أثر يؤكد أطروحاتهم فى وجود أناس يسمون «إسرائيليين أو عبرانيين. ، وما وجد من آثار يهودية تعود فى أقدمها إلى القرن الثانى ق.م، وهى الفترة التى تكونت فيها الديانة اليهودية.

وهكذا نرى أن حصان الخطاب التوراتى الذى طالما طاف حول العالم زهاء ألفى عام، شاء القدر أن تغلق فى وجهه المنافذ، ولا تزال الدائرة تضيق عليه يومًا بعد يوم. بدأ ذلك بالاتجاه الذى بدأ يتعزز منذ حوالى عشرين عامًا، والذى يعتبر «توماس طومسون وكيث وايتلام» من أبرز رواده، وهو اتجاه التخلى عن الافتراضات المسبقة التى فرضها التفسير التوراتى، وبفضل جهدهما وجهود صحبهما من نبلاء الضمير أصبح بإمكاننا التفاؤل بأن ثمة أمل فى المستقبل القريب، ببدء فك الحصار عن التاريخ الفلسطينى، وتكسير القيود التى كبلته طويلاً، بعد تحريره بالتدريج من قبضة الدراسات التوراتية.

وقد وجد هذا الاتجاه من يؤيده بين المؤرخين والآثاريين الإسرائيليين أنفسهم، ففى شهر تموز/ يوليو عام ١٩٩٨، أعلن فريق من علماء الآثار العاملين فى دائرة الآثار الإسرائيلية، بطلان العديد من الادعاءات التوراتية، معترفين فى نفس الوقت بأهمية الحضارات الفلسطينية، التى سبقت الوجود

اليهودى المزعوم، وأعقب ذلك مـقالة عالم الآثار الإسرائيلى «زئيف هرتسوج» التى نشرت فى صحيفة - هاآرتس - بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٩٩٩ بعنوان «التوراة لا إثباتات على الأرض»، وكانت حين نشـرها قد أثارت ضجةً كبـيرةً فى حقل المشتغلين فى علم الآثار، وفى الأوساط الثقافية والسـياسية سواء منها العالمية أم العربية. إنه حقًا - كما يرتئى البعض - تاريخ الفجوات وديناميكية التخلى عن المسلّمات. والأخطر فى الموضوع أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، بل تعداه إلى ما يستحيل على المرء تصوره، وهو أن البعثات الآثارية - غربية أو إسرائيلية - قـد غضت الطرف عن فلـسطين، وشدت الرحـال إلى اليـمن وأفغـانستـان وغيرها، بعد أن تيـقن الجميع أن ساعة التوراة قد دنت، فـيما يخص فلسطين بالطبع.

وبعدُ، هل يعقل أن نحـول أبصارنا عن مسألة كهـذه، وهى أهم معطيات النزاع العـربى - الإسـرائيلى، ونـسكت عنهـا، ونظل نتـردى فى المهـاوى، مغمـضين أعيننا عن رؤية أخطر عملية طرد لتـاريخ شعب هو أصل الوجود، لصالح شرذمة من البشر مأفـونة سَفَتْها الريح من كل أنحاء العالم إلى فلسطين وأصلها مفقود؟

ومن أجل ذلك كـان التـفكيـر فى وضع كـتـاب، يتنـاول تاريخ مـدننا الفلسطينية، من وجـهة نظر عربية مـدعمة بالأدلة الآثارية والوثائق التـاريخية، بعيدًا عن الأساطير التوراتية.

ورغم ما قد يجده القارئ المتـفحص فيه من قصور، نتيجـة لتعذر الحصول

على مزيد من المراجع الهامة للموضوع، أرجو أن يمثل جهدًا ولو كان ضئيلاً، فى مضمار تضافر الجهـود من أجل غربلة تاريخ فلسطين وتنقيته وإعطائه صوتًا معبـرًا، بعد أن حجبتـه عن الأنظار مخططات توراتية، صـاغت رواية تحتفظ بالماضى لإسرائيل وحدها، وهى كما يرى «وايتلام» ليست إلا مجرد كينونة فى الزمن الفلسطينى الكاسح، أو خيط رفيع فى نسيج التاريخ الفلسطينى الغنى.

فيصل الخيرى

رئيس مركز التراث الفلسطينى

ولا تزال يافا
تبحث عن عروبتها

لم نفاجأ بهبة يافا - أرض البرتقال الحزين - لدرء الخطر عن القدس أرض الحجارة الحزينة، فإذا ضاعت القدس، فماذا يبقى من يافا للتاريخ؟. درس استوعبته يافا جيدًا بعد أكثر من نصف قرن من هول الأسر، فولدت من رحم المعاناة جماهير تعرف البوصلة وتتحمل المسئولية.. والمفاجأة أو اللطمة كانت للعدو، فقلبت كل حساباته، عندما طرحت فكرًا جديدًا، وواقعًا جديدًا، وثقافة جديدة: فكر التصدى والشموخ والتشبث بكامل التراب الفلسطينى، التشبث بالجذور.

• عروس فلسطين •

يافا الساحرة الرائعة، عروس فلسطين، التى تبدو كأنها واحة أفلتت من الجنة، وهى من أعرق مدائن الدنيا الخالدة إلى اليوم، ومن أقدم موانئ العالم القديم، ظلت تحتفظ بهويتها العربية طوال مسيرتها، إلى أن تبدل كل شيء دفعة واحدة عشية تأسيس إسرائيل ١٩٤٨، فتشرد سكانها العرب خارج الحدود، وحولها الإسرائيليون مع الزمن إلى ما يشبه الخرابة الأثرية الهائلة، الملحقة بمدينتهم (تل أبيب) التى لا تزيد فى الحقيقة عن كونها امتدادًا لـ «يافا» الجديدة شرقًا وشمالاً.

أسفرت الاكتشافات الأثرية الحديثة عن تواجد الإنسان فى البقاع المحيطة بيافا فى العصور الحجرية كلها، قديمها ووسيطها وحديثها، وظهرت فى تلك البقاع حضارات تُعَدُّ من أعظم وأعرق الحضارات البشرية جمعاء، فقد تم التعرف فى «مغارة شقبة» القريبة من يافا، والواقعة فى وادى النطوف، على

مخلفات إنسانية، أقدمها يعود إلى المرحلة الثانية من العصر الحجرى القديم بينما أحدثها يعود إلى فترة العصر الحجرى الوسيط (١٠٠٠٠ــ٨٠٠٠ ق.م)..

ومن الأخيرة جاءنا ما اصطلح عليه العلماء «الحضارة النطوفية» التى تعتبر الخطوة الأولى على طريق تقدم الإنسان وارتقائه، فبعد أن بلغ النطوفيون درجة عالية من التقدم، وضعوا الأساس المادى والفكرى المباشر للانعطاف الجذرى والأهم فى تاريخ البشرية وفى تلك البقاع اليافية أيضًا تقع «جازر» التى أطلق اسمها على حضارة تعود إلى العصر الحجرى الحديث، وجازر أول بلدة أنشئت فى هذه المنطقة، وأنشأ أهلها حولها سورًا لحمايتها من خطر العدوان عليها، وقد وسعها العموريون والكنعانيون فيما بعد وتم ذكرها مرارًا فى سجل التاريخ الفرعونى، وقد عثر ــ فضلاً عما تقدم ــ على آثار فخارية وصوانية، فى كل من: «خربة الشيخ ميصر» ومواقع مختلفة فى ضواحى «يافا وتل أبيب» مشابهة لحضارة الغسول، التى تعود إلى العصر الحجرى النحاسى (٤٥٠٠ ــ ٣٢٠٠ ق.م) وعثروا أيضًا فى «خربة الشيخ ميصر» على بناء مستطيل شبيه بمعابد الحضارة الغسولية.

• ولادة يافا وطفولتها •

بالقرب من هذه البقاع الفلسطينية التى شهدت أهم الحضارات وأعرقها وضع أجدادنا العرب الكنعانيون أول حجر فى مدينة يافا على شاطئ البحر قبل الألف الرابعة ق.م، أى قبل ما يزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ومن قبل أن يكون على سطح الأرض يهود أو ديانة يهودية يتبعونها ويتشكلون معها.

وقد اختار أجدادنا أن يبنوا مدينتهم على صخرة منيعة حولها أراض خصبة، وكان في شـمال هذه الصخرة ينبـوعان يرتوى منهما الإنسـان والنبات فكانت تشرف من موقعها هذا على زرقة البحر الأبيض المتوسط غربًا، وعلى بحر آخر من الخضرة اللامتناهية شمالاً وجنوبًا.

وفى شرق يافا تلتـقى الطرق الهامة عبر فلسطين مـن مصر جنوبًا إلى لبنان وسورية وتركـيا شمـالاً، وعند هذا الموقع يتفـرع شرقًا طريق القـدس وشرق الأردن وما وراءها، وظلت يافا قـائمة على صخرتها العتـيدة تقاوم الزمن وترد المعتدين، فتـارة تتحصن داخل أسوارها فيرتد عنهـا الغزاة، وتارة تفضل الموت على الاستسلام فيهدمـها أهلها حتى لا تقع فى أيدى أعدائها، ثم لا تلبث أن تسترد حيـاتها ومجدها، هذه العوامل مجـتمعة جعلت من صخرة يافـا موقعًا صالحًا لإنشاء مدينة منيعة وغنية بالزراعة والتجارة. وبقدر ما كان هذا من حسن طالع أهلها، فقد كان أيضًا من أسباب كثـرة متاعبهم، بسبب غزوات الطامعين وحروب المتنافسين، ومن ثم يعتبر تاريخ يافا المديد منذ أكثر من ستة آلاف سنة من أحفل تواريخ بلدانيـات العالم المليئة بالأحـداث الجسام، بفعل مـا تعاقب عليها من عصور الدمار وعصور الازدهار على حد سواء.

• يافا الكنعانية •

يؤثر عن الكنعانيين حبهم وولعهم بالفـن والجمال، فلا غرابة أن يوفقوا فى اختيار اسم مـدينتهم الصحيح تمامًا حين أطلقوا علـيها «يافى» بمعنى الزاهية أو الفـاتنة، وذكـرتهـا النقـوش المصـرية بـاسم «يابو أو جـوبا» وفى أحـد آثار «سنحاريب» الملك الآشورى نقشت باسم «يآب بو»، و«يوبا» هو الاسم الذى

أطلقه عليها الإغريق، وأطلق عليها العرب اسم (يافا)، وأطلق عليها أيام الحروب الصليبية الفرنجة اسم (جافا)، وكل هذه الأسماء محرفة من اسمها الأصلى الكنعانى «يافى».

ولما كانت الاكتشافات الأثرية التى تعود إلى العهد الكنعانى قد ضنت علينا بوصف دقيق لمدينة «يافا» الكنعانى فإن الآثار المكتشفة فى الأماكن المجاورة (كمدينة جازر) يمكن أن تعطينا صورة ولو تقريبية لما كانت عليه «يافا» فى ذلك العهد، ويبدو أنها كانت مجموعة غير منتظمة من البيوت الصغيرة المتراحمة، منتشرة فوق الهضبة وعلى جوانبها، يحيط بها سور، حجارته مقطوعة بأدوات حادة، ومهذبة قليلاً، وكان للسور أبراج بلغ ارتفاعها اثنى عشر مترا، ويتوسط المدينة قلعة فى أعلى الرابية فيها قصر الملك وأماكن العبادة.

أما طرق المدينة فكانت ضيقة معوجة، وعيون الماء خارج سورها، مما جعلها تعانى المصاعب أوقات حصارها، مما دعى السكان إلى أن ينحتوا فى الصخر أحواضًا، لخزن المياه ليشربوا منها فترات الحصار، فلما زاد عدد السكان، واتسعت الرقعة التى تشغلها المدينة زحزحت الأسوار ليدخل فى نطاقها ما استجد من البيوت، وتدخل أيضًا هذا النطاق عينا الماء المذكورتان، مما جعلها بمأمن من العطش أوقات الحصار، فكانت كسائر المدن الكنعانية مملكة بحد ذاتها.

أما عن نشاطات أهل يافا لكسب قوتهم فى تلك الآونة، فقد تنوعت بين الزراعة والرعى والصناعة والتجارة. أما الزراعة، فقد بلغت عندهم درجة عالية

من التقدم، ولا عجب فى ذلك، فبإجماع العلماء أن قدامى أهل فلسطين هم أول شعب مارس الزراعة، وقد اشتهر السهل الساحلى بمراعيه الخصبة التى استغلها النطوفيون منذ العصر الحجرى الوسيط، كما اشتهرت يافا بصناعاتها منذ ولادتها. ومن الصناعات المبكرة جدًا فيها الغزل والنسيج والفخار وعصر الزيت والخمور وبناء السفن. وحيث إنها كانت من أقدم موانئ العالم، فقد جعلها ذلك المنفذ الأول لفلسطين من حيث التصدير والاستيراد.

• علاقة يافا بمصر •

ربما تعود هذه العلاقة إلى العهد النطوفى أو بعده مباشرة، وقد ابتدأت تجارية، ولكن فى عهد الأسرة الخامسة الفرعونية (٢٥٤٠ ق.م) فى نقوش «أبو صير» نجد مناظر إقلاع وعودة أسطول مصرى إلى أحد شواطئ فلسطين من المرجح أنه ميناء يافا، وبإجماع علماء الآثار أن استقبال الملك لهذا الأسطول ــ يحيط به كبار الموظفين ــ دليل على أن هذا الأسطول لم يذهب للحرب أو التجارة، إنما كان فى رحلة ودية إلى تلك المدينة، وربما عاد بأميرة من الأميرات، لتصبح زوجة للفرعون.

وهناك أيضًا من الأسرة السادسة فى عهد الملك «بيبى الأول» وثيقة مهمة، وهى لوحة القائد المصرى «أونى» الذى عاش حوالى عام (٢٤٠٠ق.م). وقد ذكر هذا أنه ذهب لإخماد ثورة قامت فى فلسطين، فجهز جيشين سار أحدهما بطريق البر، وذهب هو مع الجيش الثانى بطريق البحر، وأنهم نزلوا عند مكان يحتمل أن يكون على مقربة من جبال الكرمل، وأنه توغل بعد ذلك داخل البلاد، وقمع تلك الثورة. ويفهم من كل هذه المعطيات أن أنسب مكان

يمكن أن تدور به هذه الأحداث إنما كان مدينة يافا، بدليل ذكر «سهل سارون» وهو السهل الممتد بين يافا جنوبًا وجبال الكرمل شمالاً.

فقد ذكر أن «أونى» كان يجتمع فى التخوم التى اجتازها من فلسطين مع رجال القوافل الفلسطينية الذين كانوا يوثقون الروابط التجارية مع بلاد نهر العاصى بسهل سارون. ومن المحتمل جدًا أن تكون قد انتشرت بوساطتهم السلع والصناعات بين مصر وبلاد ما بين النهرين، وكانت يافا حلقة الوصل، وكانت يافا ضمن المدن الفلسطينية التى تم ذكرها فى وثائق اللعنة الفرعونية، التى تعود إلى حوالى (١٨٠٠ق.م)

وفى الفترة ما بين (١٥٥٠ـ ١٢٢٥ق.م) يؤثر عن يافا أنها كانت مركزًا إداريًا محليًا، وفى بداية هذه الفترة من تاريخها كانت نهاية «الهكسوس» على يد أحمس، وإن كانت حملات أحمس قد انحصرت فى المواقع الجنوبية من فلسطين، إلا أنها مهدت لإخضاع فلسطين وشرق الأردن، وغالبية المناطق السورية الأخرى أثناء الحملات التى شنها «تحتمس الثالث» حوالى (١٤٧٠ـ ١٤٠٥ق.م). ويبدو أن هذه الحملات قد زادت على ست عشرة حملة، وصل بعضها حتى نهر الفرات. ويقودنا هذا إلى وقفة سريعة عند موضوع افتتاح يافا، حيث تواجهنا عدة أسئلة تلح فى طلب الإجابة عليها تتعلق بتفرد يافا عن غيرها من أخواتها من المدن المفتوحة بهذا القدر العظيم الشأن من الاهتمام، مما جعلها تتبوأ مكانة سامية فى الوجدان المصرى، ويدور حولها الكثير من القصص والأساطير. فيا ترى هل يعود ذلك إلى شهرتها التى حظيت بها منذ ولادتها؟ أو إلى منعتها وصمودها فى وجه «تحتمس» ومن

سبقه من فراعنة مصر؟ أو أنه يعود إلى الاثنين معًا ؟.

ويمكن القول بوجه عام: إن الشهرة التى حظيت بها جوهرة فلسطين وجنتها قد تعدت الواقع إلى مجال الخيال، مما جعلها تقف فى مصاف أعظم مدائن العالم القديم، إن لم يكن فى مقدمتها، فوجد فيها المؤرخون القدامى مادة خصبة لقصصهم وأساطيرهم، وغلفوها بهالة من الغموض والسحر، فها هو المؤرخ الرومانى الشهير «بلينى» يذكر أن يافا قد بنيت قبل الطوفان، وفى بعض الروايات أن نوحًا بنى فلكه فيها، ولما انحسرت مياه الطوفان عن كرومها أعاد ولده «يافث» بناءها، وحول الصخور السوداء التى تنتشر فى ميناء يافا أسطورة يونانية (اندروميدا)

وإن كان هذا وحده كفيلاً بتخليدها، فثمة عامل آخر لا يقل عنه أهمية، ويتمثل فيما حظاها الله تعالى به من منعة وثراء، جعلاها قلعة حصينة فريدة فى نوعها يقف الغزاة أمامها عاجزين عن اقتحامها، ولعل فى هذا ما يفسر لنا الطريقة التى فتحت بها يافا، والتى قام بابتكارها قائد «تحتمس» وهو «تحوتى» حسبما جاء فى الأدب المصرى، وتداولته الألسن لأجيال عديدة، وهى طريقة تختلف تمامًا عما كان يتبعه الفراعنة فى فتح المدن، وجاءت أيضًا على خلاف ما عودنا عليه الفراعنة، من المبالغة والتهويل، حين يريدون الحديث عن بطولاتهم وبسالتهم فى مواجهة أعدائهم.

ويعتقد الباحثون أن يافا أصبحت القاعدة البحرية التى ينتقل إليها الجنود من مصر، وازدهرت أحوال يافا بعد انتصار «رمسيس الثانى» على الجيش، وعرف عمالها بالمهارة، وأهلها بالغنى، واشتهرت حدائقها بالجمال وجودة الثمار، وفى

أوائل القرن الثانى عشر ق.م، ظهر الفلسطينيون (أحد بطون الكنعانيين) فى هجراتهم المتأخرة، على أبواب يافا فى طريقهم إلى غزو مصر، فاستطاع «رمسيس الثالث» أن يهزمهم، وربما يكون قد جمع سفنه عند يافا التى ظلت مركز حامية مصرية ترتبط بمصر مباشرة، ونقطة مراقبة، وقاعدة إنزال للقوات عند الضرورة.

• أيام الحكم الآشورى والبابلى والفارسى •

ومعلوماتنا عن مسيرة يافا فى هذه الفترة قليلة جدًا لندرة المعلومات الواردة فى المصادر التاريخية عن هذه الحقب والخاصة بمدينة يافا، وتمتد هذه الحقب من (٨٠٣ ـ ٣٣٢ ق.م)، أخضع «سنحاريب الآشورى» يافا مع مدن الساحل الفلسطينى وخربها، ثم احتل «نبوخذ نصر البابلى» فلسطين عام (٥٨٧ ق.م) وقضى على آخر محاولات ملك مصر لإعادة نفوذ مصر إلى آسيا الغربية..

وفى عام (٥٣٨ ق.م) دخلت فلسطين فى حوزة «كورش» ــ الملك الفارسى وشهدت يافا فى عام (٥٢٥ ق.م)توقف أسطول «قمبيز بن كورش» فى طريقه لإخضاع مصر، وقد منح «قمبيز» ملك صيدا مدينتى (الطنطورة ويافا) تقديرًا لخدمات الأسطول الفينيقى. وإلى هذه الفترة من السيادة الصيدوية على يافا، يعود بناء معبد الإله الفينيقى «أشمون» ثم عادت يافا إلى الإدارة الفارسية المباشرة (١٦) سنة أخرى.

• المرحلة اليونانية والرومانية والبيزنطية •

كانت يافا بسبب صلاتها التجارية مع جزر بحر إيجة من أكثر المدن تقبلاً للحضارة اليونانية، وقد استوطنها عدد من اليونانيين، وقد قام «الإسكندر الأكبر

المقدونى» بفتحها عام (٣٣٢ ق.م). وتنازع يافا قواد الإسكندر بعد موته عام (٣٢٣ ق.م) فأصبحت أحد أهم المراكز الهلنستية فى فلسطين، ومما زاد فى شهرتها ميناؤها الهام، فضلاً عن أنها كانت بمثابة نقطة دفاعية حصينة بالنسبة للبطالمة، إذ يتضح من ذلك أن «بطليموس الأول» فور استيلائه على فلسطين للمرة الأولى عام (٣٣٢ ق.م) وضع بها حامية مقدونية، وقد شهدت فترة ازدهار أيام حكم بطليموس. ثم حكم السلوقيون يافا، وفى أيامهم حدثت ثورة المكابيين، ونال على أثرها اليهود نوعًا من الحكم الذاتى، وقد استغل «جوناثان» أخو «يهوذا» القلاقل الداخلية فى المملكة السلوقية، كى ينال حق الإشراف على الساحل كله من صور شمالاً حتى حدود مصر جنوبًا.

وقد قاوم أهل يافا التى كانت قاعدة كبرى للعمليات السلوقية حكم جوناثان فدخل المدينة مرتين، وأجلى سكانها اليونان، وقوى تحصيناتها وحسن مبانيها حوالى عام (١٠٤ ق.م) وبقيت كذلك حتى استردها الرومان. وعلى أى حال فلقد ازدهرت هذه المدينة - إبان الفترة اليونانية - وأقام فى مينائها - طبقًا لما جاء فى برديات «زينون» - كثيرٌ من التجار، والموظفون الإغريق، وظلت سيدة البحار والتجارة البحرية وتبين لنا ذلك من عملتها التى ظهر عليها صورة الإله «بوسيدون» إله البحر.

ثم خضعت يافا لحكم الرومان عام (٦٦ ق.م)، حين قضى الرومان على نفوذ المكابيين السياسى، فأعلنت المدن الساحلية - ومنها يافا - مدنًا حرة، لها قدر كبير من الحكم الذاتى. وتعود إلى هذه المرحلة قطع النقود التى تحمل صورة «اندروميدا» وهى تجلس على صخرة، وترفع يديها إلى السماء.

وقد كافأ «يوليوس قيصر» ـ حاكم آدوم ـ «انتيباتر العسقلانى» على مساعدته إياه فى حملته على مصر فجعله حاكمًا على القدس (٤٩ق.م) وملكه يافا ومنحها امتيازات كثيرة، ثم ثبت «مارك انطونيوس» أبناء «انتيباتر» على حكم يافا، وقد تمكن واحد منهم وهو «هيرودوس الكبير» من حكم فلسطين كلها وأجزاء من شرقى الأردن، وقد قام بإنشاء ميناء قيسارية، لينافس يافا ويكون بديلاً عنها. وانتقلت يافا والمدن الساحلية إلى حوزة «كليوباترا». وبعد سقوطها أعاد «أغسطس» - إمبراطور روما - مدينة يافا إلى «هيرودوس» عام (٣٠ ق.م)، وبعد موت «هيرودوس» أنهى أغسطس استقلال فلسطين، وألحقها بولاية سورية، ففصلت يافا إداريًا عن القدس وأعيد توحيدها مع المدن العشر الممتازة الساحلية التى تتبع الحكام أو النواب الرومانيين، ومركزها فى قيسارية.

كان سكان يافا من أوائل من اعتنق المسيحية، وكانت المدينة مركزًا لنشاط الرسول «بطرس» وقد ذكرت فى سفر أعمال الرسل من العهد الجديد، وأقيم فيها كرسى أسقفية تابعة لبطريركية القدس، وأنشئت فيها كنيسة القديس بطرس، وأصبح الحجاج يأتون إليها فيما بعد لزيارة قبر «طابيثا» - اسم آرامى معناه غزالة - قرب مقام الشيخ أبو كبير وبيت «سمعان الدباغ» عند جامع الطابية حاليًا، وهما مكانان يرتبطان ببطرس. وفى هذه المرحلة انتشرت مساكن يافا على مساحات واسعة خارج الأسوار.

غدت يافا مسرحًا للحوادث خلال ثورة اليهود ضد روما فى القرن الأول الميلادى، وقد استولى الرومان عليها ونهبوها وأحرقوها وقتلوا الكثير من يهودها، ثم عاد من نجا منهم إلى خرائبها، وامتهنوا القرصنة على السواحل

السورية المصرية، وأعاد الرومان احتلال يافا أيام الإمبراطور «نيرون» عام (٦٨م) فهدموها وأقاموا معسكرًا محصنًا على رأس رابيتها لمنع اليهود من العودة إليها، وقد سك القـادة الرومان فى ذكرى انتـصارهم نقودًا يشـير بعضـها إلى تحطيم السفن اليهـودية فى يافا، الأمر الذى يدل على الأهمية الـعسكرية التى حملت الرومان على احتلالها.

وقعت يافا زمنًا قصيـرًا تحت حكم «زنوبيا» - ملكة تدمر - قبل أن يقضى الإمبراطور «أورليان» على نفوذ هذه المملكة عام(٢٧٣م)، ولم يكن لوقوع يافا تحت حكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) من أثر يذكر فى حياة أهل المدينة ومظهرها سوى ازدياد أهميتها التجارية.

• من الفتح الإسلامى حتى الحروب الصليبية •

فتح «عـمرو بن العـاص» يافا عام دخـول «عمر بن الخـطاب» القدس فى (١٥هـ/ ٦٣٦م)، ويقال فتحـها «معاوية» وعاد إليها اسم يـافا القديم، وأكملت القبائل العـربية التى نزلت فلسطين عمليـة تعريب سكانها ولغتـها، وقد ظلت طوال قرون الحكم العربى من مدن فلسطين الهامة، ومركزًا تجاريًا رئيسًا، ومرفأ لبـيت المقدس، ومـرسى للحجـاج، وإليهـا ينسب عدد من الـفقـهاء ورواة الحديث.

وحين استقل «أحمد بن طولون» بمصر عن الخـلافة العباسية (القرن الثالث الهجرى/ التـاسع الميلادى) دخلت فلسطين فى ممتلكاته، وقد بنـيت فى عهده قلعة يافا، وعـرفت حينها باسم الطابية، ونقل إليهـا «ابن خمارويه» بالأسطول قـسمًـا من جيـشـه الذى هزم به الخليفـة العـباسى فى مـعـركة الطواحـين

(٢٧١هـ/ ٨٨٥م)، وربما كانت هى الطواحين المقامة على نهر العوجا شمالى يافا، وقد أصبحت يافا - فى أواخر القرن الثالث الهجرى - مركزًا تجاريًا رئيسًا لكونها ميناء الرملة عاصمة البلاد آنذاك.

ولما وقع الصدام بين القرامطة والفاطميين حكام مصر الذين مدوا سلطانهم حتى دمشق فى منتصف القرن الرابع الهجرى، تراجع الفاطميون فاحتموا بيافا، واستولوا عليها، ثم عاد الفاطميون وأخرجوهم منها وقضوا على نفوذهم، ويصف «المقدسى» يافا فى هذه الفترة بأنها: خزانة فلسطين، وفرضة الرملة، وعليها حصن منيع بأبواب مجددة، وباب البحر كله حديد.

وكانت يافا مركزًا لتبادل الأسرى على الساحل السورى، وقد أصابها زلزال شديد عام (٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م)، فأحدث فيها خرابًا كبيرًا، ولكن ذلك كله لم يمنع نزول الحجاج الأوروبيين فيها، تحملهم إليها الأساطيل الإيطالية فى طريقهم إلى القدس.

ثم حكم السلاجقة فلسطين وفيها يافا عام (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م) فهدم القائد السلجوقى «اتسز» سور المدينة، وفى هذه المرحلة من الصراع السلجوقى ـ الفاطمى وصلت أولى حملات الفرنجة الصليبية.

• يافا والحروب الصليبية •

بوصول أخبار الزحف الصليبى إلى يافا، أخلتها حاميتها من السكان وهدمتها وميناءها لمنع الصليبيين من استخدام قاعدتها، ولم يستطع الأسطول الفاطمى الراسى فى قاعدة عسقلان أن يمنع سفن «جنوة وبيزا» من إنزال المؤن والأعتدة فى ميناء يافا، ولما تم استيلاء الفرنجة على القدس وعادوا إلى يافا

شرعوا يعيدون في بنائها وبناء أسوارها وقلعتها وميناءها، ورجع بعض السكان إلى المدينة واستقر فيها إلى جانبهم عدد كبير من الفرنجة.

وحينما أقيمت مملكة القدس اللاتينية آخر عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) جعلت يافا وما جاورها «كونتية» تابعة لها على النمط الإقطاعي، وبعد الاستيلاء على عسقلان ألحقت بها ودعيت «كونتية يافا وعسقلان»، وقد أعيد تأسيس أسقفية يافا، ومنح «غودفري» سنة (٥٠٤هـ/ ١١١٠م) أهل «بيزا» حق تملك ربع المدينة، ومنح أهل البندقية امتيازات أخرى مقابل مساعداتهم العسكرية، الأمر الذي جعلهم سادة التجارة الخارجية في يافا.

وعادت يافا إلى حكم العرب المسلمين (١١) سنة فقط خلال الاحتلال الفرنجي، وقد سعى الصليبيون لصبغها بالصبغة الفرنجية، وظلت المنفذ الوحيد لمملكة القدس اللاتينية، ولما فقد الفرنجة القدس أصبحت عكا الميناء العسكري الرئيس، واحتفظت يافا بالمكانة الأولى في التجارة والحج.

ولما هزم صلاح الدين الصليبيين في معركة حطين عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) أمر أخاه «الملك العادل» بالتوجه إلى يافا فاستولى عليها، ثم أمر صلاح الدين بهدمها مع غيرها من المراكز الساحلية، خوفًا من أن يستخدمها الفرنجة بعد استيلاء جيوش الحملة الصليبية الثالثة على عكا بقيادة «ريتشارد» - ملك إنجلترا و«فيليب أغسطس» - ملك فرنسا ودخلها الفرنجة بعد معركة (أرسوف) الشهيرة (١١٩١م) بين صلاح الدين وريتشارد، فشرع هذا يعيد بناء أسوارها وأبراجها، ثم استطاع صلاح الدين فتحها (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) فقاد ريتشارد النجدات إليها من عكا، ثم استرد «الملك العادل» يافا (٥٩٣هـ / ١١٩٧م)

وخربهـا، ولكنه عاد فـتنازل عنها صلحًـا لجيوش الحـملة الصليبيـة الخامـسة (٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م) ونزل يافا «فردريك الثـانى» قائد الحملة الصليبيـة السابعة، وحصنهـا وعقد مع «الملك الكامل» صلح يافـا عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٩م) الذى تملك بموجـبه الفرنجـة المدينة، وأصلح فـريدريك أسعـار يافا. ونزل يافـا عام (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) «لويس التاسع» بعد خلاصه من الأسر فى مصر، وأعاد بناء أسوار المدينة، فامتدت إلى البحر، وشيد (٢٤) برجًا، وحفر الخنادق حول الأسوار، وأنشأ كنيسة وديرًا للفرنسيسكان.

• يافا فى العهد المملوكى •

فتح سلطان مـصر المملوكى «بيبرس» يافـا عام (٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م) وأجلى سكانها وهدم أسوارها وقلعتها وبيوتها، ليمنع اسـتخدامها موقعًا لإنزال جيوش الفرنجة، ولم يدم خراب يافا طويلاً، فقد عاد إليها أهلها وعمرت بيوتها وأعيد بناء قلعتـها وترميم أسوارها، واسـتأنفت السفن التـجارية، ولاسيمـا الإيطالية الرسـو فى مينائهـا، وقـد زارها «أبو الفدا» صـاحب حـماة عـام (٧٢٢هـ/ ١٣٢١م) فوصفها فى تقويم البلدان بأنها: بلدة صغيرة كثيرة الرخاء ساحلية من الفرض المشـهورة. ومدينة يافا كـانت حصنًا كبيـرًا فيه أسواق عـامرة ووكلاء التجار وميناء كبير فـيه مرسى المراكب الواردة إلى فلسطين والمقلعة منها إلى كل بلد.

لكن السلطان «محمد بن قلاوون» أمر بتخريب ميناء يافا عندما وصلته عام (٧٣٨هـ/ ١٣٣٧) أخبـار الاستـعداد لحملة صـليبيـة جديدة. ويبـدو أن يافا هجرت وأصبحت خرابًا فى أواخر القـرن الرابع عشر الميلادى، وقد يعزى هذا

إلى هجرات البدو، وإلى تخريب أحدثته حملة صليبية قام بها ملك قبرص، ولم تجر أية محاولة لإعادة بناء المدينة مدة ثلاثة قرون، ولكن الموقع نفسه ظل محط نزول التجار ومكان رسو سفن الحجاج إلى القدس، وكان جند السلطان يقيمون فى برجى القلعة المرممين لحماية الحجاج.

• يافا فى العهد العثمانى •

من دخول العثمانيين إلى خروج «إبراهيم باشا ابن حاكم مصر محمد على باشا» (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م - ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م) أصبحت يافا كغيرها من مدن فلسطين تابعة لولاية دمشق، وظلت على حالها من الخراب والهجر، ولم يترك دخولها فى حكم «الأمير فخر الدين المعنى الثانى» (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م - ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥ م) أثرًا عمرانيًا فيها سوى أن تكون القلعة والأسوار قد رممت، وقد أقامت الطوائف المسيحية فيها بيوتًا لاستضافة الحجاج فى أواسط القرن السابع عشر، وأعاد العثمانيون تحصين المدينة وعززوا حاميتها وحسنوا ميناءها. وقد جذب ذلك إليها التجار من المناطق المجاورة للإقامة فيها، فامتدت البيوت على منحدرات الرابية، وتحسنت أحوال المدينة وراجت أسواقها وقصدتها السفن من مصر وأوروبا، وسكن المدينة علاوة على أهلها بعض الأتراك واليونان والفرنسيين وقناصل الدول الأوروبية.

وكانت يافا لا تزال بلا أسوار وتابعة لباشا غزة فى مطلع القرن الثامن عشر، وقد بدأ إحياء بعض الصناعات فيها كصناعة الصابون وغزل القطن، وفى منتصف هذا القرن شهدت حركة عمرانية، وزادت فيها حركة المسافرين. وورد أول ذكر لبرتقال يافا (١١٦٥هـ/ ١٧٥١م) فى كتاب عالم الطبيعة السويدى

«فردريك هاسل كويست» عن رحلاته إلى الشرق. وقد بلغ عدد بيوت يافا عام (١١٨٠هـ/١٧٦٦م) ما بين (٤٠٠ و٥٠٠) بيت، وغطت البساتين مساحات واسعة من أراضى المستنقعات حولها، وأصبح لكثير من الدول الأوروبية ممثلون فيها. وفى عام (١١٨٠هـ/١٧٦٦م) دخلها «ظاهر العمر الزيدانى» وأقام فيها حامية، ثم طرده العثمانيون منها، وعاود فتحها عام (١١٨٧هـ/١٧٧٣م).

ثم حاصرها «محمد أبو الذهب» حاكم مصر وفتحها عام (١١٨٩هـ-١٧٧٥م) بعد مجزرة عظيمة، ونفى كثيرًا من أهلها إلى مصر والرملة. وقد نزل يافا بعدئذ سكان مصر والمغرب ومختلف المدن الشامية.

استعادت يافا حياتها وازدهارها بعد أقل من عشر سنوات، وإن كان ميناؤها ظل محتاجًا إلى ترميم، وغدت تابعة للوالى فى عكا. وقد انسحبت إليها الحامية العثمانية بعد استيلاء جيش نابليون عام (١٢١٤هـ/١٧٩٩م) على غزة والرملة، ثم دخلها الفرنسيون بعد حصار طويل ومقاومة شديدة، وأعملوا فيها القتل والنهب، وأعدم نابليون (٤٠٠٠) من حاميتها، وقد فشا الطاعون فى جيش نابليون بسبب القتل الكثير. واستمر احتلال نابليون للمدينة ثلاثة شهور. وأعيد بناء تحصينات يافا، وقبل إتمام عملية الترميم حاصرها «أحمد باشا الجزار» تسعة أشهر ودخلها، ثم عادت بعد وفاته إلى العثمانيين عام (١٢٢١هـ/١٨٠٦م)، وقد تقدمت بعمرانها وثروتها فى عهد متسلمها «محمد آغا أبو نبوت» (١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م - ١٢٣٢هـ/ ١٨١٨م) وبلغ عدد سكانها (٦٠٠٠) نسمة، وحصنها أبو نبوت فحفر حولها خندقًا وأقام سدًا على الميناء، وشيد الجامع الكبير، المعروف باسمه وألحق به مكتبة، وبنى جنوبى

الجامع سوقًا وسبيلاً فوق نبعين عذبين بواجهة رخامية مزينة، وبنى كذلك سبيلاً آخر على طريق القدس، ولا يزال يدعى «سبيل أبو نبوت».

وإلى ميناء يافا حمل الأسطول المصرى بقيادة «إبراهيم باشا» المدافع والذخيرة والمؤن من الإسكندرية، عندما سير «محمد على باشا» جيوشه لقتال الدولة العثمانية، وعسكر الجيش المصرى جنوبى يافا على تلال بينها وبين مقام الشيخ «إبراهيم العجمى»، وقد أجمع أعيان البلد أمرهم على تسليم المدينة دون مقاومة.

ازدهرت تجارة يافا خلال حكم «إبراهيم باشا» وكثرت فيها مصانع الصابون والفخار والمدابغ، واتسعت بساتينها، وبلغ عدد سكانها (١٥٠٠٠) نسمة. وضمنت سفن «إبراهيم باشا» الحماية للميناء من اعتداء القراصنة الروم، وكان فى نية القائد المصرى أن يحول (بصَّة يافا) إلى مرفأ داخلى تصله قناة بالبحر، ولكن المشروع لم ينفذ، بسبب اندلاع الثورة فى بلاد الشام ضد حكم مصر، وكانت النجدات المصرية تصل بحرًا إلى ميناء يافا وتنطلق منها إلى الداخل.

وبعد عودة إبراهيم باشا إلى مصر عام (١٨٤٠م) بقيت فى يافا مئات العائلات المصرية، فاستقرت فى ضواحيها وأنشأت قرى صغيرة محاطة بالبساتين، عرفت الواحدة منها باسم «سكنة» ومنها: السكنة المصرية وسكنة أبو كبير وسكنة حماد وسكنة الدرويش وغيرها.

ومن النصف الثانى للقرن التاسع عشر إلى الانتداب البريطانى عام (١٩١٨)، أخذت يافا تنمو بخطوات سريعة، فزاد عمرانها وكبرت مساحتها، وفى نهاية هذا القرن بنى الفرنسيسكان دَيْرَهُمْ فى موقع القلعة، وفى عام

(١٨٦٧) أنشئ طريق يافا ـ القدس، وفى عام (١٨٨٠) هدم سور المدينة، وملئ الخندق ترابًا وحجارة، وأقيم فوقه على طول الشاطئ الشارع الرئيس الذى يصل المدينة بحى العجمى، وأخذت يافا تتسع من جهاتها الثلاث، فبوشر عام (١٨٨٦) بناء حى المنشية وحى العجمى، وفى عام (١٨٨٩) نالت شركة فرنسية امتياز إنشاء خط سكة حديدية يربط يافا بالقدس وطوله (٨٧ كم)، وقد افتتح عام (١٨٩٢)، وكان أول خط سكة حديدية فى فلسطين.

وظلت يافا حتى الحرب العالمية الأولى ميناء فلسطين الأول، وكانت السفن تنقل إليها البضاعة وتحمل منها البرتقال والصابون والحبوب وغيرها، وكانت مصر أول الأقطار التى تصدر إليها يافا، تليها بريطانيا، فتركيا، فروسيا، وفرنسا. قفز عدد سكان يافا من (٣٣٠٠٠) عام (١٨٩٢) إلى (٧٠٠٠٠) قبل الحرب العالمية الأولى.

• يافا فى عهد الانتداب البريطانى •

ولما دخلت تركيا الحرب رحل عن يافا رعايا دول الحلفاء، وقام «حسن الجابر»- قائد موقع المدينة- بإجراء كثير من التحسينات فيها، فعمر الميناء، وأنشأ شارع جمال باشا عبر البيارات شرقى المدينة، ووسع الشوارع، وأزال سوق أبى نبوت لتسهيل الوصول إلى الميناء، وبنى جامعًا فى حى المنشية قرب الشاطئ.

ضربت السفن البريطانية والفرنسية يافا مرتين عام (١٩١٦)، ولكنها لم تحدث فيها تخريبًا، وكان العثمانيون يتوقعون إنزالاً بريطانيًا فيها فأخلوها فى آذار/ مارس عام (١٩١٧)، وفى ١٦ من تشرين ثان/ نوفمبر (١٩١٧) دخلت طلائع القوات البريطانية المدينة، وفى عهد الانتداب البريطانى تطورت يافا

تطوراً ملموسًا فى سكانها وعمرانها، فقد ازداد عدد السكان من (٤٧٧٠٩) نسمة عام(١٩٢٢) إلى (٥١٨٦٦) نسمة عام (١٩٣١)، وفى عام (١٩٤٥) قدر عدد سكان يافا بنحو (٦٦٣١٠) نسمة، وازداد العدد إلى (٧٢٠٠٠) نسمة عام (١٩٤٧)، وواصل العمران نموه وتحسنه أيام الانتداب، بسبب ازدياد عدد السكان من جهة، وتنوع وظائف المدينة من جهة ثانية.

• تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلى •

على امتداد عهد الاحتلال البريطانى الذى استمر ثلاثة عقود، والذى وضع الوطن الفلسطينى خلال هذه المدة، قطعة إثر أخرى، بين أنياب حلفائه الصهيونيين، فإن مدينة يافا بوجه خاص قد لعبت دور الرمز العربى فى مقاومة أطماع الغزاة العنصريين، وذلك بحكم اقتطاعهم للأجزاء الشمالية الشرقية من أرضها الطيبة، بغية تضخيم مستوطنة «تل أبيب» وإشباعها حتى التخمة بالمهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية على وجه الخصوص، فهكذا وقعت يافا منذ البداية فى موقع المصادمة الحادة المباشرة مع الغزاة العنصريين، هؤلاء الذين اجتاحوها كقطعان الذئاب الجائعة عشية تأسيس إسرائيلهم سنة (١٩٤٨).

ونتج عن ذلك تشريد معظم سكانها العرب واستشهاد أكثر من (١٣٠٠) عربى، وقام الصهيونيون بحشر من تبقى من العرب فى حى العجمى بالمدينة، وأحاطوه بسياج من الأسلاك الشائكة، وجعلوا الدخول إليه والخروج منه بإذن من السلطة المحتلة، والجدير بالذكر أنه لم يبق فى يافا من سكانها العرب عام (١٩٤٨) سوى (٣٦٥١) عربيًا، وقد بلغوا عام (١٩٤٩) نحو (٤٠٠٠) عربى، ووصل عددهم عام (١٩٥٨) إلى نحو (٥٦٠٠) عربى، وفى نحو عام

(١٩٦٥) إلى نحو (١٠٠٠٠) عربى، وعام (١٩٨٠) نحو (٢٠٠٠٠) عربى.

وقد ألحقت يافا بتل أبيب تحت إدارة موحـدة، وتدفق إليها آلاف المهاجرين الصهـيونيين، وتخلفت يافا حـاليًا عما كـانت عليه قبل عـام (١٩٤٨)، فقد تغيرت بنيتهـا الداخلية، وتبدل مظهرها الخارجى وملامحـها الحضارية، فحل الطراز الأوروبى فى البناء والعمارة وتخطيط الشـوارع والطرق، وأسلوب الحياة محل الطراز العربى الذى كان سائدًا، ولم يبق من الأحياء التى ترمز إلى تاريخ المدينة سوى الحى العربى القـديم الذى انقلب إلى حى للفن والفنانين. وحافظ حى العجمى فى جنوب يافـا على أوضاعه، ويعيش فيـه العرب ببؤس، ولا نجد مـا نختتم به هذه الدراسة إلا أبيـات نظمها شاعـر يافا «محمـود الحوت» مخاطبًا الأرض التى كانت لطفولته مهدًا ولصباه ملعبًا:

يافا لقد جـف دمـعى فانتحبت دمًا
متى أراكِ؟، وهل فى العـمر من أمد؟
أُمسـى وأُصبـح والذكـرى مجـددة
محمولة فـى طوايـا النفـس للأبـــد
ما بـال قلبى إذا مـا سـرت فـى بلـد
يصيح من وجده فى الصدر وا بلـدى!
مهما استقــام لــه مـن عيشــة رغـد
وجدتـــه هازئـــًا بالعيشـــة الرغـد
تعبــت لكــنني مازلـت فــى تعبــى
أشكــو إلـى الله لا أشكـو إلى أحـد

• المراجــع •

١ــ الموسوعة الفلسطينية الجزء الرابع ، دمشق ١٩٨٤ .

٢ــ الموسوعة الفلسطينية، القسم الثانى، الدراسات الخاصة، المجلد الأول والمجلد الثانى، بيروت ١٩٩٠ .

٣ــ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الديار اليافية، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٢ .

٤ــ د. عبد العظيم الراعى، محاضرات فى تاريخ العصــر الهلينستى ومصر البطليمية، دار لوتس للطباعة، القاهرة ١٩٧٩ .

٥ــ على المليجى مسعود، يافا مشروع تخطيط المدينة، مطبعة مصر، القاهرة ١٩٤٨

٦ــ جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودى، الأهلية للطباعة والنشر، عمان ١٩٩٨

٧ــ جيــمس بريتشارد، نصــوص الشرق الأدنى القديــمة المتعلقــة بالعهد القــديم، الجزء الأول، ترجمة د. عبد الحميد زايد مطبعة هيئة الآثار، القاهرة ١٩٨٧ .

لكى لا ننسى
الناصرة المنتفضة

إن أهم ما اختلفت به وتمايزت فيه انتفاضة الأقصى المباركة اتساع امتدادها الأفقى الجغرافى، وعلى رغم أن مثل هذا التطور قد حدث سابقًا فى المناطق المحتلة بأسرها، فإنه كان هذه المرة أشد وضوحًا وأرسخ، فما كادت منطقة فلسطينية تصاب بمكروه حتى يتداعى لها باقى الجسد الفلسطينى بالحمى والسهر، فإننا نستطيع فى ضوء الوقائع المتراكمة تعميم هذه الحقيقة، بحيث تضاف إليها مناطق الجليل والنقب والمثلث التى خضعت للاحتلال منذ عام ١٩٤٨.

كم كانت المفاجأة أو الصدمة أو اللطمة التى أصابت الصهاينة من جراء الموقف الذى اتخذه فلسطينيو ١٩٤٨ حين حاول السافل السفاح شارون تدنيس حرم القدس، لتؤكد شمولية الحدث، وفشل محاولات التفرقة عبر شعار عرب إسرائيل وغيره، ولتؤكد حفاظ هؤلاء على هويتهم الفلسطينية، وعلى ثقافتهم العربية، وكل مميزات الشخصية الفلسطينية أمام أكثر من نصف قرن من القمع الإسرائيلى الذى استهدف ويستهدف إذابتهم كأقلية قومية داخل الكيان الإسرائيلى، وأن هذه الانتفاضة قادمة من عمق التاريخ العربى فى فلسطين من عمق الجذور الفلسطينية التى تربو على المليون ونصف المليون سنة مضت، من عمق المأساة، من الجراح والنزيف الفلسطينى المتواصل. . لاشك فى أن هذه الانتفاضة قد رسخت وقوت فينا روح التفاؤل فى المستقبل، وأن الضفة أقرب إلى عكا، والقطاع أقرب إلى الناصرة، ودائمًا يبقى الوطن فى القلب النابض.

* * *

• عروس الجليل •

مدينة عربية ومركز قضاء يحمل اسمها، وهى واحدة من أكبر وأجمل مدن فلسطين، ولها مكانة خاصة فى نفوس المسيحيين فى مختلف أنحاء العالم، وقد نسب إليها السيد المسيح فدعى بالناصرى، وعرف أتباعه بالمسيحيين تارة والنصارى تارة أخرى.

وإذا كانت «صفد» عاصمة الجليل الأعلى فإن «الناصرة» عاصمة الجليل الأدنى، فهى تقوم فى قلب الجليل الأدنى، وتطل على سهل مرج ابن عامر من الشمال، فهى لذلك نقطة انتقالية بين منطقة مرج ابن عامر السهلية، ومنطقة الجليل الأعلى الجبلية، وقد كان لموقعها الجغرافى أهمية منذ القديم. فكانت طرق فرعية تصلها بالطرق الرئيسة التى تربط بين سورية ومصر من جهة، والأردن وفلسطين من جهة أخرى. وكانت بعض القوافل التجارية تعرج عليها أثناء مرورها فى سهل مرج ابن عامر.

وقد ضمَّن الفاتحون خططهم العسكرية السيطرة على الناصرة للتحكم فى سهل مرج ابن عامر منفذ الجيوش الطبيعى، ولاتخاذ المدينة قاعدة انطلاق للسيطرة على المناطق المجاورة جبلية كانت أم سهلية أم غورية، ولا يزال لمواقع الناصرة أهميته التجارية والسياحية والعسكرية. فموقعها الجغرافى فى بقعة تتوسط بيئات متنوعة حولها، جعلها مركز التبادل التجارى لمنتجات هذه البيئات.

ووقوع الناصرة فى بقعة مقدسة عند المسيحيين جعلها محط أنظار السياح، لزيارة الأماكن الأثرية التى ارتادها السيد المسيح، والتمتع بالمناظر الجميلة،

فالمنظر من المرتفعات الواقعة فوق الناصرة يعد من أجمل مناظر فلسطين، فتقع منها على البحر والكرمل والمرج وأطلال مجدو والطور والدحى وجبال نابلس وغور الأردن وغيرها.

ويضاعف من أهمية موقع الناصرة أنها عقدة مواصلات تتفرع منها طرق برية إلى المدن والقرى المجاورة، وتقوم الناصرة فوق رقعة متوسطة الارتفاع وترتفع نحو ٤٠٠م عن سطح البحر، و٣٠٠م عن مستوى مرج ابن عامر. وتحيط بالناصرة جبال مرتفعة هى جزء من جبال الجليل الأدنى التى تمتد بصفة عامة من الغرب إلى الشرق، وتنحدر تدريجيًا نحو سهل المرج، وتحصر السلاسل الجبلية فى الجليل الأدنى أودية مستعرضة بينها لها محور الجبال نفسه. ولذا فإن انفتاح الناصرة على المناطق المجاورة فى الاتجاه الشرقى الغربى أكثر يسرًا منه فى الاتجاه الجنوبى الشمالى. وأهم الجبال المجاورة للناصرة جبل طابور (الطور)، وقد قال فيه الرحالة بيركهارت: إنه مغطى فى الصباح بضباب كثيف، يتفرق عند منتصف النهار، وخلال النهار بكامله تهب رياح شديدة، ويتساقط الندى فى الليل بغزارة لم أشاهد مثلها فى أى مكان آخر فى سورية، وفى أقسام الجبل الخارجية توجد خنازير برية وقطع ثلجية بيضاء، وجبل صرطبة شرقى الناصرة بين الناصرة وجبل الطور، وجبل القفزة ويقع فى ظاهر الناصرة الجنوبى، وجبل الدحى جنوبها الشرقى، وجبل السيخ شمالها الشرقى، وجبل الرينة شمالها.

وتعد منطقة الناصرة خطاً لتقسيم المياه بين وادى الأردن شرقًا والبحر المتوسط غربًا، إذ ينحدر منها وادى البيرة وروافده نحو نهر الأردن، ونهر المقطع

وروافده نحو البحر المتوسط، ونظرًا لوجود بعض الصدوع (الانكسارات) التى تمتد على الأغلب فى اتجاه شرقى، تتخذ الأودية والمنخفضات المتشرة فى المنطقة الاتجاه نفسه. وقد هبطت هذه الأودية بفعل حركات تكوينية على طول الصدوع، وأصبحت فتحات طبيعية بين السلاسل الجبلية من جهة ومصادر طبيعية للمياه الجوفية من جهة أخرى، وأهم الينابيع والآبار، والمرجح أنها كانت هكذا منذ أقدم الأزمنة التاريخية، بدليل الآبار والصهاريج القديمة القائمة لجمع ماء المطر على الجبال وسفوحها وفى الوادى حتى بجوار العين نفسها.

ومناخ الناصرة حسن؛ لأنها مبنية فى موقع جبلى، ويبلغ المتوسط السنوى للحرارة ١٧ درجة، ولايزيد متوسطها اليومى من كانون أول/ ديسمبر إلى آذار/ مارس على ١١ درجة، ويعد شهر كانون ثان/ أغسطس من أكثر شهور السنة برودة، إذ يبلغ متوسط الحرارة فيه ٩ درجات، وشهر آب من أكثر الشهور حرارة بمتوسط مقداره ٢٤ درجة. وتتعرض الناصرة فى الشتاء إلى هبوب رياح شمالية باردة أحيانًا، وتؤدى هذه الموجات الباردة إلى حدوث الصقيع، ومتوسط كمية الأمطار السنوية ٦٣٩مم، ونظرًا لارتفاع كمية الأمطار التى تهطل على الناصرة، وانخفاض درجات الحرارة شتاء، وبالتالى انخفاض كميات البخر والنتح - فإن الموازنة المائية لفصل النمو تتسم بفائض مائى يظهر أثره فى كثرة الينابيع والمسيلات المائية فى المنطقة.

• من هنا بدأت الحضارة •

اكتشفت فى أراضى الناصرة وما حولها مغارة القفزة الكائنة على الجانب الشرقى من وادى جبل القفزة، وعلى بعد ٣٩٧ مترًا فى جنوب الناصرة

وغيرها مواقع أثرية تدل على حياة بشرية تعود لأكثر من مائة ألف عام خلت. وتدل الآثار والمخلفات التى تركها الإنسان فى ذلك العصر على أن بداوة الجمع والالتقاط كانت النمط الأساسى لحياة الإنسان. وأما آلاته وأدواته فكانت العظام وأحجار الصوان. واستمرت هذه البقاع يسكنها الإنسان طوال العصور الحجرية كلها القديمة والوسيطة والحديثة. وربما فيها تطور الإنسان إلى ما يسمى بالإنسان العاقل، جدنا المباشر والأقرب لنا من كل الأنواع البشرية التى عاشت فى عصور ما قبل التاريخ، فقد تم التعرف على مخلفات الإنسان العاقل الأثرية داخل كهف القفزة ومواقع أخرى من فلسطين. وقد شهدت أراضى الناصرة وما حولها غالبية الحضارات التى ظهرت فى فلسطين إبان تاريخها المدون، فنجد «جت حافر» الواقعة على مسيرة ثلاثة أميال للشمال من الناصرة، وذكر أن النبى يونس (عليه السلام) ولد فى هذه البلدة الكنعانية، و«عليوط» - بالآرامية المرتفع - قرية من أعمال الناصرة، و«دبرة» بمعنى مرعى، وتعرف باسم قرية «دبورية» اليوم، وتقع للشرق من الناصرة فى السفح الغربى لجبل تابور. و«شوفم» بمعنى موضع الراحة، وهى قرية «سولم» الآن، وهى قرية كنعانية تقع فى الجنوب الشرقى من الناصرة. و«أزنوت تابور» بمعنى قمم تابور، ومكانها اليوم قرية «أم جبيل» بالقرب من جبل تابور ناحية الناصرة. و«حنانون» بمعنى المنظور إليه بالنعمة، وتعرف اليوم باسم «تل بدوية» فى قضاء الناصرة. و«يقنعام» بمعنى مجموع الشعب، على بعد ١٢ ميلاً إلى الجنوب الغربى من الناصرة. و«طرعان» بمعنى حظيرة الغنم من أعمال الناصرة. وقد دلت الحفريات الأثرية على أن الناصرة كانت مسكونة فى العصر البرونزى المتوسط، وفى العصر الحديدي، وقد وجدت فيها قبور أثرية منقورة فى الصخور أو فى الكهوف.

• مدينة المسيح •

وعروس الجليل حافلة بالذكريات المسيحية، والتى كان بيت من بيوتها قد جمع الطهارة بأكملها، وأنشأ شابًا خالصًا من كل شائبة فى وجه دنيا رجس وسوء. استمدت الناصرة مكانتها فى التاريخ لأنها مدينة السيد المسيح ومريم العذراء، ففى الناصرة استوطنت مريم العذراء ويوسف النجار، وفيها بشر جبرائيل مريم العذراء فى السنة الخامسة ق.م - كما ورد فى الإنجيل - بميلاد المسيح، وفيها قضى المسيح ٣٠ سنة من عمره، وفيها حاول اليهود من سكانها طرحه من جبل القفزة للتخلص منه. وقد منع اليهود المسيحيين من الدخول إلى الناصرة فى القرنين الثانى والثالث. ومنذ القرن الرابع بدأ تاريخ الناصرة يتحول بعد تنصر الإمبراطور الرومانى «قسطنطين» ٣٠٦ - ٣٣٧م، وذكر المؤرخ «سوزمين الغزى» أن الملكة «هيلانة» أم قسطنطين بنت كنيسة البشارة فى الناصرة. ولكن الحفريات الأثرية الأخيرة ١٩٥٥ - ١٩٦٦ تشير إلى أن أول كنيسة بنيت فى الناصرة وهى كنيسة البشارة تم بناؤها حوالى عام ٤٥٠م. وقد زار الناصرة «حاج بوردو» سنة ٣٣٣م، وكتب عنها، ولو أن الملكة هيلانة بنت كنيستها لأشار إلى ذلك. وعلى أية حال فإن اعتناق قسطنطين للمسيحية مكن المسيحيين من زيارة الناصرة، والتبرك بالأماكن المرتبطة باسم السيد المسيح ووالدته العذراء. وفى سنة ٤٠٤م زارت الناصرة القديسة «باولا الأرملة الغنية» وكتبت تقول: ذهبنا إلى الناصرة التى هى كاسمها زهرة الجليل، وقد رافقها فى زيارتها القديس «جيروم»، وسنة ٥٧٠م زارها «أنطونيوس مارتر» وقال: أتينا إلى مدينة الناصرة ذات الفضائل العديدة.

• فى عهد الأمويين والعباسيين •

دخلت «الناصرة» فى حوزة العرب المسلمين على يد «شـرحبيل بن حسنة» فاتح شمال فلسطين فى السنة الثالثة عـشرة للهجرة ٦٤٣م، وكانت تابعة آنذاك لجند الأردن الذى كانـت قاعدته طبـرية. وفى سنة ١٠٤هـ/ ٧٢٢م، أى في زمن الخليفـة الأموى «يزيد الثانى» زار السـائح الإنكليزى «ولبيـيلد» الناصرة، وذكر كنيسة البشارة ويستدل من تقـرير عن المعاهد الدينية المسيحية يرجع تاريخه إلى سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م (زمن هارون الرشيد) أنه كان فى الناصرة دير فيه ١٢ راهبًا، ودير آخر على جبل القفزة.

ويتحدث السائح «برنارد الحكيم» عن جو الحرية الدينية فى المدينة عند زيارته لها زمن العـباسـيين فى سنة ٨٦٩م فيـقول: يوجد سـلام تام بين المسيـحيين والمسلمين، ولو كنت مسافـرًا ومات جملى أو حمارى الذى يحمل أمـتعتى، أترك كل شىء فى مكانه بلا حارس، وأذهب إلى أقـرب مدينة فاستـأجر دابة وأعود فـأجد عند رجوعى كل شىء كمـا تركته. ولم يعكر صـفو الأمن فى الناصرة إلا قدوم جحافل الصليبيين إليها.

• فى عهد الصليبيين •

يبدو أن الناصرة حل بها خراب كبير فى القرن الحادى عشر، فالمصادر تشير إلى أن الصليبيين وجدوا المدينة خـرابًا عندما احتلوها سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م. وقد عـمَّر «تنكريد» مدينة الناصـرة وزينها وبنى فيـها الكنائس بعد أن كـان قد دخلها فـاتحًا على رأس القوة الصليـبية. ونقل الصليـبيون أسـقفية بيـسان إلى الناصرة، فصـارت مركزًا لها لأول مرة فى تاريخهـا. وفى سنة ١١٤٠م انعقد

فيها مــجمع لفض الخلاف بين البابا «فكتور الرابع» والبـابا إسكندر الثالث وقد كان كل منهما يدعى كرسى البابوية لنفسه.

وفى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م أى بعـد معركـة حطين استولى «مـظفر الدين كوكـربى» أحد قادة صلاح الدين الأيوبى على مـدينة الناصرة قسـرًا وملكها، وأظهر صلاح الدين - كما فعل فى القدس وغيرها - عطفًا على أهل الناصرة ولم يمس كنائسها بأذى. وبموجب اتفاقيـة الصلح التى عقدها مع ريتشارد ملك الإنكليز سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩٢م، بقيت الناصرة فى عـهدة صلاح الدين، غير أن الملك الأيوبى الكامل سلمهـا إلى «فردريك الثانى» - إمبـراطور ألمانيا - بعد عقد صلح بينهما سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م، وبـقيت المدينة فى حوزة الفرنجة إلى أن استردها الخوارزمية سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، ثم احتل الصليبيون الناصرة بقيادة لويس التاسع سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م لفترة قـصيرة وزارها الملك لويس فى سنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م.

• فى العهد المملوكى •

بقيت الناصرة فى أيدى الصليبيين إلى أن استعادها السلطان المملوكى الظاهر بيبـرس سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م، وطرد من كـان فيهـا من الصليبـيين وأعطاها إقطاعًا لأمـرائه، وكانت فى حالة سيـئة من جراء ما أصابهـا من الخراب على أيدى الفرنجة، وقد زاد حالها تدهورًا عندما هدم بيبرس كنيستها وأديرتها. وفى سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م احتـلها الأميـر إدوارد الإنكليزى فى الحـملة الصليبيـة التاسعة والأخيـرة لفترة وجيزة أيضًا. ولكن احتلال الناصـرة المتبادل هذا انتهى سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م، عندما أخرج السلطان خليل بن قلاوون بقية الصليبيين

من عكا وأجهز عليهم فى الناصرة وهدم كنائسها، وظلت الناصرة فى حالة من الانحطاط أكثر من ثلاثمائة سنة بعد هذا التاريخ. وقد استوطن المسلمون المدينة بعد طرد الفرنجة، ولكن ظل الرهبان والحجاج المسيحيون يزورونها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وكانت المدينة فى هذا الوقت قرية صغيرة من أعمال صفد، وقد مر بها الرحالة جون موندفيل سنة ١٣٣٢م، فوجدها قرية صغيرة غير مسورة، ولم يطرأ عليها تطور يذكر عندما مر بها فرسكو باللدى عام ١٣٨٤م.

• فى العهد العثمانى •

فى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م دخلت الناصرة فى حوزة العثمانيين، واستمرت فى أيديهم حتى عام ١٩١٨م، وحسب أقوال الرحالة الأوروبيين أنه لم يكن فى الناصرة رهبان فى أواسط القرن السادس عشر، وكان عدد المسيحيين فيها لايتجاوز بضع مئات. وفى سنة ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م عقدت معاهدة بين السلطان أحمد الأول العثمانى وهنرى الرابع ملك فرنسا، فوض الأخير بموجبها أن يقيم قناصل فى المدن، وأخذت حالة الرهبان تتحسن، وفى سنة ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م سلم الأمير فخر الدين المعنى الثانى مغارة البشارة إلى الرهبان الفرنسيسكان. ومنذ ذلك الوقت أخذ المسيحيون يتوافدون إلى المدينة بأعداد متزايدة، ووفد إليها أولاً مسيحيون موارنة ثم مسيحيون من الروم الأرثوذكس. وكانت المدينة تتعرض فى القرن السابع عشر باستمرار إلى هجمات الأعراب، وكان الحكام يتعرضون للرهبان أحيانًا ويبعدونهم، ولكن هؤلاء كانوا يعودون دائمًا. وفى سنة ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م بنى اللاتين كنيسة فى الناصرة، وكان جو التسامح الدينى يسود المنطقة منذ عهد الأمير فخر الدين

المعنى الثانى، ثـم فى عهد ظاهر العـمر الزيدانى الذى استـولى على عكا سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م، وجعلها عاصمة ملكه، وأطلق الحرية الدينية، ومد رواق الأمن ووسع التجارة، وكـان له فضل كبيـر فى عمران الناصرة. وبعـد مقتل ظاهر العمر سنة ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م تلاه أحمـد باشا الجزار الذى حكم البلاد بيد من حديد، وتميـز القرن الثامن عشر بمشـاحنات بين طائفتى الروم واللاتين خاصـة. وفى أواخر هذا القـرن قال الرحـالة الفرنسى «فـرنسوا فـولنى» عن الناصرة: سكانها ثلثهم مسلمون والثلثان مسيحيون وللآباء الفرنسيسين فيها نزل ومعابد، وهم عادة ملتزمو البلدة.

وفى نيسان/ أبريل ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م احـتل نابليون الناصرة وزار المدينة، ثم ما لبث أن انسحب منها بعـد هزيمته عند أسوار عكا، وفى سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م، رخص السلطان محمود العثمانى لرهبان الفرنسيسكان بتجديد بعض المقـامات وأقطعـهم الناصرة وبعـض القرى على أن يؤدوا خـراجهـا للدولة. وتحدث الرحالة بوركهارت عن الناصرة وكان قد نزلها سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م فقال: يتمتع مسـيحيو الناصرة بحرية كبيرة، فالرهبـان يذهبون للصيد وحدهم حسب عوائدهم مـسافة تبعـد عن الدير عدة ساعات، دون أن يتـعرضوا لأية إهانة من المسلمين.

وشهدت الناصرة والبلاد كلها عهدًا من التسامح فى فترة حكم إبراهيم باشا ابن محمـد على باشا ١٨٣١ - ١٨٤١م، وكان حكمه بداية عـهد جديد من الإدارة الحديثة.

وفى القرن التاسع عشـر بدأت الدولة العثمانية عصـر التنظيمات، وأخذت فى محاولة لتـحسين أوضاع الرعية فـيها بصورة عامـة. ومنذ بداية هذا القرن

أخذت تفد إلى الناصرة أعداد متزايدة من الإرساليات الأجنبية والتبشيرية، وتقيم فيها منشآت مختلفة من كنائس وأديرة ومعاهد تعليم لجميع الطوائف.

وعانت الناصرة كما عانت سائر المدن الجبلية فى فلسطين من زلزال عام ١٨٣٧م، الذى دمر ٤٢٤ بيتًا فيها، وأعطب ٣٧٣ بيتًا آخر، وقتل من سكانها ١٢٦فردًا.

وكانت الناصرة تقوم قبل الحرب العالمية الأولى على أربعة تلال يشكل مجموعها دائرة، ولم تكن المبانى تغطى جميع هذه التلال، بل كانت تتلاصق أحيانًا وتتباعد مختفية بين تلك التلال أحيانًا أخرى، وقد غطت جميع سطوح مبانيها بالآجر الأحمر «القرميد»، وأحاطت بها الأشجار المثمرة، ولا سيما أشجار الزيتون، ولم يكن عدد مبانيها يتجاوز ١٥ بناءً فى ذلك الوقت. وكان نموها العمرانى يمتد بخطا واسعة نحو الشرق والغرب. وقدر عدد سكان الناصرة فى عام ١٨٥٢م بنحو ثلاثة آلاف نسمة، وقدر عددهم فى عام ١٨٨١م بنحو ٥٩٣٩ نسمة، وفى عام ١٩٠٤ بلغ العدد (٦٤٥٨) نسمة، ثم ارتفع إلى ٧٩٨٨ فى عام ١٩١٢، إلى ٨٥٨٤ إبان الحرب العالمية الأولى، وكان سكانها يعملون فى الزراعة والصناعة والتجارة. وفى الحرب العالمية الأولى كانت الناصرة مقرًا لقيادة الجيش الألمانى التركى.

• فى عهد الانتداب البريطانى •

فى أوائله انخفض عدد سكان الناصرة قليلاً، وقدر العدد بنحو ٧٤٢٤ نسمة عام ١٩٢٢، ويعزى هذا الانخفاض إلى أحداث الحرب والأمراض والمجاعات التى أتت على عدد من السكان، بالإضافة إلى عامل الهجرة من

الناصرة إلى خارج فلسطين. وفى تعـداد عام ١٩٣١ ارتفع عدد سكان الناصرة إلى ٨٧٥٦ نسمة كانوا يقيـمون فى ١٨٣٤ بيتًا داخل المدينة، علاوة على ١٣٨ نسمة، كانوا يقيمون فى ٢٨ بيتًا بضواحى الناصرة.

شهـدت الناصرة بعدئذ تطورًا ملمـوسًا فى سكانها وعـمرانها، فـزاد عدد السكان وجميعهم من العـرب إلى ١٤٢٠٠ نسمة عام ١٩٤٥، وكان عددهم فى نهايـة فترة الانتـداب البريطانى نحـو ١٧٠٠٠ نسمة. وقـد أثرت الزيادة العددية للسكان فى الزيادة العـددية للمساكن والمنشآت والمرافق العـامة، وظهر ذلك فى النمو العمرانى للمدينة وتوسعها وامتدادها فوق رقعة تجاوزت مساحتها ٥٠٠٠ دونم. واتخذ هذا الامتداد شكل المحاور على طول الطرق المتفرعة من الناصرة إلى المدن والقرى المجـاورة، ولم يقتصر الأمر على عـدد البيوت، بل أصاب التطور نوعها وأسالب عـمارتها، فبدت الناصرة بيضاء ببيـوتها الفخمة التى تضم التجهيزات العصرية، وبشوارعها النظيفة وحدائقها الغناء.

ساهمت بلدية الناصرة فى تنظيم المدينة والإشراف على إدارتها وشؤونها منذ عام ١٨٧٥ عندمـا تأسس أول مجلس بلدى فى المدينة، فـفى عام ١٩٢٢ بلغ مجـموع واردات البلدية نحو ٤٣٠٨ جـنيهات، والنفـقات مثلهـا، وفى عام ١٩٤٤ كانت وارداتها نحو ١٨٠٠٠ جنيه ونفـقاتها نحو ١٧٠٠٠ جنيه، وقد أعطت البلدية عام ١٩٣٥ وحده نحو ١٥٠ رخصة بناء بقيمة ١٧٠٠٠ جنيه.

• تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلى •

ظلت بلدية الناصرة تدير شؤون المدينة بعد عام ١٩٤٨ رغم قسوة الاحتلال الإسرائيلى، فقد أقامت إسرائيل مدينة الناصرة العليا الصهيونية «نزاريت عليت» لتكون كماشـة من الأبنية الحديثة على الجبال والـهضاب المطلة على المدينة من

جهتى الشرق والشمال. وتسكن هذه المدينة مجموعات من المستوطنين الصهاينة خصصت لهم الأحياء الشرقية، أما المنطقة الشمالية فقد خصصت لإقامة عائلات الجنود الصهيونيين المتزوجين. وبلغ عدد سكان الناصرة العربية أواخر عام ١٩٧٨ قرابة ٤٥٠٠٠ نسمة، ومجموع سكان الناصرة العليا الصهيونية ١٦٠٠٠ نسمة.

وقد تعرض أهل الناصرة لأقسى القوانين والإجراءات المنتهكة لحرياتهم الشخصية وحقوقهم المدنية المقلصة لنشاطاتهم التجارية والصناعية والزراعية. وإمعانًا فى محاولة تهويد الناصرة أنشأوا الناصرة العليا، وقرروا إقامة بلدية إضافية تكون يهودية لتهتم بالتهويد، لكى تبقى الناصرة العربية مدينة ضعيفة. فعلى سبيل المثال، فإن موازنة بلدية الناصرة العليا التى يبلغ عدد سكانها ثلث عدد سكان الناصرة العربية تقريبًا وصلت إلى ما يقرب من ضعفى موازنة بلدية الناصرة العربية، بل إلى أكثر من ذلك إذا أضيف إليها الدعم المقنع الذى تقدمه الحكومة باسم صندوق مشاريع التطوير.

• الوظيفة الدينية •

للناصرة أهمية دينية خاصة كما لغيرها من مدن فلسطين المقدسة كالقدس وبيت لحم والخليل، ففيها ٢٤ كنيسة وديرًا، وعدد من المتاحف الدينية، وتضم كذلك بعض المساجد وأضرحة الشهداء والصالحين من المسلمين. وأبرز معالم المدينة التاريخية كنيسة البشارة التى تقوم على الموضع الذى بشرت فيه مريم بأنها ستلد المسيح، وتقع الكنيسة على مقربة من حافة الجبل المطل على مرج ابن عامر، وكان اليهود قد حاولوا أن يلقوا بالمسيح من فوقه إلى أسفل، وهناك كذلك كنيسة القديس يوسف التى أقيمت مكان بيت يوسف النجار وحانوته

وكنيسة البلاطة أو مائدة المسيح، وكنيسة سيدة الرحمة، وكنيسة المجمع، وعين العذراء. وقد جذبت أهمية الناصرة الدينيـة أنظار العالم المسيحى، فأخذ يؤمها آلاف الحجاج المسيحيين والسياح سنويًا لزيارة البـقاع المقدسة والتاريخية، الأمر الذى يبعث الحياة ويزيد الحركة والنشاط فيها.

• الوظيفة الزراعية •

أرض الناصرة فى المرج هى أخصب أجزائه، وتبلغ مساحة الأراضى التابعة للناصرة ١٠٢٢٦ دونمًا، ولـم يـكن الصهيـونيون يملكون من أراضيـها شيـئًا، ولكنهم وضعوا أيديهم بعـد الاحتلال على مساحة من الأرض الجبـلية المرتفعة فأقاموا عليـها مدينة صهيونيـة تمهيدًا لتهويد الناصرة. ويقـع كثير من الأراضى الزراعيـة المحيطة بالناصرة فـوق سطوح الجبال والهـضاب، وعلى سفوحـها ومنحدراتها، وفى بطون الأودية والسهول، وتسـتخدم الأراضى حول الناصرة فى زراعة الأشجـار المثمرة كالعنب والزيتون والتفـاح والمشمش والتين والرمان واللوز والكمثرى والسفـرجل والدراق والبرتقال وغيرها. وهناك مساحـة كبيرة فى السفـوح الجبليـة شديدة الانحـدار تكسوها الغابات الحـرجيـة، وقد زرع الصهيـونيون غابة بلفور جنوبى غـرب الناصرة تخليدًا لذكرى بـلفور صاحب الوعد المشؤوم، وتمتد الأشـجار الحرجية على جانبى طريق الـعفولة - الناصرة وتضفى على الطريق منظرًا بهيجًا.

وتزرع فى أراضى الناصرة المحاصيل الحقلية من قمح وشعير وعدس وفول وحمص وغيـرها، علاوة على الخضراوات عـلى اختلاف أنواعهـا المعروفة، وتعتمد الزراعة على مياه الأمطار والمياه الجوفية من الينابيع والآبار لرى مساحات من الأراضى المنبسطة والأخرى الواقعة فى بطون الأودية.

• الوظيفة التجارية •

كانت الناصرة منذ مطلع القرن مدينة زاهرة تعج بالحـركة التجارية، ويؤمها القرويون فيجـدون ما يطلبون، ولكن الوضع التجارى ركد بعـد الحرب العالمية الأولى مباشرة عندما حلت مـجموعة من المستعمرات الصـهيونية محل بعض القرى العربية التى كانت تتبع الناصرة فى سهل مرج ابن عامر؛ لأن أهالى تلك المستعـمرات لم يعودوا يعتمدون على النـاصرة فى تجارتهم. وبالرغم من ذلك فإن الناصرة ظلت سـوقًا لأهالى القرى العربية الباقـية يعرضون فيهـا منتجاتهم الزراعية والحـيوانية، ويشترون منهـا جميع لوازمهم وحاجـاتهم المنزلية. وتأتى السيـاحة على رأس العوامل التـى جعلت حركـة التجارة رائجـة فى الناصرة، فالمدينة مركز سياحى مرموق يستقـبل عددًا من السياح والحجاج المسيحيين كل عام، ويشتـرى هؤلاء أصنافًا متعـددة من الهدايا التذكارية، ويعـودون بها إلى بلادهم.

ويأتى الموقع الجـغرافى للناصـرة ووجود شـبكة كبـيرة من الطرق تربطـها بجهـات مختلفـة من فلسطين والأقطار العربية عـاملاً هامًا فى ترويج الحـركة التجارية، وتعد منطقة الناصرة ظهيرًا جغرافيًا غنيًا لميناء حيفا وعكا.

• الوظيفة الصناعية •

اشتهـرت الناصرة فى القديم بصناعة النسيج فـقد كانت فيها أنوال كـثيرة لحياكـة أنواع المفارش والجوارب، وتصنع فى المدينة المناجل والمحـاريث، وتعد التجارة والمصنوعات الخشبية أقدم ما عرفته الناصرة من الصناعات. ومن حرف التحف والتذكارات الدينية حرفـة الخشب، وهى تضم المسابح والصلبان وأغلفة

الكتب المقدسة وغيرها من التحف الخشبية المطعمة أحيانًا بالصدف والمزخرفة بالنقوش. ومن صناعات الناصرة كذلك دباغة الجلود وتفصيلها، وخياطة الفراء، وصناعة الفخار. واشتهرت نساء الناصرة بصنع المطرزات الحريرية. وفى الناصرة معاصر الزيتون والسمسم لاستخراج الزيت والسيرج والطحينة، وفيها أيضا مصانع للصابون.

• الناصرة فى عيون الكتاب والرحالة العرب •

جاء ذكر الناصرة فى المنابع الأدبية التاريخية والجغرافية منذ القرن الثالث للهجرة، التاسع للميلاد، فقد أورد المؤرخ اليعقوبى (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) «أن يحيى بن زكريا كان يعمد إلى المعمودية للتوبة وكان لباسه وبر الإبل وأن المسيح جاء من ناصرة الجليل يعمده فى الأردن. وعن المسعودى (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م) قيل: إن المسيح كان فى قرية يقال لها ناصرة من بلاد اللجون من أعمال الأردن، وبذلك سميت النصرانية، ورأيت فى هذه القرية كنيسة تعظمها النصارى، وفيها توابيت من حجارة فيها عظام يسيل منها زيت تتبرك به النصارى».

وأثبت الهروى (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) أن الناصرة مدينة فيها دار مريم ابنة عمران، وبها سميت النصارى، وجبل سعير قريب منها.

وفى معجم البلدان لياقوت الحموى (٦٢٣هـ/ ١٢٢٥م): إن الناصرة قرية بينها وبين طبرية ثلاثة أميال، فيها كان مولد المسيح عيسى بن مريم، ومنها اشتق اسم النصارى وكان أهلها عيّروا مريم، فيزعمون أنه لاتولد بها بكر لهذه الغاية، وأهل القدس يأبون ذلك، ويزعمون أن المسيح إنما ولد فى بيت لحم، وأن آثار ذلك عندهم ظاهرة، وإنما انتقلت به أمه إلى هذه القرية.

ويقول الدمشقي (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م): من أعمال صفد أيضًا الناصرة منها ظهر المسيح، وموضع البشارة به من الملائكة لأمه مريم معروف يزوره النصارى وغيرهم، وأهل الناصرة كانوا مفتاح دين النصرانية ومنشأه وأساسه.

وذكر القلقشندى (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) أن الناصرة بلدة صغيرة، قال في الروض المعطار: على ثلاثة عشر ميلاً من طبرية، ويقال: إن المسيح ولد فيها، وأهل القدس ينكرون ذلك، ويذكرون أنها ولدته في القدس، والمعروف أن أمه حين عادت من مصر إلى الشام وعمره اثنتا عشرة سنة نزلت به القرية المذكورة، وهي اليوم منبع الطائفة النصرانية.

• المراجع •

١ - الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، بيروت ١٩٨٤.

٢ - حسين عمر حمادة، تاريخ الناصرة وقضاها، دار منارات للنشر، عمان، ١٩٨٢.

٣ - لى سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمايرى، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ١٩٧٠.

٤ - قسطنطين خمار، جغرافية فلسطين المصورة، المكتب التجارى للطباعة، بيروت ١٩٦٧.

٥ - الموسوعة الفلسطينية، القسم الثانى، الدراسات الخاصة، المجلد الأول والثانى، بيروت ١٩٩٠.

* * *

قيسارية..
عاصمة فلسطين وموطن العلماء

قيسارية، مدينة التاريخ، وخميلة العلماء والحكماء، قطعت أبعادًا في عصور الزمن، على قصرها، تبوأت فيها مكان الصدارة، وكانت أكاديمياتها للحقوق واللاهوت عنوان شهرتها، وفعل الشيء نفسه أعلامها في انتشار شهرتهم وذيوع صيتهم في شتى أنحاء المعمورة، وعلى مر العصور والأجيال.

• نشأتها الأولى •

قيسارية من مدن السهل الساحلي الفلسطيني، وتقع على بعد (٤٢كم) إلى الجنوب الغربي من حيفا، وقد تعددت الآراء وتضاربت الأقوال حول نشأتها الأولى، ومرد ذلك إلى غرق المدينة القديمة في البحر، مما نتج عنه صعوبة عمليات التنقيب فيها، إلى جانب أن بعثات الآثار التي نقبت في فلسطين، ودائرة الآثار الإسرائيلية لم يولوا جميعًا المدينة حقها من العناية، لكونها لم تندرج ضمن المدن التي ورد ذكرها في التوراة كمدن إسرائيلية.

وعلى أية حال، فهناك من الباحثين من يرى أنها من أقدم المناطق التي سكنها البشر، وأن الكنعانيين قد أنشأوا في موقعها مدينة لهم، وأطلقوا عليها اسم «برج ستراتون» وستراتون تحريف للاسم الكنعاني (الفينيقي) عبد عشتروت.

وحسب رأي البعض الآخر أنه يمكن الاستدلال على أنها كانت موجودة في الفترة الفارسية، وأنشئت على أيدي الصيداويين في القرن الرابع ق.م، إذ يتضمن الاسم أن مؤسس المدينة واحد من رهط سمي كلٌ منهم «ستراتون»،

وكانوا ملوكًا في صيدا في القرن الرابع ق.م، وكان سهل سارون (سهل يافا) تابعًا يومئذ لصيدا، وقد يكون الاسم تحويرًا يونانيًا لاسم «برج - عشتروت» الفينيقي، ويدعمون رأيهم هذا ببعض الشذرات الواردة في المصادر التاريخية، والتي تفيد بأن الفرس قد اتخذوا من قيسارية مركزًا ثانيًا للدفاع عن الساحل.

ومن الباحثين من يرى بأن أحد قادة الملوك البطالمة هو الذي أسسها إبان القرن الثالث ق.م، إلا أن الرأي الأكثر رجحانًا هو القائل بأن هذه المدينة قد أسسها ملكان من صيدا، أحدهما عاش في القرن الرابع ق.م، والثاني كان معاصرًا للإسكندر الأكبر، وقد عرف هذين الملكين باسم واحد وهو (عبد - عشتروت) والذي تحول إلى اليونانية إلى ستراتون، وقد عرفت تلك المدينة بهذا الاسم في وثائق «زينون»، كما وجدنا إشارة إليها في أعمال أحد الكتاب الإغريق «أرتيمودوروس».

• قيسارية في العهد اليوناني •

ذكرت قيسارية - كما أسلفنا - في أرشيف «زينون»، وهو من المصادر الرئيسة لدراسة الحياة الاقتصادية في فلسطين في أواسط القرن الثالث ق.م، وكان «زينون» وكيلاً لوزير المالية في أيام ملك مصر «بطليموس الثاني» ٢٨٢ - ٢٤٦ ق.م، وكان أن ولاه «أبولونيوس» - وزير المالية - عملاً يتعلق بإقطاعاته الكثيرة ومتاجره الواسعة، ولأجل ذلك غادر مصر في عام ٢٦٠ ق.م، إلى فلسطين، ونزل «برج ستراتون» لمدة قصيرة، ومنها ساح في أرجاء فلسطين لمزاولة أعماله الموكلة إليه، ويستفاد من أوراق البردي المكتشفة والخاصة بهذا الشخص، ومن مصادر تاريخية خاصة بالعهد اليوناني أن برج ستراتون قد

اتخذ منها اليونانيون شأن الفرس مركزًا ثانيًا للدفاع عن الساحل، كما كانت مركزًا لتبادل المتاجر البحرية - البحرية في البحر المتوسط، والبحرية - البرية في الشرق، هذا هو الدور التجارى المزدوج الذى كانت «برج ستراتون» تلعبه في العصر اليونانى، واشتهرت في هذا العهد بخمرها الذى كان مطمح الشاربين، وقمعها الجيد الذى كانت تصدره للخارج، كما كان يزرع في جهاتها الأترج، واشتهرت بصباغة الأرجوان وصناعة النجارة والأثاث، وكانت تستورد الأسماك من مصر وحتى من أسبانيا.

وتذكر المصادر التاريخية أن مدينة «برج ستراتون» ومدينة «دورا» قد تولى أمرهما في هذا العهد طاغية، بالمعنى اليونانى للطغيان، فاستقل بأمرهما قسراً واستبدادًا، فلما انتهى أمره ظل لهما استقلال أبعد مدى حتى من عسقلان.

• عصر قيسارية الذهبى •

في أواخر العهد اليونانى كان قد أصاب مدينة «برج ستراتون» ما أصاب المدن الفلسطينية التى اغتصبها «المكابيون» من دمار، ونالها في بداية العهد الرومانى من التحرير والإعمار على أيدى القائد الرومانى «بومبى» ونائبه في بلاد الشام «غابينوس» مما نال غيرها من مدن فلسطين، ويقال: إن «غابينوس» قد أعاد تأسيس «برج ستراتون» أو أعاد ترميمها، بعد أن أدركها البلى على يد المكابيين، ولكن مجدها قد تم فيما بعد على أيدى الرومان، لما اختارها «هيرودوس الكبير» ٣٧ - ٤ ق.م، مكانًا لبناء قيسارية، فمن هو صاحب هذا المجد؟.

فى العصر الرومانى شاءت الأقـدار لأحد أبناء فلسطين «هيرودوس الكبير» من أهل عسقلان، وسليل أسرة كان منهـا سدنة هيكل «أبوللو» فيها أن يصبح ملكًا على فلسطين بأجـمعها، فـضلاً عن منطقة عـبر نهر الأردن، ومؤسـسًا لدولة الهرادسـة، التى حكمت فلسطين من عام ٣٧ ق.م إلى عـام ١٠٠ بعد الميلاد، ولقد كان ملكًا عظيمًا، فلا غرابة أن يكون قيصر قد امتدحه، وأصاب الإمبراطور الرومانى «أوغسطس» عندمـا قال: إن هيرودوس كان من العظمة، بحيث فى وسـعه أن يحكم مصر والشـام معًا، لقد كان أحكم رجـل اختارته روما لحكم البلاد.

ويذكره صاحب كتـاب «قصة الحضارة» بقوله: لقـد كان هيرودوس صورة مصغـرة من أوغسطس فى بلاد فلسطين، فعل ما فـعله أوغسطس فى روما، فاستـبدل بفوضى الحـرية نظامًا ديكتاتوريًا، ووسع رقعـة مملكته، ونشر فـيها الرخاء، وكسب بالمكر والسيـاسة أكثر مما كسبه بقوة السـلاح، وقد كان بوسعه على الدوام أن يتغلـب بقوة الحجـة على أعدائه، وقد خـرج من كل الأزمات التى حدثت بينه وبين الحكـومة الثلاثية فى رومـا، وهو أقوى سلطانًا، وأوسع ملكًا مما كان، وسـرعان ما اقتنع أوغـسطس بأن له روحًا أعظم من أن تسعـها أملاكه الصغيرة، فأعاد إلى مملكته مدائن فلسطين، وقد كان رجلاً كريمًا، أفاء على رعاياه من النعم، وألغى المتـأخر من الضرائب عن السنين الماضـية، وأقنع روما بأن تخفف مقدار الجزية المفـروضة على بلاده، وحصل لرعاياه على مزايا فى البلاد الأجنبية، وأنقذ البلاد إنقـاذًا عاجلاً من القحط وغيره من الكوارث، وحـافظ على الأمن والنـظام فى الداخل، وسـلامـة البـلاد من الأعـداء فى

الخارج، ونمى موارد البـلاد الطبيعية، وفى عهـده قضى على اللصوص وقطاع الطرق - من اليهود - ونشطت التجارة، ودبت الحياة فى الأسواق والثغور.

ومما يدل على روعـة هذا الرجل أنه أحاط نفسه بطائفـة من خيرة عـلماء عصره، وعهد إليهم الإشـراف على الشؤون العليا فى الدولة، وبأمثالهم أسس مجلسًا تشريعيًا، يدعوه للتشاور عندما تدعو الحاجة إليه، وقد أدى هذا المجلس دوره على أحسن وجـه وأكمله، فكان مفخـرة لأمثاله فى أنحاء الإمـبراطورية الرومـانية، وكـان من أبرز أعضـاء حكومة هيـرودوس مسـتشـاره ومؤرخـه «نيقولاس الدمشقى»، والعلامة «بطليموس» الذى كان بمثابة رئيس للوزارة له، ومنهم «كومبـوزيوس، وفيليب ابن ياسيموس، وكوسـتبار الآدومى، ولما كان المجال لا يسـمح بالحديث عنهم جـميعًـا، فحسـبنا الحديث عن أشـهرهم، وألصقهم بملك فلسطين، وهو «نيقولاوس الدمشقى» الذى ولد فى دمشق عام ٦٤ ق.م، وكان أبوه «أنتـيـاتروس» من أغنياء قـومه، يقدر العلم ويـبجله، فحـرص على أن ينال ابنه منه أوفر نصـيب، وأكبر الظن أنه أخـذ العلم على أيدى معلمين يونانيين إلى أن تفوق، وسمع الملك عن امتيازه، وكان هيرودوس منذ أن توج ملكًا عام ٣٧ ق.م، أخذ يعمل بجد على نشـر الثقافة الهلينية فى فلسطين، وأصبح بحاجة إلى معاونين من اليونانيين، فكان نيقولاوس أبرزهم، أمضى حياته فى خدمة مليكه، وصحـبه مرتين إلى روما خلال السنوات العشر الأخيرة من حكمه.

كان نيقولاوس أمـين سر الملك، اختص بالأمور السياسيـة والدبلوماسية، فكان بمثابة وزير للخارجية، بل اختص أيضًـا بالفلسفة والتاريخ والتعليم العام،

وقد أنيط به شرح سياسة مليكه المناهضة لمنافسيه في مجلس الشيوخ في روما، أما عن مجهوداته العلمية فقد وضع كتابًا تاريخيًا يشبه تاريخ «ديودور الصقلي» ولكنه على نطاق واسع، وكان يبغي من كتابه تسجيل تاريخ البشرية منذ بدايتها حتى موت هيرودوس، ويقع في (١٤٤ جزءًا) وقد ظفرت سيرة هيرودوس بنصيب وافر، واعتمد عليه مصدرًا أساسيًا المؤرخ اليهودي «سوسيفوس» وكتب كذلك نيقولاوس سيرة القيصر «أوغسطس» الذي كان يعرفه شخصيًا، وسيرة ذاتية لحياة نيقولاوس نفسه، روى فيها نشأته وتعليمه، ووضع تصنيفًا عجيبًا، جمع فيه عادات وتقاليد بضع وخمسين أمة، وربما كان تصنيفه الأثنوجرافي غاية في الفائدة، وأهدى لمليكه مجموعته الأثنوجرافية، وكان نيقولاوس من أعظم فلاسفة عصره، وكتب شروحًا على أرسطو، ويذكر عنه أيضًا أنه كان من علماء النبات، وله في ذلك رسالة قيمة.

والمهم في الأمر - كما سنرى لاحقًا - أن الحركة العلمية التي وضع أسسها «نيقولاوس» وصحبه ممن هم على شاكلته من العلماء الذين ضمهم بلاط هيرودوس استمرت مسيرتها لعدة قرون في قيسارية عاصمة مملكة هيرودوس التي أنجبت للعالم عددًا من أساطين العلم والأدب، طارت شهرتهم وذاع صيتهم إلى أنحاء الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية.

• مدينة عظيمة تشهد بجبروت هيرودوس وعظمته •

يجب أن نفترض أن مدينة «برج ستراتون» كانت ذات أهمية تجارية، الأمر الذي دفع هيرودوس إلى اختيار هذا المكان بالذات لإقامة مدينته وعاصمته المسماة «قيسارية».

لقد صار لهيرودوس صيت بأنه كان بنَّاءً من الدرجة الأولى، وهذا هو بالتأكيد الانطباع الذى كان يرغب فى أن يحدثه على مستوى الرأى العام العالمى، ولحسن حظ فلسطين توافر عند هيرودوس مستشارون مستنيرون كانوا عونًا له فى تنفيذ أعماله العمرانية الرائعة، بحيث كان عصره أزهى فترات التمدن والعمران فى تاريخ فلسطين.

لم يقتصر هيرودوس فى مشاريعه العمرانية على إقامة القصور والملاهى له ولحاشيته، بحيث إن تاريخ فلسطين القديم لم يعرف له مثيلاً قط من حيث إقامة المدن أو ترميمها وإنشاء المرافق العامة، ويأتى فى مقدمة مشاريعه العمرانية شروعه فى تأسيس أول ميناء بحرى كبير فى فلسطين مكان «برج ستراتون» وأحاط الميناء بمدينة لا تليق إلا بمكانة هيرودوس وعظمته، وجعل منها عاصمة لملكته.

لقد أقام هيرودوس ميناءً رئيسًا فى مكان ليس فيه حتى أقل ما يمكن من الميناء الطبيعى، لذلك جند أمواله وجهوده ووقته لجلب الأحجار الجبارة من المحاجر والجبال وإرسائها فى قاع البحر ليكون بناء نصف دائرى يصد التيارات واللجج عن غرب الميناء وجنوبه، ويفتح الطريق للسفن من الشمال فقط حتى ترسو فى أمان، وبالقرب من الشاطئ أقام هيرودوس معبدًا من الرخام يعلوه تمثالا روما وأوغسطس قيصر، وقد بلغ من الضخامة قدرًا، حتى إن السفن كانت تلمحه وهى قادمة من بعيد، وكان اتساع ذلك الحوض أو السد مئتى قدم، وعمقه فى بعض الأماكن مئة وعشرين قدمًا.

وبعد أن أتم هيرودوس بناء المرفأ على أحسن وجه وأكمله، شرع بإحاطته

بمدينة كبيرة على النمط الهلينستى، وأسماها قيسارية أو قيصرية، نسبة إلى أوغسطس قيصر، وهى قيسارية الحالية، وكان هيرودوس قد وضع أساسات قيسارية بنفسه عام ٢٢ ق.م، وقد استمر بناء المدينة عشر سنوات، وافتتحه سنة ٩ ق.م.

والتخطيط الذى اتبعه هيرودوس هو الشارع المعمد، وهو الرئيس الذى يخترق المدينة طولاً، ولكنه لم يخطط بحيث يأتى مستقيمًا، بل يتكون من عدد من الأجزاء يختلف اتجاه الواحد منها عن الآخر فى زاوية قدرها بضع درجات، بحيث تراعى طوبوغرافية المدينة وإمكانات إقامة الأبنية الكبرى فى أماكن مناسبة، وكانت تقوم عند التقاء قسمين من الشارع مستديرة تحيط بها أعمدة، وقد يقام فيها ما يشغل الناظر فلا يتنبه إلى الانحناء فى سير الشارع، وكان لهذا الشارع المعمد قوس نصر فى أوله، وقد تقام أقواس نصر فى أجزاء منه، وقد يكون هناك شارع ثانوى موازٍ للشارع المعمد، وللمدينة أن تبنى شوارع معمدة تتفرع من الشارع الأصلى تؤدى فى الغالب إلى رسم مهم من رسوم المدينة، وميزة هذا التنظيم هو أن يعطى المهندس والبناء ومجلس المدينة حرية فى التصرف، بسبب ما تتمتع به من مرونة، وواجهتا الشارع المعمد كانتا توفران للباعة حوانيت للبيع، وتجمعت فيها فئات كبيرة متنوعة من أصحاب الأعمال ومن العمال، فعمال النسيج والغزل والحياكة والنحاس والأحذية والصناعات الجلدية الأخرى، كانوا يشغلون حيزًا كبيرًا فى حياة المدينة الاقتصادية، وكذلك كان شأن الجبانين والخبازين، وغير هؤلاء ممن يهيئون المواد الغذائية للبيع، خضارًا كانت أم فواكه، والمدينة كانت مسكنًا لعدد من الأغنياء

والزعماء والوجهاء.

وقد قيل في وصف قيسارية: إنها كانت ميناءً ملكيًا أكبر من ميناء أثينا، وأضحت ميناء فلسطين عامة وميناء «سبسطية (نابلس) الواقعة على بعد نحو أربعين كيلو مترًا للجنوب الشرقي من قيسارية، مما كان له التأثير السيء على يافا والقدس، كما أضحت - فيما بعد - من أهم مراكز الأسطول الحربي الروماني في سوريا، فاتسعت وأمست من أعظم مدن فلسطين، وقاعدة الرومانيين فيها، وقد بلغت مساحتها نحو (٣٧٠) هكتارًا، وبعد موت هيرودوس ظلت قيسارية مقرًا للحكام الرومان، ما كانوا يغادرونه إلا لأورشليم في أيام الأعياد خوفًا من وقوع الاضطرابات.

لقد بذل هيرودوس جهده وماله من أجل تزيين عاصمته بالقصور والمسارح والهياكل والملاعب والتماثيل، وقد اشتهر في قيسارية مسرحها العظيم، وكانت فيه رقعة مرتفعة للأوركسترا، وقاعة للتمثيل، ومقاعد مصففة لجلوس المتفرجين، بلغ تعدادها نحو عشرين ألف مقعد، وكان مسرح قيسارية دائم الاستعمال، وقد أصلح مرتين على الأقل، وكانت تمثل فيه إلى جانب المسرحيات الكلاسيكية والتمثيليات الهزلية، المشاهد المتعلقة بالألعاب المائية، كما كان يستخدم من قبل فرق البالية، وفي قيسارية عثر على تمثال الراقص الشهير، وكان للميناء برجان يحرسان المدخل، وقد زود هيرودوس عاصمته بالمياه من منحدر جبل الكرمل الجنوبي على مسافة عشرة كيلو مترات في قنوات مائية منحوتة في الصخر، وكل هذا مثل بقية ما أقام هيرودوس ما كان ليتم لولا التكنولوجيا الرومانية.

لا شك أن السبب الرئيس الذى من أجله اختار هيرودوس موقع «برج ستراتون» ليقيم عليه عاصمته هو تفوقها التجارى، وقد ظل هذا التفوق يلازم المدينة طوال عهدها الرومانى، فبالإضافة إلى عناصر التفوق التجارى الذى لاحظناه فى العهد السابق، أصبح لها فى العهد الرومانى أراض اقتطعت داخل الولاية، بل داخل الأقضية بالذات، وكان لهـا ريف تابع للمدينة، لا اقتصاديًا فحسب، ولكن إداريًا أيضًا، وكان لها إدارة ذاتية حرة، وأهم امتيازاتها سك النقود، وليس أدل على ازدهار قيسارية اقتصاديًا فى هذا العهد من كمية النقود التى ضربت فى دور سكها، وهى كمية يندر أن تتوافر فى أى من مدن الإمبراطورية.

وفى هذا العهد غرس الإمبراطور الرومانى «فسبسيان ٦٩ - ٧٩م مستعمرة رومانية فى قيسارية، وسرعان ما حصلت على حق الإعفاء من الضرائب، فقد ألغى فسبسيان ضريبة الرؤوس عنها، كما أعفاها ابنه وخليفته الإمبراطور «تيطس» ٧٩ - ٨١م، من ضريبة الأرض أيضًا، ولم يكتف فسبسيان برفع منزلة المدينة، فقد أضاف إلى مقاطعتها جزءًا من السامرة، لكى يوفر أراضٍ لأهلها، وكانت قيسارية فى عهد سلفه الإمبراطور الرومانى «كلوديوس» عام ٦٨م قد حدثت فيها مذبحة هائلة، ذبح فيها أهلها عشرين ألفًا من اليهود، وبيع آلاف غيرهم بيع الرقيق، فطهروا المدينة وما حولها من دنسهم.

وقد وصل إلينا وصف لقيسارية، وضحه أحد الذين رأوا قيسارية منذ حوالى ألف وتسعمائة عام مضت، وهو المؤرخ اليهودى «يوسيفوس» كتب يقول: أقام فيها هيرودوس - طولاً وعرضًا - مبان ضخمة ذات أناقة عظيمة

من الحجر الأبيض، كما زينها بأعظم القصور فخامة، وأقام فيها مبان كبيرة لإسكان الشعوب، وكانت المدينة ذات تكوين جميل، وعلى عكس المعتاد فالأقبية والمخازن تحت الأرضية، لم تكن أقل فخامة من الإنشاءات التى فوق الأرض.

وفى بعض المصادر أن قيسارية وهى فى قمة مجدها، مدينة عدد سكانها مائة ألف نسمة، وكانت ميناءً رئيسًا فى البحر الأبيض المتوسط، يزخر بالحياة ويزدحم بالتجار من اثنتى عشرة دولة، وحكم الرومان هناك لمدة ستة قرون.

• أكاديمية قيسارية •

رغم تعدد وعظمة مآثر قيسارية، إلا أن أعظمها على الإطلاق أكاديميتها أو مدرستها التى تعتبر من أقدم وأهم المدارس المسيحية فى تلك الآونة، ومؤسسها هو العلامة المصرى «أوريجانوس السكندرى» الذى ولد فى الإسكندرية فى عام ١٨٥م من أبوين مسيحيين، تعلم على أبيه، ثم تعلم مبادئ الفلسفة ونبغ فيها على الفيلسوفين الشهيرين «أكليمنفس وأمونيوس»، قتل أبوه فى اضطهادات الإمبراطور «سبتيموس سفيريوس»، فتولى أوريجانوس العناية بأسرته فباشر التعليم، فلما اشتهر علمه وعرف فضله سلمه أسقف الإسكندرية «ديمتريوس» مقاليد المدرسة اللاهوتية، فأعلى شأنها وأدخل لها «كاراكلا» اضطهادًا بسبب أوريجانوس، فاضطر إلى هجر بلاده قاصدًا قيسارية فلسطين، حيث احتفل به المسيحيون هناك، ودعوه للوعظ والإرشاد.

وبعد سنتين استرجعه ديمتريوس إلى الإسكندرية لاستعادة مركزه فى المدرسة اللاهوتية، وسافر أوريجانوس ثلاث مرات، أول مرة استدعاه حاكم

بلاد العرب طلبًا لعلمه، والثانية لحضور مجمع العقد بسبب سقوط «بيرلس» أسقف بصرى فى الهرطقة، واستدعته «ماميا» أم الأمبراطور إسكندر إلى أنطاكية لتسمع وعظه، وفى عام ٢٢٨م دعى إلى «إخائية» فى بلاد اليونان ليقاوم الهراطقة هناك، وعند رجوعه مر بفلسطين، حيث سيم كاهنًا على يد «تيوكتستوس» أسقف قيصرية و«إسكندر» أسقف القدس، اللذين استصوبا ألا يظل أستاذ الأساقفة مجردًا من الدرجة الكهنوتية، فاغتاظ أسقف الإسكندرية حسدًا منه لأوريجانوس.

وحصل نزاع، فجمع أسقف الإسكندرية لأجل ذلك مجمعين، فى الأول حكم على أوريجانوس بالنفى من الإسكندرية، وبالثانى بقطعه من وظيفته الكهنوتية، فالتجأ إلى قيسارية فلسطين، وترك أرض مصر نهائيًا، وودعها وداعًا لا لقاء بعده، ولم يعبأ أسقف قيسارية بقرارات الإسكندرية، وطلب إلى ضيفه الكبير أن يتابع أعماله، فأنشأ أوريجانوس مدرسة جديدة فى قيسارية، وأشرف عليها عشرين عامًا، ونظمها على غرار مدرسته فى الإسكندرية، فقد جاء فى خطاب الوداع الذى ألقاه تلميذه «غريغوريوس العجائبى»: إن اتساق الدروس فى مدرسة قيسارية، ابتدأ بالفلسفة وانتقل إلى المنطق والهندسة والفلك، ثم انتهى بالفلسفة الأدبية واللاهوت. . . ويقول «الأب سويريوس توما» عن مدرسة قيسارية بفلسطين: إنها فاقت مدرسة الإسكندرية فى العلوم، تأسست عام ٢٣٢م بمعية العلامة أوريجانوس، الذى كان يدرس بها بالإضافة إلى اللاهوت والفلسفة، علوم الطبيعة والمنطق والهندسة والرياضة والفلك والموسيقى.

وحفظًا لتسلسل الإرث الفكرى، لابد لنا أن نشير إلى أن «أكليمنفس» - أستاذ أوريجانوس - كان أثينيا، تعلم فى بلاده، وبرع فى الآداب والفلسفة اليونانية، وفى سن الثلاثين رحل إلى الإسكندرية، ورأس مدرستها المسيحية عام ١٩٠م، وقد اضطر بسبب اضطهادات «سبتيموس» عام ١٩٣م إلى ترك الإسكندرية مارًا بفلسطين، حيث عمل بعض الوقت فى قيسارية، وبذلك يكون قد مهد الطريق لتلميذه فى قيسارية.

لقد أنجز أوريجانوس فى قيسارية وليس فى الإسكندرية ذلك التراث الرائع، فأخرج «الهيكسايلا» وهذا أعظم عمل قام به فى النقد، بدأه عام ٢٣١م وأتمه عام ٢٤٣م، ومن أروع ما دبج يراعه فى قيسارية أيضًا عظاته وإرشاداته، فإنها تلقى ضوءًا على حالة الكنيسة فى النصف الأول من القرن الثالث الميلادى، وباشر أوريجانوس التعليم فى مدرسة قيسارية، فكان يشرح الكتاب المقدس أولاً مرتين فى الأسبوع الأربعاء والجمعة، وبعد قليل كان يقوم بهذا العمل يوميًا، وأحيانًا أكثر من مرة فى اليوم الواحد.

ويعود الفضل لأوريجانوس فى تأسيس مكتبة مدرسة قيسارية، التى كانت فى عهد خلفه «بامفيلوس القيسارى» الأولى من نوعها فى الحقل الكنسى، فقد ضمنها أوريجانوس مؤلفاته والكتب التى جلبها معه من الإسكندرية، وروى أنه عندما كان بالإسكندرية، تبرع أحد أثريائها المسيحيين «امبروزيوس» بالإنفاق على مؤلفات أوريجانوس ونسخها، وحشد لذلك جماعة من الناسخين المهرة، وقيل: إن صديقه هذا لحق به هو وعائلته وناسخيه إلى قيسارية، وكان «بامفيلوس» خليفة أوريجانوس فى مدرسته قد ضم إلى هذه المكتبة أكبر

مجموعة من الكتب المسيحية عرفت فى ذلك الوقت، وذكر «القديس جيروم» فى إحدى رسائله بأن ملفات البردى فى مكتبة قيسارية أيام بامفيلوس استبدل بها تدريجًا الأسفار المصنوعة من الرق.

ومنذ اللحظة الأولى التى تأسست فيها مدرسة قيسارية، اشتهرت بأساتذتها وطلبتها، الذين كانوا يؤمونها من شتى أنحاء الإمبراطورية الرومانية، ومنهم من أصبح من أساطين آباء الكنيسة.

ولما استقر «بامفيلوس» خليفة أوريجانوس فى قيسارية، سامه أسقفها «أغابيوس» كاهنًا، وواصل عمل سلفه، وتطورت المدرسة على يديه، كما تطورت مكتبتها التى خدمت الفكر المسيحى أجيالاً متواصلة، وكان يأمر باستنساخ الكتب التى لا يمكن شراؤها، وينقلها بخطة فى بعض الأحيان، قبض عليه عام ٣٠٧م، واستشهد عام ٣٠٩م.

وقد خلفه على مدرسة قيسارية «أوسابيوس القيسارى» أبو التاريخ الكنسى، وأول سياسى كنسى فى تاريخ المسيحية، العلامة الموسوعى صاحب التآليف النادرة، وأسقف أساقفة فلسطين، وصديق الإمبراطور قسطنطين.

أما خليفة أوسابيوس فكان «أكاكيوس القيسارى» وكان موهوبًا فى الفكر والقول يتعاطى الشؤون السياسية فضلاً عن أمور أسقفيته ومدرسته التى عمل على إغنائها وتوفى عام ٣٦٦م.

ومن أساتذة المدرسة فى القرن الرابع الميلادى اثنان هما: يوزيوس وجلاسيوس، أما الأول فقد عده «جيروم» من كبار الكتاب المسيحيين، وذكر

له إحياء مكتبة أوريجانوس، أما الثانى فقد اعتبره «جيروم» أحد رجال البلاغة فى ذلك العصر.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مدرسة قيسارية تأثرت منذ نشأتها بمدرسة الإسكندرية وتبادلتا المعلمين والطلبة... وبالجملة فقد كانت هذه المدرسة من أعظم مدارس الفكر المسيحى فى العالم، وأمها الطلاب والباحثون من كافة أرجاء الإمبراطورية، جذبتهم إليها شهرتها وذيوع صيت مدرسيها، ومن طلبتها نذكر منهم: غريغوريوس العجائبى وأخيه أثينودوروس، وفرميليانوس، وسوريانوس أسقف جبلة وغيرهم كثيرون... وممن علم فى مدرسة قيسارية «أوريون» وهو مصرى من مواليد «طيبه» بالصعيد، وقد علم فى الإسكندرية أولاً، ثم فى أنطاكية، وأخيراً حط رحاله فى قيسارية.

ويبدو أن مدرسة قيسارية، ذلك الصرح التربوى العظيم ظل وفيًا لرسالته التى أنشئ من أجلها حتى الفتح العربى الإسلامى لقيسارية، حيث يستفاد من كتاب – فتوح البلدان – للبلاذرى أن الخليفة «عمر بن الخطاب» لما فتحت قيسارية أمر بتقسيم يتامى الأنصار على أسرى قيسارية ليعلموهم القراءة والكتابة، وجعل بعضهم فى الكتاب والأعمال للمسلمين، وقد كان عدد الأسرى أربعة آلاف أسير، فإن دل هذا على شىء إنما يدل على المستوى الفكرى الرفيع الذى كان يتمتع به أولئك الأسرى.

• أوسابيوس القيسارى •

إن أسس الحركة العلمية التى وضع لبناتها الأولى العلامة «نيقولاوس الدمشقى» فى قيسارية، قد استمرت – كما أسلفنا – لعدة قرون خَرَّجت فيهم

للعالم طائفة من أهم أساطين العلم، ولما كـان المجال لا يسمح بالحديث عنهم جميعًا، فحسبنا الحديث عن أشهرهم وهو ابن قيسارية البار «أوسابيوس».

ولد أبو التاريخ الكنـسى، وأول سياسى كنسى فى التـاريخ عام ٢٦٣م فى مدينة قـيسارية الفلسطينيـة ذات التاريخ العريـق، من أسرة مسيـحية مـتوسطة الحال، متأثرة بالحضارة الهلينستية، وفيها نشأ على حب المسيحية، وتتلمذ على «بامفيلوس القيسارى» أشهر علمـاء قيسارية آنذاك، وخليفة «أوريجانوس» على مدرستها، وحدث فى تلك الآونة أن تحمس «بامفيلوس» لإصدار نص معتمد من الكتاب المقدس، على أساس نص أوريجـانوس، ولإتمام هذه المهمة احتاج إلى معـاونين، فتـقدم أوسـابيوس ليكون عـضواً عامـلاً فى هذه المجمـوعة الدراسية، وبدأ يساعد «بامفيلوس» الذى شجعـه وعلمه كيف يعتمد على نفسه وذهنه، ودربه على قـراءة النصـوص وترجـمتـها، وزوده بـنصائحـه، ودان أوسابيوس لمعلمه بعظيم العرفان، وتعبيراً عن اعترافه بالجميل، قرن اسمه باسم معلمه، فدعى نفـسه «أوسابيوس بامفيلوس» وظل التلميذ مـلازمًا لمعلمه حتى فى المعتقل الذى جـمعهما سـويًا، وبعد استشهـاد المعلم عام ٣١٠م، ضاقت الدنيا فى عـينى التلميذ، وفر إلى مـدينة «صور» ومنها إلى مصـر واختفى فى صعـيدها، لكن السلطات تمكنت مـن القبض عليه، فـاحتمـل شتى صنوف العذاب فى السجون، ثم قـفل راجعًا من مصر إلى قيسـارية، بعد صدور أمر «غالاريس» عام ٣١١م، ويبـدو أن العام الذى رجع فيه إلى قـيسارية هو نفس عام ترسيـمه كاهنًا فيها، ثم أسـقفًا لها عام ٣١٣م، فرئيس أسـاقفة فلسطين، وبدأت شهرته كعالم تطغى على شـهرة معلمه منذ ذلك التاريخ، وتطغى على

جميع معاصريه من آباء الكنيسة، وقد كان لأوسابيوس كأسقف دوره الكبير فى الجدال الآريوسى، وقد مثل فيه الحزب المعتدل، كما كان له دوره المهم فى غالبية المجامع المسكونية التى تم انعقادها فى عصره.

• أوسابيوس مؤلفًا •

فيما عدا العلامة «أوريجانوس» فاق العبقرى الفلسطينى أوسابيوس كل علماء الكنيسة - على مدى العصور - فى مواهبه العلمية النادرة المثال، والتى أسهمت فى إثراء التراث الإنسانى وازدهاره، ولا تزال هذه الآثار مثار إعجاب العالم وتقديره... فقد كان بحق عالمًا موسوعيًا، لم يترك علمًا إلا وكتب فيه، إلا أن أكثر مؤلفاته شهرة هى الأعمال التاريخية، لاسيما تاريخه الكنسى، وهو العمل الذى أعطى لابن فلسطين شهرته الخالدة، ورفعه إلى مصاف أعظم علماء البشرية، وبه استحق لقب «شيخ مؤرخى الكنيسة» ولقب «أبو التاريخ الكنسى».

• صداقته لقسطنطين •

أما عن العلاقة الوطيدة التى ربطت ما بين أوسابيوس الأسقف وقسطنطين الإمبراطور، فقد كثر حولها الجدال وتشعب: لغيرة معاصريه من مكانته لدى الإمبراطور، ونظرًا لآراء أوسابيوس التى لم تتفق مع آرائهم، حتى أطلقوا عليه مداح الإمبراطور.

فقد شهد ابن فلسطين الأسقف بعينى رأسه الفترة السابقة لتنصر الإمبراطورية باضطهاداتها ومآسيها ضد المسيحية، التى كانت أمر وأعنف

اضطهادات شـهدتها الكنيسـة فى تاريخها، ولم يسلم هو نفسه منها، وفيها استشهد معلمه وصديقه «بامفيلوس» فى قيسارية التى عانت أكثر من غيرها حتى سميت عاصمة الشهداء، ويتولى قسطنطين الحكم تنقشع الغمة فنراه يوقف الاضطهادات، ويؤمن بأن المسيحية يجب أن تصبح الديانة الرسمية للإمبراطورية، بل فى الحقيقة ديانة العالم كله آنذاك، فكان أول إمبراطور مسيحى، وأول مدافع عن الإيمان، وأول نصير للكرسى البابوى، أفليس جديراً بهذا الإمبراطور أن يكون مثار إعجاب أوسابيوس ودعمه ومديحه؟ وقد أعلنته الكنيسة المسيحية اليونانية فيما بعد من القديسين.

• دوره فى إرساء القاعدة النظرية للدولة الجديدة •

وتمتع ابن فلسطين بمكانة خاصة لدى الإمبراطور، وكان من خاصة رجال حاشيته النافذين، يأخذ برأيه ويستشيره فى كافة الأمور، وظل يتمتع بعطف الإمبراطور، محاولاً دعم سلطته الملكية على أساس العناية الإلهية، فالإمبراطور يحكم البلاد ويرأس الكنيسة بفضل من الله ورعايته، وكأنه ظله على الأرض. . . وهذه النظرية المسيحية التى وضع أسسها ابن فلسطين أوسابيوس تمسكت بها الإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية على مر العصور. . . وفى هذا المضمار يقول أستاذ الأدب البيزنطى «جلانفيل داونى» فى كتابه - أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس الكبير -: وإذا كان لابد لكل شيء أن يتجدد، فقد كان على الإمبراطور المسيحى أن يبدأ بتكوين إمبراطورية لها دورها، كأداة فى تحقيق مملكة الله هذه، وقد احتاجت هذه الإمبراطورية إلى أساس سياسى ودينى.

وقد قام أسقف قيسارية المدعو أوسابيوس، وهو رجل دين عالم ومتدين، وأحد مستشارى قسطنطين المقربين فى الأمور الكنيسة، قام بإرساء القاعدة النظرية للدولة الجديدة، فقد استنبط أوسابيوس تعريفًا جديدًا لطبيعة الحاكم المسيحى ومصادر قوته، وعليه قام أوسابيوس بتقديم الإمبراطور الرومانى المسيحى، كنائب الله فى الأرض، يحكم كوكيل وخادم للحاكم الأعلى، ويتصرف تبعًا لإرشاده المباشر. . . إذن لم يكن أوسابيوس مشاركًا فى كتابة تاريخ الإنسانية فحسب، بل مشاركًا أيضًا فى مسيرة حركة التاريخ نفسه، وقد قال فيه المؤرخ الفرنسى «لوى دوشين» فى كتابه عن تاريخ الكنيسة: أوسابيوس رجل فريد، يعرف كل شىء، يعرف التاريخ المقدس، والتاريخ المدنى، والآداب القديمة، والفلسفة، والجغرافية، والحساب، وتفسير الكتاب، فقربه الإمبراطور قسطنطين، واعتبره بحق فخرًا للمسيحية والمرتبة الأسقفية. . . ياله من فخر لقيسارية وابنها البار، الذى نسب إليه إرساء القاعدة النظرية لإمبراطوريتين عظيمتين، كان لهما دورهما الكبير فى تاريخ البشرية، أفلا يستحق بذلك لقب أول سياسى كنسى فى التاريخ، بالإضافة إلى ما لقب به بإجماع أبو التاريخ الكنسى على مر العصور.

• قيسارية فى العهد البيزنطى •

انقسم الرومان فى عام ٣٩٥م إلى قسمين: الدولة الرومانية الشرقية، والدولة الرومانية الغربية، وكانت سوريا ومنها فلسطين تابعة للدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية)، وقد قسمت فلسطين فى هذا العهد إلى الأقسام الإدارية التالية: فلسطين الأولى وتشمل مدن السهل الساحلى حتى رفح ومنها: يافا

وغزة وعسقلان، كما تشمل الخليل والقدس ونابلس، وعاصمتها قيسارية، وفلسطين الثانية وتضم الجليل وأم قيس وقلعة الحصن وطبرية وعاصمتها بيسان، أما فلسطين الثالثة، فتضم بلاد العرب الأنباط ومنطقة بئر السبع والبتراء عاصمتها.

ومن أهم حوادث قيسارية فى هذا العهد ما جرى فى عهد الإمبراطور البيزنطى «جوستنيان» ٥٢٧ - ٥٦٥م، الذى كان شؤمًا على المدينة، ففى أيامه حدث زلزال هائل فى قيسارية، وانحسر البحر ألفى خطوة إلى الوراء، وانخسفت الأرض فى عدة مدن فلسطينية منها قيسارية، وفى عهده تم إغلاق مدرسة الحقوق فى قيسارية التى داومت على العطاء لعدة قرون، وكانت فى المرتبة الثانية بعد مدرسة اللاهوت فى قيسارية... وفى أواخر هذا العهد، عندما كانت بيد الإمبراطور البيزنطى «هرقل» هاجم فلسطين ومنها قيسارية عام ٦١٣م جيوش الفرس بقيادة «شهربراز» وظلت بيده حتى حررها هرقل فى عام ٦٢٧م، وظلت بيد البيزنطيين حتى الفتح العربى الإسلامى.

وقد ظلت قيسارية طوال هذا العهد تحتفظ بما حظيت به فى العهد السابق من تفوق اقتصادى وتجارى وإدارى، ومكانة عسكرية ممتازة، وليس هذا فحسب، بل احتفظت فى هذا العهد بشعلتها الفكرية، وكانت لغة التدريس فى مدارسها اللغة اليونانية، كما كانت تتبادل الأساتذة والطلاب مع غيرها من مدارس مدن فلسطين، بل مع أشهر مدارس الإمبراطورية فى تلك الآونة، ومن علماء قيسارية الذين برزوا فى هذا العهد:

• بروكوبيوس القيسارى •

تذكر المصادر التاريخية الخاصة بالإمبراطورية البيزنطية، أن رجلاً فلسطينيًا من مدينة قيسارية، استطاع أن يصبح مستشاراً لأعظم قواد الإمبراطورية، وعضواً فى مجلس الشيوخ، ومحافظًا للعاطمة القسطنطينية، ذلكم هو «بروكوبيوس القيسارى» الذى ولد ما بين عامى ٤٩٠ - ٥٠٠م فى قيسارية، ودرس فيها الحقوق، ونال قسطًا كبيرًا من الثقافة اليونانية السائدة إذ ذاك، ودفعه جموح طموحه إلى الانتقال إلى العاصمة القسطنطينية، وهناك افتتح مدرسة يعلم فيها الفصاحة، على رأى المطران «يوسف الدبس» فى كتابه «تاريخ سوريا».

واشتغل بالمحاماة، واستطاع أن يلفت الأنظار إليه، فعين حوالى عام ٥٢٧م أمينًا للسر ومستشاراً قانونيًا للقائد البيزنطى «بليساريوس» أعظم قواد الإمبراطور «جوستنيان»، الذى اختاره عضواً فى مجلس الشيوخ، كما تولى بلدية العاصمة حوالى عام ٥٦٢م إلى أن أدركته الوفاة عام ٥٦٥م.

• بروكوبيوس مؤرخًا •

إذا ما انتقلنا إلى الحديث عن مؤلفات ابن قيسارية الفذ، نجده قد فاق جميع معاصريه، فقد أفادته صحبته لبليساريوس، بأن أتاحت له فرصة متابعة الأحداث عن قرب، وأباحت له الاطلاع على الوثائق الرسمية، فجاءت كتاباته كتابات شاهد عيان، وقد ترك لنا ثلاثة أعمال يأتى فى مقدمتها بلا شك كتابه «الحروب»، ويعتبر من أوائل أعماله وأشهرها، كتبه عام ٥٥٠م، وأرخ فيه

للمعارك التى خاضها البيزنطيون مع الفرس، وللاستيلاء على مملكة الفاندال فى أفريقية، وللصراع مع القوطيين فى صقلية وإيطاليا.

ويبدو أن بروكوبيوس فى مؤلفه هذا كان متحيزًا للإمبراطورية البيزنطية، ومؤمنًا برسالة روما الحضارية، وقد حرص أيضًا على أن يقف موقف المدافع عن أرستقراطية المال والمنصب، وفضلاً عن هذا وذاك، كان شديد الإعجاب ببليساريوس، وإذا كان قد عرف من صلته بالقائد والإمبراطور، عظمة أول الرجلين، وبنحل ثانيهما، فقد خلع على بليساريوس ثوب البطولة البراق، وترك جوستنيان منزويًا فى الظلام، وقابل الجمهور مؤلفه أحسن قبول، وسكت عنه الإمبراطور، والواقع أن بروكوبيوس قدم فى مؤلفه مادة علمية غزيرة، وصار مؤلفه مصدراً لمن جاء بعده من المؤرخين الذين كتبوا عن عصر جوستنيان فى أواخر القرن السادس، والقرون التى تلت ذلك القرن مثل: ايفاجريوس، واجاثياس، ومیناندر، وجورج كدرينوس، وحنازوناراس وغيرهم.

أما عمله الثانى «الإنشاءات المعمارية» أو المبانى أو الصروح، فقد ألفه بتكليف من الإمبراطور جوستنيان عام ٥٥٤م بغية وصف الأبنية التى شيدت فى عصره، ويعتبر الكتاب سجلاً فريدًا ونادراً عن حركة البناء والتعمير، سواء فى المجال الدينى أو الحربى أو الاجتماعى، والواقع أن عمل بروكوبيوس هذا هو المصدر الوحيد لكل إنجازات جوستنيان المعمارية.

أما كتابه الثالث فهو «مذكرات لم تنشر» أو ما شاع بين الدارسين باسم «التاريخ السرى» أو «النوادر» وكتب بروكوبيوس هذا الكتاب قبل كتابه

«الإنشاءات المعمارية» ولكنه أفلح فى أن يبقيه دون أن ينشره، أو يذيع ما فيه، ولم ينشر إلا بعد وفاة جوستنيان، وربما بعد وفاة بروكوبيوس نفسه أيضًا، وجاء التاريخ السرى على النقيض من الكتابين السابقين، إذ تضمن آراءه الخاصة حول مؤامرات القصر الإمبراطورى فى عصره، والفساد الخلقى الذى استشرى فى العاصمة البيزنطية، كما حمل فيه على جوستنيان وزوجته «ثيودورا» وبليساريوس وزوجته أيضًا، ونسب إلى الإمبراطور كل البلايا التى حلت بالإمبراطورية، وقد أجاد فى وصف بروكوبيوس صاحب كتاب «قصة الحضارة» حيث يقول: أما حين يكتب عما يشاهده، فقد أثبتت الأيام صدقه، وكان شجاعًا فيما أقدم عليه من عمل عظيم، منطقيًا فى ترتيب مادته يستحوذ على لب القارئ وانتباهه فى قصصه ولغته اليونانية واضحة، خالية من كل الالتواء والتعقيد، وهى فصيحة، لا تكاد تقل فى فصاحتها عن لغة اليونان الأقدمين... وهكذا أصبح بروكوبيوس عنوان مشهرة لمدينته قيسارية، ولأمته الفلسطينية التى أنجبت الكثيرين من أمثاله على مدى العصور.

• قيسارية منذ الفتح العربى حتى حروب الفرنجة •

كانت مدينة قيسارية آخر المدن الفلسطينية التى افتتحها المسلمون، إذ إن «عمرو بن العاص» نزل عليها لأول مرة فى جمادى الأولى عام ١٣هـ/ ٦٣٤م، ثم انسحب عنها، وظل يعاود حصارها كلما أقام بفلسطين، وينسحب عنها حينما يدهم المسلمين خطر يستدعى تجمعهم، وقد سار عنها حينما توجه لفتح مصر، وأوكل أمر حصارها إلى «معاوية بن أبى سفيان» الذى ظل مقيمًا عليها حتى فتحها فى العام ١٩هـ/ ٦٤٠م، وبعث إلى الخليفة «عمر

ابن الخطاب» بخبـر فتحـها، فكان فرحه عظـيمًا، وقام عـمر فنادى: ألا إن قيسارية قد فتحت قسرًا.

وكان عمر قد قسم الشـام إلى أقسام إدارية أربعة، عرفت بالأجناد، وهى: جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، أما الأخير فهو ما كان مـعروفًا عند البيـزنطيين باسم فلسطين الأولى، وغـالبية فلسطين الثـالثة، وجعلوا «اللد» عاصـمة له بدلاً من قيسارية، ثم صارت الرملة عـاصمة له بعد أن أقيمت فى عـهد «سليمان بن عـبد الملك» إلا أن قيساريـة كانت أمنع مدن فلسطين، وفى خلافة عثمان أسكنها معاوية العرب وأقطعهم فيها، وذلك بأمر الخليفة، وحولها العرب إلى ميناء إسلامى نشط.

وفى خـلافة «عـبـد الملك بن مـروان» هاجم الروم بعض مـدن فلسطين الساحلية ومنها قيسارية، وأفسدوا فيـها بعد أن نهبوها وهدموا مسجدها، وكان عبـد الملك آنذاك مشـغولاً بحـربه مع «ابن الزبير»، وعندمـا رتب أموره رمم قيسارية وأعاد بناء مسجدها، وشحنها بالرجال فعمها الاستقرار والرخاء، وكان لـ «هشام بن عبد الملك» ضيعة فى قيسارية هى «كفرلاب».

إن رخاء قـيسارية فى هذا العـهد واستـقرارها قد لفت أنظار الكثـيرين من الرحالة العرب، وكان مثار إعجـابهم، فقالوا فى ذلك الكثير ومنهم «المقدسى» حوالى عـام ٣٨٠هـ، فى كتابه «أحـسن التقاسيم فى مـعرفة الأقـاليم» حيث يقول: إنهـا تقع على ساحل بحـر الروم (البحر الأبيض المتـوسط) ولا توجد هناك أية مدينة أجمل منها، أو تحـوى بضائع جميلة أكثر منها، مـياهها غزيرة وحاصلاتها وفيرة، أرضها خصبة، وفاكهتها لذيذة الطعم، وهى شهيرة بحليب

الجاموس والخبز الأبيض، بـنيت حولها الأسوار المنيعة لحمايتـها، تقع خارجها الضاحيـة المملوءة بالسكان والتى تحميهـا القلعة، يشرب السكان فيهـا من مياه الأحواض والآبار، مسجدها الكبير جميل جدًا... وزارها حوالى عام ٤٣٢هـ الرحالة الفارسى «ناصر خسرو» وكتب عنها فى كتابه «سفر نامه»: تقع قيسارية على بعد (٢١ ميلاً) من عكا، وهى مدينة جميلة تجرى فيها المياه، يكثر حولها شجر النخيل والنارنج والحمضيات، أسوارها منيعة ولها بوابة من الحديد، تكثر فى وسطها النوافير التى تندفع مياهها بغزارة، وفيـها مسجد لصلاة الجمعة يقع فى أحسن قسم منهـا ويستطيع المرء أن يجلس فى صحنه ويمتع نفسـه بجمال البحر الواقع أمامـه، فيها حوض من الرخام يشبـه الخزف الصينى، وهو يتسع مئة منٍّ من الماء.

• عبد الحميد الكاتب.. مأساة وزير وكاتب فلسطينى عظيم •

إن الشعلة الفكرية التى صـاحبت قيسـارية، والتى لازمتها طوال عـهودها السابقة، لم تهـدأ فى هذا العهد ولم تخبو نارها، ولا يتـسع المجال هنا لرصد الحركة الفكرية فى قيسارية فى هذا العهـد، وحسبنا أن نتحدث عن أهم ممثليها وهو «عبـد الحميـد بن يحيى بن سعـد» المعروف بالكاتب، كان جـده مولى «العلاء بن وهب العامرى بن لؤى» فنسب إلى بنى عامر، وأصله من قيسارية، امتـهن مهنة التعلـيم فى مختلف البلدان، تخـرج فى البلاغـة على ختنه «أبى العلاء سالم» مولى «هشام بن عبد الملك» حتى صار فيها وفى كل فن من العلم والأدب إمامًا وهو القدوة، حـتى قيل: «فتحت الرسائل بعبد الحمـيد وختمت بابن العميد».

• عبد الحميد الكاتب الأول •

واقتران اسمه بلقب «الكاتب» يؤكد هذه الحقيقة، ذلك لأن مهنة الكتابة والاشتهار بها والتخصص فيها، كانت فى ذاتها مرحلة من مراحل التطور الحضارى فى تاريخ الدولة العربية والخلافة الإسلامية.

ولقد سبق عبد الحميد رجالاً كانوا بالنسبة إليه بمثابة التمهيد أو الريادة، ولم تكن العبارة المشهورة فى كتب الأدب وهى «بدئت الكتابة بعبد الحميد» تنطوى على شىء من المبالغة، وإنما كانت تلخيصًا صادقًا لواقع حضارى، ذكره «القلقشندى» فى كتابه «صبح الأعشى» بقوله: «وكان ممن اشتهر من كتابهم بالبلاغة وقوة الملكة فى الكتابة حتى صار ذكره فى الأمصار والآفاق، وصار يضرب به المثل على مر الأزمان، عبد الحميد كاتب مروان آخر خلفائهم، وعن عبد الحميد أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، فكان أول من وضع الأساس لفن الكتابة والتحرير، والأستاذ الأول لصناعة كتابة الرسائل والوثائق، وبين فى رسالته إلى الكتاب الصفات والفضائل التى يجب أن يتحلى بها الكتاب، ذكر هذه الرسالة «القلقشندى»، كما ذكرها «الجهشيارى» فى كتابه «الوزراء والكتاب» وقد بلغت مجموع رسائل هذا النابغة القيسارى مقدار ألف ورقة، طبع بعضها، وكان «يعقوب بن داود» - وزير الخليفة العباسى - «المهدى» كاتبًا من كتاب عبد الحميد، وممن تخرج عليه وتعلم منه.

• عبد الحميد الوزير •

استمر عبد الحميد فـي ممارسة التعليم، إلى أن عينه «مروان بن محمد» أيام ولايته على أرمينية كاتبًا عنده، ولما بويع بالخلافة نقله معه إلى الشام. . . وليس من غرضنا لضيق المجال، ونحن نواجه هذه الشخصية الرائدة والفذة في الأدب العربي أن نتتبع بالتفصيل شخصية الكاتب، منذ بدايته في الدولة الأموية إلى أن أسلمت القياد إلى بني العـباس، وحسبنا أن نذكر بإيجاز شـديد أهمية الكاتب بالنسبـة إلى الدولة، لا في كتـابة الرسائل فـحسب، ولكن في توطيـد أركان الحكم وفي توثيق أواصـره، وفي الحرص على أصوله ومـبادئه، وفي الحـفاظ على القيم الإنسـانية والمثل الأخلاقيـة، ولذلك اقترنت مـهنة الكتابة ولا تزال تقتـرن بالدولة، ويعد الكاتب بهـذه المثابة ممثلاً الهـيئة الاجـتماعـية في الحكم والتوجيه مـعًا، ولا تزال مصطلحات الوزارة مستعارة من الكتـابة في كثير من الدول المعاصرة واللغات الحية اليوم.

• مأساة عبد الحميد •

ولكن الجو لم يـلبث أن اعتكر على مـروان وكاتبه بمهـاجمـة «أبي مسلم» عرش بني أمية المتـداعي، ويقال: إن مروان قال لعبد الحـميد حين أيقن بزوال ملكه: «قد احـتجت أن تصير مع عـدوّي، وتشهر الغدر بي، فإن إعـجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تحـوجهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لـم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي، فـقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت علي به أنفع الأمـرين لك وأقبحها بي، وما عندي إلا الصبر، حتى يفتح الله عليك، أو أقتل بك».

وفي كتـاب «الوزراء والكتاب»: «طُلب عبد الحـميد، وكان صـديقًا لابن المقفع، ففاجأهما الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهمـا: أنا، خوفًا من أن ينال صاحبه بمكروه، وخاف عبـد الحميـد أن يسرعوا إلى ابن المقـفع، فقال: ترفـقوا، فإن فيّ عـلامات، ووكلوا بنا بعضكم، ويمـضي بعض يذكر تلك العلامات لمن وجـه بكم، فتم ذلك، وأخذ عبد الحميد وقتل في عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م.

وهكذا انتهى أمر من رقي صناعة الكتابة إلى مرتـبة ليس فوقها إلا الخلافة، وهي مرتبة الوزارة، وهكذا استـطاعت شخصية ابن قيسـارية أن تتجاوز حدود عصرها، وأن تظل بخلائقها، وبالأصول التي وضعتها للكتاب، مثالاً حضاريًا يستحق الاحترام والتقديـر، وما بقي من رسائله الديوانية والإخوانية لا يكشف عن أسلوب العصـر الأموي فحـسب، ولكنه يصور الملامح الحـضارية للدولة الإسلامية قرونًا متطاولة بعد وفاته.

• الفرنجة وقيسارية والطريق إلى الهاوية •

اسـتطاع «بغدوين» الاسـتيـلاء على قـيسـارية بمعاونة أسطول جنوة عـام ١١٠١م، وأعملوا القتل في أهلها، حتى تحول مـسجدها إلى بركة دم كبيرة، وباعوا الرجال والنساء في أسـواق الرقيق، ثم جمعوا جثث الشـهداء فأشعلوا فيها النيـران، ونظرًا للازدهار الاقتصادي الذي كانت تتمـتع به كانت غنائمهم هائلة حـتى كان نصيب كـل فرد من «الجنوية» الذين شـاركوا في قهـر المدينة حوالي مئتي رطل من التوابل، علمًا بأن عدد الجنوية كان حوالي ثمانية آلاف، هذا بخلاف السلع الأخرى والأموال التي غنموها، مع الأخذ بعين الاعتبار أن

نصيب «الجنوية» كان الثلث، والثلثين الباقيين من نصيب ملك القدس الصليبي، وقد أصبح للجنويين فيها أسواق ومنشآت، كفلتها المعاهدات المنعقدة بينهم وبين ملك القدس.

وظلت قيسارية من أهم معاقل الفرنجة في الساحل الفلسطيني، وقد عقدوا فيها مجلسًا حربيًا في كانون أول/ ديسمبر عام ١١٨٢، تقرر فيه الإغارة مرة أخرى على «حوران»... وبعد معركة حطين استرد قيسارية أحد قواد صلاح الدين، لكن سرعان ما استعادها «ريتشارد» عام ١١٩١م، وبموجب «صلح الرملة» الذي عقد في عام ١١٩٢م، صارت المدينة ضمن ممتلكات الفرنجة، وبعد ذلك هاجمها «الملك المعظم الأيوبي» في غارة مباغتة، وهدم قلعتها الجديدة عام ١٢١٩م، وعاود الفرنجة تحصينها عام ١٢٢٨م وأعادوا بناء قلعتها، كما أعاد تحصينها «لويس التاسع» عندما عسكر فيها عام ١٢٥٠م، ويقال: إنه حمل إلى قلعتها العمد الصوان وأتقنها.

وهكذا استمر تداول قيسارية بين المسلمين والفرنجة، وتداولوا تعميرها وتخريبها حسب مقتضيات الظروف، بين عامي ١١٠١م إلى ١٢٦٥م، حيث تم تحريرها في هذا العام نهائيًا على يد السلطان المملوكي «الظاهر بيبرس» وفي هذه المرة بدلاً من أن يستوطنها المسلمون اختاروا أن يدمروها تمامًا، احترازًا من أن ينتفع بها الفرنجة، فدمروا المدينة وتحصيناتها وقلعتها إلى أن سويت بالأرض، وقيل: إنهم نسفوا إحدى أنبوبتي المياه القديمتين اللتين تزودان قيسارية بالمياه، وتركوا الفيضان يعبث بها، وتحولت المدينة إلى بحيرة، غطى البلل والطين بقايا قصورها الفاخرة، ويومًا بعد يوم غدت فريسة سهلة لطغيان البحر...

وعن قيسارية بعد الغزوة الفرنجية يحدثنا «ياقوت الحموى» المتوفى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م فى كتابه «معجم البلدان»: كانت قديمًا من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل، وأما الآن (٦٢٣هـ/ ١٢٢٥م) فليست كذلك، وهى بالقرى أشبه منها بالمدن، وأما «أبو الفداء» المتوفى عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، فلم يضف شيئًا فى كتابه «تقويم البلدان» سوى أنه ذكر أنها كانت فى زمنه (١٣٢١م) مهدمة... وعدها «القاضى العثمانى» المتوفى عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م فى قطعة من تاريخ صفد من ولاية (عثليث) حيث قال: وبهذه الولاية بحيرة صغيرة بقرب قيسارية... ويبدو أنها استمرت فترة طويلة مهدمة خاملة الذكر، فها هو الرحالة الفرنسى «لوران دارفيو» فى عام ١٦٥٨م يزور قيسارية ويشبهها بكومة خرائب، ويشاهد فيها من جهة البحر أسوارها السمكية بكاملها تقريبًا قد امتلأت خنادقها بالأبراج التى انهارت فيها، وما زال قائمًا فيها بعض الكهوف المقبية والأعمدة، وتسكنها بعض أسر صغيرة تتعاطى صيد السمك، وتلجأ إلى الكهوف أوقات الخطر.

ولما زارها الرحالة الإنجليزى «ريشارد بوكويك» عام ١٧٣٧م ذكر أقنيتها القديمة التى ما زالت بقاياها قائمة، وأشار إلى خرائب البيوت المقبية داخل الأسوار، وإلى وجود خنازير برية فى السهول المجاورة لها، ولا تسكنها أكثر من ثلاث أسر.

وهكذا بقيت قيسارية خربة إلى أن نزلها (البوشناق) وهم من مسلمى البوسنة والهرسك، الذين غادروا بلادهم فى عام ١٨٧٨م على أثر احتلال النمسا لها، فعمروها وأخذت فى النمو والتقدم، وكانت بعد ذلك مركزًا

لناحية، يتولى مديرها الإشراف على ما جاورها من عشائر وقرى ومزارع... وفى عام ١٨٩٨م مر بها الإمبراطور الألمانى «غليوم» فى طريقه إلى القدس، وذكرها صاحب كتاب «الرحلة الإمبراطورية فى الممالك العثمانية» المطبوع عام ١٨٩٨م بقوله: كانت قيسارية من نحو عشرين سنة تحتوى على مائة بيت، وجعلت موطنًا للمهاجرين من البوسنة والهرسك، أما اليوم فقد أصبحت تعد فى مصاف القرى الكبيرة.

• ولا تزال قيسارية فى الذاكرة •

رغم النكبة التى حلت بقيسارية بسبب غزو الفرنجة لفلسطين، إلا أنه لم يحل دون بقاء اسم قيسارية يتردد على الألسنة ويجوب الآفاق، عن طريق بعض أبنائها النابهين، الذين كانوا ولا يزالون عناوين شهرة لها، إذ ينسب إلى قيسارية أسرة ترتقى بنسبها إلى البطل «خالد بن الوليد» وإلى قبيلته، اضطرت إلى الرحيل عن بلدتها أيام الحروب الفرنجية، فنزلت عكا ثم انتقلت إلى حلب، بعد أن استولى الفرنجة على مدن الساحل الفلسطينى، عرفنا من أبنائها غير واحد فى الشعر والأدب والحكم والإدارة ومنهم:

- محمد بن نصر بن صغير بن داغر بن محمد بن خالد المخزومى... ولد فى عكا عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، ونشأ فى قيسارية، ثم انتقل إلى حلب، وتوفى فى دمشق عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، وكان حاملاً للواء الشعر فى عهده ومن الأدباء المتفننين، ويقال: إنه أول فلسطينى اشتغل فى الحساب والهندسة وبرع فيهما، وتولى إدارة الساعات التى كانت على الجامع الأموى فى دمشق.

ويقال: إنه درس علم الهيئة، وسمع الحديث، ومضى إلى دمشق، فبلغ تاج الملوك بورى أنه هجاه، فتنكر له، فهرب إلى حلب، ومدح «نور الدين محمود بن زنكى» صاحبها، وهناك توطدت الصلة بين الملك والشاعر، وكان قد مدح والده فيما سبق، وله ديوان شعر متوسط الحجم، جمعه وكتبه بخطه.

– وأبو البقاء موفق الدين – خالد بن محمد بن نصر... ابن السابق، كاتب وزير، ولد فى حلب، وقدم دمشق فاستوزره «نور الدين» وكان من الكتاب المجيدين المتفننين، وكانت وفاته بدمشق فى عهد «صلاح الدين الأيوبى» عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م.

– وبهاء الدين نصر بن محمد محمد القيسرانى «شاعر» كان من رجال الملك «المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبى» وذكر أن الملك المعظم كان نازلاً لأمرة بنابلس وفى معسكره «بهاء الدين نصر بن محمد القيسرانى» وبعث الملك المعظم جماعة من عسكره وأغاروا على مدينة قيسارية، فأسروا وقتلوا وعادوا مظفرين، ومعهم من ثمار قيسارية أترج كثير وليمون، وكان الملك عند قدومهم فى خيام الأمير «ظهير الدين بن سنقر الحلبى» من أكبر أمراء الملك، وأبوه سنقر كان مملوكًا لبيت القيسرانى، فقال له الملك: يا ظهير هذه الهدية من بلد أستاذك، يعنى ابن القيسرانى.

– وأبو محمد فتح الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد بن محمد ابن نصر... من حفدة السابق، أديب، عالم، شاعر، محدث، ولد فى دمشق عام ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، ولى الوزارة بدمشق فى أيام الملك «السعيد بن الملك الظاهر بيبرس» مدة ستة أشهر، ثم انتقل إلى مصر، وكانت وفاته عام

٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م ومن آثاره ديوان شعر، وكتاب فى الصحابة، وكتاب فيه أربعون حديثًا خرجها لنفسه.

- والقاضى عز الدين عبد العزيز ابن القاضى شرف الدين محمد بن فتح الدين عبد الله - أحد كتاب الدَّرج ومدرسها بالمدرسة الفخرية بالقاهرة - وكان من أعيان الموقعين هو ووالده وجده، توفى عام ٧٠٩هـ، وكان له فضيلة ونظم ونثر.

- والصاحب الأمجد عماد الدين إسماعيل بن محمد بن فتح الدين عبد الله بن محمد القيسرانى، ولد عام ٦٧١هـ، وكان منشئًا بليغًا رئيسًا دينًا نزيهًا، وكان موقع الدست بمصر، ثم ولى كتابة سر حلب سنة ٧١٤هـ، ثم أصبح موقع الدست فى دمشق، وكان ينظم الشعر، توفى بدمشق عام ٧٣٦هـ، وهو والد القاضى شهاب الدين يحيى الذى ولد عام ٧٠٠هـ، وباشر الإنشاء وكان حسن الخلق جدًا تام الخلق، باشر كتابة الإنشاء وتوقيع الدست بعد أبيه عام ٧٣٦هـ، ثم ولى كتابة السر فى نيابة تنكز، مات بدمشق عام ٧٥٢هـ.

- وإبراهيم بن عبد الرحمن بن على القيسرانى، ولد عام ٦٣٩هـ، وتوفى عام ٧٢٠هـ، كاتب أديب، أمين سر الملك الصالح، وصنف فيه كتابًا دعاه: «النور اللائح والدر الصادح فى مولانا السلطان الملك الصالح». وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد... القيسرانى، موقع الدست فى دمشق والقاهرة، كاتب أديب، له ترسل ونظم، وتوفى عام ٧٥٣هـ، وفيه يقول «جمال الدين إبراهيم بن الشهاب محمود»:

قل لرب العلى فتى القيسرانـى حيـن تأتـى منشئـه المهرانــى
حل عقدى بالفضل منك فإنى عاطــل مـن قلائـــد العقبـان

• قيسارية الحديثة •

أنشئت قيســارية الحديثة فى السهل الساحلى الفلسطينى علـى شاطئ البحر المتوسط، على ارتفاع قرابة عشرة أمتار عن سطح البحر، فى منطقة تعد جزيرة بين الكثبان الرمليـة التى تحف بالشاطئ مسافـة تراوح بين ١ و٢كم تاركة نحو ١,٥كم هى المنطقة التى تقع فى وسطهـا البلدة، وتغطى الكثبان الرملية قـسمًا كبيرًا من أراضيـها الداخلية، وأما شاطئ البحر الواقع ضمن أراضيهـا فمتعرج وصخرى من الطرف الشمالى لأراضيها حـتى مسافة كيلو متر جنوبها، ورملى فيـما بـقى، وتمتد القـرية بصورة عـامة مع امـتداد الشـاطئ من الشمـال إلى الجنوب. . . وفى عام ١٨٧٨م كـان فيـها مائة بيت، ارتـفع عددها إلى ١٤٣ بيت فى عام ١٩٣١، ويدخل فـى هذا العدد بيوت عـرب برّة قيســارية، وقد بنيت بيوت القرية من الحجارة والأسمنت أو الحجارة والطين، أما بيوت عرب قيسارية فمعظمها خيام.

بلغت مساحة القرية عام ١٩٤٥ نحو ٢٧ دونمًا، ومساحة أراضيها ٣١٧٨٦ دونمًا، فكانت السادســة فى قرى قضاء حيـفا من حيث مساحـة ما تملكه من أراضٍ، ولم يكن الصهـيونيون يـملكون سوى ٨٧٤ دونمًا من أراضيــها، أى ٢,٧٪ منها، عاش فى قيسارية ٣٤٦ نسمة من العرب فى عام ١٩٢٢، وارتفع العدد إلـى (٧٠٦ نسمة) فى عـام ١٩٣١م، ويدخل فى هذا العـدد عرب برّة

قيسـارية الذين كان عددهم ١٩٣ نسمـة فى عام ١٩٢٢، وفى عام ١٩٤٥ بلغ عدد سكانها ٩٦٠ نسمـة، وكان فى القرية مدرسة ابتدائية للـبنين افتتحت منذ العهد العثـمانى، واستخدم السكان مياه الآبـار فى الشرب والأغراض المنزلية، واعتمد اقتصاد القرية على الزراعـة، وكان فيها (١٨ دونمًا) مزروعة برتقالاً عام ١٩٤٥م.

وفى يوم ١٥/ ٢/ ١٩٤٨م قـام الصـهيـونيـون بطرد سكان البلدة البـالغ عددهم (١١١٤ نسمة)، وعلى أنقاضها أقام الصهيونيون مستعمرة (أور عكيفا) عام ١٩٥١، كما ضـموا بعض أراضيها إلى مستعـمرة (سدوت يام) المجاورة للبلدة، والمقامة عـام ١٩٤٠ على أراضى خربة (أبو طنطورة) إلى الجنوب من قيسارية، وقد تطورت مستعـمرة (أور عكيفا) وأصبحت مدينة ضمت (٦٣٥٠ نسمة) فى عام ١٩٧٠، ومنذ ذلك الوقت وهى فى اتساع مضطرد.

• آثار قيسارية •

اليوم لم يتبق من قيـسارية سوى حطام، تلقيه الأمواج مـختلطًا بالأعشاب البحرية... وكـأن المدينة لم يكفها ما سبـبته الحروب الصليبيـة لها من دمار، حتى انبرت جحافل الطبيعـة تعبث بما تبقى، مما لم تعبث به جحافل الغزاة، إذ تعرضت إلى عدد من الـزلازل خسفت بالكثير من آثارها، ولـيت الأمر انتهى عند هذا الحـد، فقـد دأبت أيدى الخـراب تطاردها من كل صوب وحـدب، ويقال: إن السلطان «الـظاهر بيبرس» نقل الكثـير من أعمـدتها ورخامـها إلى مصر، لاستعمالها فى منشآته العمرانية هناك، وحذا حذوه العديد ممن أتى بعده

من سلاطين المماليك، ويعزى إلى والى عكا «أحمد باشا الجزار» أنه عندما شرع فى إقامة مسجده الكبير فى عكا، استعمل فى ذلك حجارة أطلال قيسارية ورخامها، ودأب الأعراب على اقتلاع الأعمدة الرومانية من أماكنها ليثبتوا بها أكواخهم. . . إلا أنه على الرغم من هذا وذاك، فآثار قيسارية الرومانية لا تزال مرئية، حجر الصوان فى الميناء، ومبنى هنا وعامود هناك، ولكن الرمال المتراكمة غطت المدينة الرومانية، كما أن فعل تلاطم الأمواج جعل أجزاءً كثيرة من الميناء تتساقط فى البحر.

وفى أوئل الخمسينيات من القرن الماضى عمل بعض علماء الآثار على اكتشاف قيسارية القديمة، باستخدام آلات الغطس، ولكن تم القيام بأكثر الاستكشافات فى قيسارية فى عامى ١٩٦٠ - ١٩٦١ بإشراف «أدوين لينك» الذى استخدم سفينته المعدة للتنقيب عن الآثار الغارقة، ولقد جرف مصعده الهوائى أطنانًا من الرمال من فوق الأطلال اليونانية إلى خارج الماء ومعها جرار وتوابيت وعملات وقطع من الجواهر، أما الحفارون على اليابسة فقد وجدوا كنزًا عربيًا فى قبور القرن الحادى عشر، يحوى الذهب المرصع والتحف الزجاجية والعقيق والزمرد، ولقد أتت الكراكة أيضًا بكثير من الأشياء غير العادية مثل: دبابيس شعر عاجية، ومصباح نادر، ومسامير برونزية، وميدالية فى حجم القرش تصور منظرًا فى الميناء كما كان فى عهد هيرودوس، والاكتشاف المهم الآخر كان أرضية رومانية جميلة من الموزايكو كشفها «لينك» بإزاحته للرمال التى تغطيها. . . ولا يزال الكثير متبقيًا فى قيسارية، سواء على اليابسة أو فى البحر، وعلى أية حال فقد استطاع الأثريون أن يتعرفوا إلى بعض

معالم قيسارية، منها مثـلاً أنهم استطاعوا تعيين حدود الميناء (والمساحة هى ١٤ هكتارًا) ونظام المجارى من حيث مخارجها، أما ما اكتشف أثريًا وأمكن تحديده فهو المسرح، وبقايا القنوات المائية المنحوتة من الصخر.

* * *

• المراجـــع •

١ – الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، دمشق، ١٩٨٤.

٢ – الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصــة، القسم الثانى، المجلدين الثانى والثالث، بيروت، ١٩٩٠.

٣ – ول ديورانت «قصــة الحضارة» الجـزء الثالث، المجلد الثالث، ترجــمة محـمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٥.

٤ – جلانفـيل داونى، أنطاكية فى عهــد ثيودوروس الكبيـر، ترجمة د. ألبرت بطرس، مكتـبة لبنان، بيروت، ١٩٦٨.

٥ – لى سترانج، فلسطين فى العهد الإسلامى، ترجمة محمود عمايرى، مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام، عمان، ١٩٧٠.

٦ – مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلــسطين، الجزء السابع، القسم الثانى، دار الطليـعة، بيروت، ١٩٧٤.

٧ – د. أحمد بدوى، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليـبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩.

٨ – ج. م. هنسى، العالم البـيزنطى، ترجمة د. رأفت عـبد الحميد، دار المـعارف، القاهرة، ١٩٨٤.

٩ – هارى إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، الجزء الأول، ترجمة د. محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.

١٠ – د. أسد رستم، آباء الكنيسة، دار منشورات النور، بيروت، ١٩٨٣.

١١ – د. أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، الجزء الأول، المكتبة البوليسية، بيروت، ١٩٥٣.

١٢ - د. أسد رستم، الروم، الجزء الأول، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٥ .

١٣ - ناجى إسحق حنين، مدخل إلى الآباء، معهد الآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٠ .

١٤ - المطران يوسف إلياس الدبس، تاريخ سوريا، الجزء الثانى، المجلد الثالث، المطبعة العمومية المارونية، بيروت، ١٨٩٨ .

١٥ - د. أحمد رمضان أحمد، تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط فى العصر الوسيط، مطبعة هيئة الآثار، القاهرة، ١٩٧٧ .

١٦ - د. محمد فتحى الشاعر، أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٠ .

١٧ - د. عبد العظيم الراعى، تاريخ العصر الهلينستى ومصر البطلمية، دار لوتس للطباعة، القاهرة، ١٩٧٩ .

١٨ - أحمد بن زكريا البلاذرى، فتوح البلدان، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦ .

١٩ - أرنولد جونز، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة د. إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ١٩٨٦ .

٢٠ - جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة لفيف من العلماء، الجزءين: الخامس والسادس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١ .

٢١ - جون إلدر - الأحجار تتكلم، ترجمة د. عزت زكى، مطبعة مدكور، القاهرة، ١٩٦٥ .

٢٢ - روبرت سلفر برج، الآثار الغارقة، ترجمة د. محمد الشحات، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٥ .

٢٣ - بيريل سمانى، المؤرخون فى العصور الوسطى، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤ .

٢٤ - كروزير، رسائل بيلاطس البنطى، ترجمة جريدة فلسطين، مطبعة جريدة فلسطين، يافا، ١٩٤٥ .

مجدّو.. بين التاريخ الفلسطيني والأساطير العبرية

السؤال الذى يظل يلح دائمًا، كلما قرأ شخص التوراة، ما هو موقع اليهود من التاريخ؟ أو أين اليهود وآثارهم؟ وإذا كان لهم وجود فعلى فلماذا أغفلتهم الحوليات والآثار الخاصة بحضارات الشرق القديم؟

وتكمن خطورة هذا السؤال إذا ما أخذ مرتبطًا بالجهود المسعورة التى بذلت فى سبيل البحث عن إسرائيل القديمة المزعومة، واستمرت طوال قرن ونصف القرن من الزمن.

«بعد سبعين عامًا من الحفريات المكثفة فى أرض إسرائيل توصل علماء الآثار إلى نتيجة مخيفة، لم يكن هناك أى شىء على الإطلاق، حكايات الآباء مجرد أساطير، لم نهبط إلى مصر، ولم نصعد من هناك، لم نحتل البلاد، ولا ذكر لإمبراطورية داود وسليمان، الباحثون والمهتمون يعرفون هذه الحقائق منذ زمن...». شهادة عالم الآثار الإسرائيلى زئيف هرتسوج.

كلام جيد، رغم الثمانين سنة التى حاول هذا اليهودى حذفها من عمر الجهود المسعورة، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر تم فى أوروبا وأمريكا تأسيس كثير من الجمعيات التى كان همها اختلاق إسرائيل القديمة، وإسكات التاريخ الفلسطينى، وهذا المخطط المشبوه أو ما يسميه «كيث وايتلام» بالافتراض المتأصل يوضحه الدستور الخاص بصندوق استكشاف فلسطين، الذى أنشئ سنة ١٨٦٥م فى صراحة غاية فى الوقاحة، كما يوضحه صك الانتداب الذى تضمن وعد بلفور فى إشارته إلى الربط التاريخى بين اليهود المشتتين فى العالم وأرض آبائهم. ولخدمة هذا الهدف غير البرىء كثيراً ما خربوا التتابع الأثرى التاريخى، فى حمأة بحثهم الفوضوى عن أسانيد تدعم ما بين أيديهم من

أخبار ومرويات اختلقها حاخاماتهم.

وهكذا تم الالتفاف حول علم الآثار - فى مهارة منقطعة النظير - ويتضح ذلك جليًا فى سيطرة الصهيونيين على مراكز الأبحاث والدراسات التى تتولى هذا الجانب فى الغرب، ونجاحهم فى تجنيد مجموعات من الباحثين والآثاريين والمؤرخين التوراتيين، تحت عباءة العمل المحايد، وهم فى الحقيقة خانعون لقبضة الدراسات التوراتية، ونجاحهم فى استصدار ملايين النسخ - كتب ودوريات - لتمرير افتراضاتهم، وبحكم الصلة الروحية بين اليهود ومسيحيى الغرب كان الطابع العام لهذا المنهج لصالح الصهيونية والتاريخ التوراتى باستثناءات قليلة. والأخطر فى الموضوع أنه عن طريق هؤلاء الباحثين والمؤرخين والآثاريين تسربت المعلومات التوراتية على علاتها إلى المؤرخين العرب عمومًا، وبالنقل الحرفى أحيانًا.

واكتملت حلقات المخطط بتأسيس الكيان الصهيونى لدائرة الآثار الإسرائيلية بعد مرور أقل من شهرين على إعلان الدولة الصهيونية رسميًا، والهدف من ذلك السيطرة على المناطق الأثرية، ووضع اليد عليها والتنقيب فيها، وبالتالى فرض رقابة على نتائج التنقيبات وكان من الطبيعى والحالة هذه أن تقوم تلك الدائرة ومعها المعاهد الجامعية والجمعيات التاريخية والأثرية بالنشاط الأثرى والتاريخى بشكل واسع ضمن الإطار الثقافى للنظام الاستيطانى العنصرى الجديد، الذى أصبح بمقدوره انتقاء المعاهد والمؤسسات الغربية، التى تسير موازية لهذا التيار، وأخذت تفرض على البعثات الأثرية أسلوب التنقيب والنتائج المترتبة عليه وترتب على ذلك ما أطلق عليه «كيث وايتلام» خطاب الدراسات

التوراتيــة، وهو عبارة عن شبكة مـتداخلة وقوية من الأفكار والتوكـيدات التى يعتقد ممارسـوها أنها نتاج الدراسات العلمية الموضوعـية، بينما هى لا تعدو أن تكون ممارســة للقوة هيمــنت على التاريخ الفلسطينى، بل أنــكرت وجوده من الأساس لعشرات السنين.

غير أن الاتجاه الذى بدأ يتعزز الآن - والذى يعتبر «توماس طومسون وكيث وايتلام» من أبرز رواده - هو اتجاه التخلى عن الافتراضــات المسبقة التى فرضها التفسير التــوراتى، ورفض استملاك الماضى باعتباره جزءًا من ســياسة الحاضر. وبفضل جهودهما وجهود صحبهما من نبلاء الضمير أصبح بإمكاننا التفاؤل بأن ثمة أمل فى المستقبل القريب ببدء فك الحصار عن التاريخ الفلسطينى، وتكسير الأغلال التى كبلته طويلاً بعد تحرره بالتدريج من قبضة الدراسات التوراتية.

• تاريخ مجدُّو نموذجًا •

بتصدع التوراة قُوضت الادعاءات المعاصرة بمـلكية القوة والمعرفة، فالإجماع الذى أحاط بفترات نشوء إسرائيل الأولى ومملكة داود وسليمان ردحًا طويلاً من الزمان قـد انهار بوتيرة مـثيرة خــلال السنوات الأخيرة الماضــية. ومن هنا تأتى أهمية تضافر الجهود من أجل غربلة تاريخ شرقنا القديم، وتاريخ فلسطين على وجه الخصــوص، وتنقيتــه وإعطائه صوتًا معبــرًا، بعد أن حجبــته عن الأنظار مخططات توراتية جــهنمية، صاغت رواية تحـتـفظ بالماضى لإسرائيل وحدها، وفى هذا الصدد تأتى مدينة «مجدو» الفلسطينيــة فى مقدمة المدن التى تحتاج إلى تغيير جذرى فى معــالجة تاريخها، يحرر تاريخها المستعــبد من قبضة الدراسات التوراتية التى طالما اختزلت تاريخها لمصلحة تاريخ إسرائيل القديم.

• الموقع والمولد والنشأة •

يشغل سهل مرج ابن عامر الممر الرئيس الذى يقطع جبال فلسطين باتجاه غرب شرق، ليربط بين وادى الأردن وجبل الكرمل المتاخم للسهل عند حيفا، ويصل بينه وبين عكا نهر المقطع، ويطل عليه عدد من القلاع والمواقع الاستراتيجية من الناحيتين الشمالية والجنوبية، كما يعتبر مرج ابن عامر من أكثر المناطق الجغرافية خصوبة فى فلسطين، ويقع فيه عدد من المواقع التاريخية والأثرية المهمة التى لقيت اهتمام الباحثين والمنقبين، ومن أشهرها مجدُّو (تل المتسلم) حاليًا.

وأطلال مجدو تقع على تل استراتيجى يرتفع نحو ستين مترًا عن السهول المحيطة به، وتبلغ مساحته حوالى خمسين دونمًا، ويقع على بعد (٣٠كم) شرقى ساحل البحر الأبيض المتوسط، و(٤٠كم) إلى الغرب من نهر الأردن، وعلى بعد (٧كم) من مدينة جنين. وهو بذلك يقع على الطريق الذى يخترق جبل الكرمل من السهل الساحلى، ويتحكم بمدخل مرج ابن عامر فى شمال فلسطين، ويسيطر على الفتحة الاستراتيجية للمر الأمثل الذى يؤدى من السهل الساحلى لفلسطين إلى مرج ابن عامر، ويشرف على الطريق المؤدية بين مصر إلى سوريا. وهذا الموقع المميز أكسب المدينة مكانة مهمة عبر العصور، وحتى وقتنا الحاضر، حيث كان - كما سيأتى - مسرحًا للعديد من المعارك الحربية الحاسمة فى تاريخ فلسطين.

وللأسباب التى سبق ذكرها أولى علماء الآثار مدينة مجدُّو أهمية خاصة، فقد قامت بالتنقيب فى تلها بين عامى ١٩٠٣ - ١٩٠٥ بعثة ألمانية برئاسة

الآثارى «شوماخر»، ووجدت قليلاً من الآثار غير العادية، واستؤنفت عمليات التنقيب منذ سنة ١٩٢٥. ففى هذا العام ترك الآثارى «فيشر» العمل فى جامعة بنسلفانيا ليعمل مع بعثة معهد الآثار الشرقية التابع لجامعة شيكاغو كرئيس لبعثة التنقيب فى تل مجدو، وتسلمهـا من بعده كل من «غاى وغوردون». وتميزت هذه البعثة عن سابقتها الألمانيـة بتنظيم أبدع، وبموارد مالية فاقت بكثير جدًا كل البعثات الأثرية السابقة لها، إذ بلغت تكاليفها من سنة ١٩٢٥ - ١٩٣٩ حوالى مليـون دولار، بما فى ذلك تكاليف النشـر. وقـد قامت هذه البـعـثة بعـمل مجسات عميقة اخترقت عشـرين طبقة، حتى وصلت إلى مستعمرة تعود إلى أواخر العصر الحجرى الحديث.

• مجدُو فى العصر الحجرى النحاسى ٤٥٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م •

إذا كان بـعض العلماء يرجع تاريخ مـجدو إلى أواخـر العـصر الحـجرى الحديث فـإنها بدأت تزدهر فى الفتـرة المسماة بالغـسولية، أو حضـارة تليلات الغسول، التى ظهرت فى العصر المسمى بالحجرى النحاسى، وهو العصر الذى دخل فيـه تصنيع النحاس حياة سكـان المنطقة، وزاد فيه عـدد السكان ومواقع سكناهم. وإذا كان سكان أواخر العصر الحجرى الحديث قد سكنوا فى كهوف محفورة فى الصخر، فإن سكان العصر الحـجرى النحاسى قد استعملوا الحجر والطوب فى بناء مـساكنهم، وتنوعت أدواتهم وأوانيـهم الفخارية لتـنسجم مع إنتاجهم من الزراعة التقليدية.

وبيوت مجـدو فى هذه الفترة كانت متـجانسة مستطيلة الـشكل، مبنية من الحجارة والطوب الطينى، أما سقوفـها فكانت من القصب والطين، وأرضيات

البيوت مرصوفة أو مقصورة، ولغالبية البيوت ساحة مسورة، كانت تستعمل للطبخ والخزن وسائر أسباب الحياة اليومية، بدليل وجود مواقد وطوابين وحفر للخزن فيها، ووجد فى حفر الخزن قمح وذرة وبذور الزيتون.

ولقد كان لمجدو فى هذا العصر معبد كبير يتكون من ساحة تحيط بها المبانى الرئيسة الخاصة به، ففى الجهة الشمالية يوجد المبنى الرئيس، وفى الجهة الجنوبية يوجد المدخل فى مواجهة البئر، هذا بالإضافة إلى مدخل آخر فى الجهة الشرقية، وحائط حجرى يربط تلك المبانى. ويبلغ طول هذا المعبد حوالى عشرين متراً، كما يلاحظ وجود مذبح فى مواجهة المدخل، حيث عثر على بقايا عظام حيوانية وشقف فخارية.

وقد كان سكان مجدو فى هذا العصر يدفنون، وبخاصة الأطفال، فى جرار فخارية تحت البيوت، وكانوا ينتمون فى أصلهم إلى عرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وأقل ما يمكن أن يقال عنهم: إنهم تقدموا فى صناعة بناء المنازل، والزراعة المروية، وتربية الحيوانات.

• مجدو فى العصر البرونزى القديم ٣٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م •

ينقسم هذا العصر إلى عدة مراحل: الأولى منها تمتد ما بين ٣٢٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م، وعلى الرغم من الغموض الذى يكتنف الطبقات السكنية التى تمثل هذه المرحلة، فإنه أمكن تمييزها فى عدد من المواقع منها موقع مجدو. وتشير التنقيبات الأثرية التى جرت فى مواقع فلسطين إلى أن هذه المرحلة قد ورثت الكثير من التقاليد المعمارية من العصر الحجرى النحاسى، أما مواد البناء فى هذه المرحلة فكانت من الطين المصنوع بالقالب. وفى حال بناء الأبنية العامة

كالمعابد والقصور كانت تقوى جدرانها بأعمدة خشبية، ثم جعلت أساساتها بعد ذلك من الحجر، وسادت فى هذا العصر البيوت المستطيلة ذات الجدران المنحنية، والجدران ذات الزوايا الدائرية، كما أصبح البيت يتكون من غرفة أو غرفتين، وبنيت المساكن متلاصقة.

ويبدو أن عدد سكان فلسطين فى هذه المرحلة قد بدأ فى التزايد، فقد شهدت منطقة الشرق القديم ومنها فلسطين مع نهاية الألف الرابع ق.م تغيراً حاسمًا من النواحى الاجتماعية والاقتصادية. وتشير الدراسات المقارنة التى أجريت حتى الآن إلى وجود الكثير من المكتشفات المتشابهة (الفخارية والأختام الأسطوانية ورؤوس الهراوات الكمثرية الشكل) فى كل من فلسطين ومصر، حتى إن بعض الجرار الفخارية غالبًا ما تم تصديرها إلى مصر، كما وجدت أقرب الأمثلة للفخار الفلسطينى من النوع الرمادى المصقول (الذى اشتهرت به مجدو) فى أواسط الأناضول وشرقيه، وكذلك فى مواقع الساحل السورى مثل (طرطوس وطبارا الأكراد) وظهر ما يشبه هذا الفخار فى عدد من مواقع العراق من مرحلة حضارة الوركاء.

وقد أسفرت التنقيبات الأثرية فى تل مجدو عن وجود كميات كبيرة من هذا الفخار، حتى أطلق عليه بعض العلماء (فخار مجدو)، كما وجدت كمية من الشقف مطبوع عليها بأختام أسطوانية الشكل تمثل حيوانات وزخارف زهرية.

ويبدو أنه كان فى مجدو في تلك الفترة أكثر من معبد، وكان شكل الواحد منها قاعة كبيرة مستطيلة، يبلغ أطوالها ٢٠ × ٥,٦م، مقسمة بواسطة صف من أربعة أعمدة، ومدخل المعبد الرئيس فى الجدار الطويل الشرقى، وقد بنيت

جدرانه بمداميك منتظمة، أقامت سقفه دعائم خشبية مرتكزة على قواعد حجرية.

أما المرحلة الثانية ٣٠٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م فقد كانت من أزهى عصور مجدو، وقد غدت فيها من أهم المدن الكنعانية، ويدل هذا على استمرارية إنسان مجدو فى إنتاجه الحضارى. ومن خلال التنقيبات الأثرية التى تمت فى موقع مجدو وغيره من مواقع فلسطين التى تعود لتلك المرحلة يتضح لنا أن هذه المرحلة قد امتازت بتأسيس الكثير من المدن المسورة، كما أصبح تأسيس المدن ومرافقها الدفاعية والعامة والسكنية يفرض شيئًا من التخطيط المسبق، وغدت المدن الرئيسة تمثل وحدات سياسية مستقلة أشبه بدويلات المدن، التى يقبعها عدد من القرى الزراعية، كما تتميز هذه المرحلة باستعمال الفخار على نطاق واسع، واهتدى سكان فلسطين إلى خلط النحاس بنسبة معينة من القصدير فأنتجوا أدوات برونزية متعددة الأشكال والوظائف.

أما المرحلة الثالثة ٢٧٠٠ - ٢٣٠٠ ق.م فلا شك أنها تمثل أعلى درجات حضارة مجدو، وهى امتداد للمرحلة السابقة، وكثيراً ما استمر سكنى المواقع السابقة، مع بعض التغييرات أو الإضافات على مرافقها المعمارية. أما بالنسبة للعمارة فى المرحلتين الثانية والثالثة فقد كانت مادة البناء الرئيسة من الطوب المجفف، وغالبًا ما كانت أرضيات البيوت من التراب أو الحور المرصوص، وكانت الأرضيات المرصوصة قليلة أو أنها محصورة فى ساحات البيوت التى كانت تضم مرافق الطبخ والخزن، وقد خزن أصحاب البيوت حبوبهم فى جرار كبيرة، كانت كثيراً ما توضع داخل حفر. واستعان السكان فى هذه الفترة

بالأخشاب، لتشكل المادة الرئيسة فى سقف البيوت، التى كانت تدعم بأعمدة من الخشب أيضًا، وكثيرًا ما كانت البيوت مؤلفة من غرفة واحدة، وقد أضيفت غرف أخرى تبعًا لحاجة السكان وإمكاناتهم، وهناك منازل للسكان الأغنياء مؤلفة من غرفتين أو أكثر.

وتأتى المرحلة الأخيرة من هذا العصر، وهى مرحلة الانتقال إلى العصر البرونزى الوسيط ٢٣٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م، وأهم ما ميز هذه المرحلة أن تطور حياة المدنية زاد فى الحركة العمرانية التى تدل على نمو سكانى، وارتفاع مستوى المعيشة، وتقدم ملحوظ فى نظام الزراعة مثل الحبوب والزيتون واللوزز وقد تم العثور على أدوات للزينة مصنعة محليًا أو مستوردة، مثال ذلك: الخرز والعظام والأحجار الكريمة وبعض القطع الذهبية والأختام الأسطوانية التى ظهرت فى مجدو.

وعلى وجه العموم فقد امتاز العصر البرونزى القديم فى فلسطين ومنها مجدو بالتقدم فى الزراعة، والصناعة، مما أدى إلى زيادة الرخاء الاقتصادى كا هو ظاهر فى تطور الحياة المدنية، فأصبح من الضرورى قيام علاقات اقتصادية بين مجدو وشقيقاتها من مدن فلسطين، والبلاد الأجنبية الأخرى. فعلى سبيل المثال، كان زيت الزيتون ينتج لسد الحاجة المحلية، وبعضه كان يصدر لمصر، وأصبح يحسب حساب خزن هذه المنتجات فى البناء والتنظيم، حيث أصبحت تبنى المخازن الكبيرة لحفظها.

* * *

• مجدو في العصر البرونزي الوسيط ٢٠٠٠ - ١٥٤٦ ق.م •

تمثل هذه الفترة بداية التغلغل السياسي والعسكري المصري أثناء حكم الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن العلاقات التجارية قد شقت طريقها مع مصر قبل ذلك بكثير، فهناك من الأسرة السادسة المصرية من عهد الملك «بيبي الأول» وثيقة مهمة، وهي لوحة القائد الشهيرة «أوني» الذي عاش حوالي عام ٢٤٠٠ ق.م، ذكر فيها «أوني» أنه ذهب لإخماد ثورة اشتعلت في فلسطين فجهز جيشين سار أحدهما بطريق البر، وذهب هو مع الجيش الآخر بطريق البحر، وأنهم نزلوا عند مكان على مقربة من جبل الكرمل يحتمل أن يكون منطقة مجدو.

وقد عثر على جعارين باسم الفرعون «سنوسرت الأول» ١٩٧٠ - ١٩٣٦ ق.م، في مناطق عديدة من فلسطين، وأكثرها في مجدو، وفي عهد الملك «سنوسرت الثالث» ١٨٧٨ - ١٨٤٢ ق.م ارتحل الملك نفسه للقضاء على تمرد في فلسطين، وكانت منطقة مجدو ضمن المناطق التي افتتحها، وقد عثر في مجدو على ختم أحد مسجلي الماشية، وعلى تمثال لأمير الأشمونيين في مصر وهو «تحوت حتب الثاني» وعثر في مقبرة هذا الأمير بالأشمونيين على صورة ماشية واردة على ما يبدو من مجدو.

وعلى أية حال فإن التغلغل المصري قد أدى إلى السيطرة المصرية شبه التامة، وبشكل خاص على جنوب فلسطين في المرحلة الثانية من العصر البرونزي الوسيط، والعصر البرونزي الأخير، وأصبحت فلسطين تشكل جسر العبور المصري لأجزاء أخرى من بلاد الشام والمناطق الآسيوية الأخرى ويظهر التأثير

المصرى على الحياة اليومية من خلال المكتشفات المتنوعة التى تم استيرادها من مصر، أو صنعت فى فلسطين وكانت تقليدًا للصناعة المصرية، أو وقعت تحت تأثيرها، ومثال ذلك العثور على منحوتات مصرية من هذه الفترة فى العديد من مدن فلسطين وفى مقدمتها مدينة مجدو.

أما العمارة فى هذا العصر الذى عده العلماء العصر الذهبى لفلسطين، عصر التفاعل وبناء المدن والاستقرار، حيث تميز ببناء المدن المحصنة على نمط جديد، وتميز بالأسوار والبوابات الضخمة والتحصينات المائلة، أى أنه شهد تقدمًا كبيرًا فيما يعرف بالعمارة العسكرية.

وكانت مجدو فى هذا العصر مدينة ذات أسوار منيعة، بنيت أسوارها غالبًا بحجارة متعددة الزوايا مهرسة من الخارج، هذا فى الأقسام السفلية، أما الأقسام العلوية فبنيت باللبن، كما كانت محصنة تحصينًا قويًا، إذ كانت أسوارها تدعم بأبراج أقيمت على أبعاد متساوية حول الأسوار، كذلك كانت البوابات الضخمة تحصن، حيث يصعب على المهاجمين اختراقها بسهولة، فكان ممر البوابات يدعم بعضادات، بحيث يصبح هناك فسحتان أو ثلاثة يفصل بين كل فسحة وأخرى باب خشبى ضخم يسد الفراغ بين كل عضادتين.

أما العمارة المدنية، فقد بنيت المساكن فى هذا العصر على النمط الذى كان سائدًا فى المرحلة الأولى من العصر البرونزى القديم، وقد عثر على عدة قصور وبيوت للنبلاء، يتضح لنا من خلال تنظيمها أن الزعماء الكنعانيين كانوا يسكنون داخل المدن وحولهم مجموعة من أقاربهم النبلاء والوكلاء، وكان القصر يتألف من باحة أمامه، ومن وحدتين معماريتين لا يربطهما رابط. ومن

خلال التنقيبات الأثرية الخاصة بهذا العصر يتضح وجود أكثر من معبد فى مدينة مجدّو. . كما دلت المكتشفات الأثرية عن تقدم فى صناعة الملابس، وهى صناعة عرفها سكان مجدّو فى أحقاب موغلة فى القدم، وكانت صناعة الغزل خاصة بالنساء حتى فى بيوت النبلاء، وكن يغزلن الصوف والكتان وشعر الإبل، ولا شك أن الصوف كان أول مادة استعملت فى الغزل والحياكة، ثم عرف سكان مجدو الكتان الذى زرعوه، وقد عثر فى مجدّو على مغزل وبكرتين من العظم لغزل الخيوط، تعود بتاريخها إلى حوالى ١٦٠٠ ق.م.

وفى هذا العصر استخدم سكان مجدو الدبابيس لشبك الثياب، ويعود أقدم النماذج التى عثر عليها ما بين ٣٠٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م، أما الدبابيس المصنوعة من النحاس ومثقوبة الوسط فقد شاع استعمالها فى المدة الواقعة بين ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م، أما الذهبية التى عثروا عليها وعلى رأسها خرز من الأحجار الكريمة فهى تعود إلى هذه الفترة، وكانت تستعمل للزينة.

• فى العصر البرونزى الأخير ١٥٤٦ - ١٢٠٠ ق.م •

يمتد هذا العصر من منتصف القرن السادس عشر ق.م حتى أواخر القرن الثالث عشر ق.م، دون أن يتمكن المختصون فى تاريخ فلسطين وآثارها من تحديد نهايته بشكل دقيق، ويتسم هذا العصر بالسيطرة المصرية شبه التامة على بلاد الشام، أثناء حكم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

وباختصار فإن حالة من الاضطرابات قد سيطرت على فلسطين، كما يبدو من مواقع الجنوب والوسط مع بداية الأسرة الثامنة عشرة، أى بُعيّد طرد

الهكسوس من مصر وملاحقتهم حتى (شاروهين) فى جنوبى فلسطين، وتتعلق هذه المرحلة بإعادة التنظيم السياسى والعسكرى فى مصر والمناطق التابعة لها، ومن الواضح أن هذه الحالة لم تدم طويلاً، وأن الحملات التى قادها «أحمس الأول» و«تحتمس الأول» قد انحصرت فى المواقع الجنوبية، ولكنها مهدت الطريق لإخضاع فلسطين وشرقى الأردن وغالبية المناطق الشامية الأخرى، أثناء الحملات العسكرية الأولى لتحتمس الثالث.

ورغم الشهرة الواسعة التى حظيت بها مجدّو لآماد طويلة، إلا أن معركة مجدّو قد زادتها شهرة وذيوع صيت بصفتها تمثل أول تحقيق عسكرى فى العالم لمعركة خاضتها جيوش مصرية، وجاءت تفاصيلها فى الوثائق المصرية، لقد ورد ذكر مدينة مجدّو فى حوليات الفرعون المصرى «تحتمس الثالث» التى تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م، حيث ذكر أنه استطاع عام ١٤٦٨ ق.م، أن يهزم جيشها الكنعانى، وقد وصفها بالقوة والمنعة، وذكر أنها كانت تتزعم حلفًا من عدة مدن ضد النفوذ المصرى فى كنعان «فلسطين» وسوريا، جمع حوله (٣٣ أميرًا) بجيوشهم، وكان سلطان هؤلاء ممتدًا من شمال قطنة إلى بحر الجليل ومجدّو جنوبًا، ولما علم تحتمس بذلك التجمع العسكرى الكبير دعا رجال الحرب والقادة وعرض عليهم الموقف، وكان الوصول إلى مجدّو من ثلاث طرق: أحدها ضيق فوق الحافة عند عارونا، على بعد أقل من ميل من مجدّو، والثانى يتصل بسهل جفتى، والثالث وهو الطريق الرئيس يتاخم المنحدرات الجنوبية الشرقية لسلسلة الكرمل إلى تعنك على بعد ٨كم من مجدّو. وبعد حوار بين تحتمس وأركان حربه أصر على سلوك طريق عارونا

رغم ضيقه (اتساعه نحو عشرة أمتار فى بعض المواقع) واستطاع تحتمس أن يقود جيشه فى هذا الطريق الضيق، الأمر الذى لم يتوقعه التحالف، وعسكر بجوار مجرى قينة، وقد قام عالم المصريات «جيمس هنرى بريستد» بدراسة الخطة الحربية التى وضعها الفرعون للهجوم على مجدّو، والمناورة الحربية التى درب عليها جيشه فى اليوم السابق على المعركة، وقال عنها: إنها خطة متقنة ومناورة ناجحة، ليس لها أية سوابق فى تاريخ الدول الأخرى، وتدل على عبقرية تحتمس الثالث كقائد حربى عظيم.

وعندما دارت المعركة خارت قوى جيوش التحالف، وفرت لتحتمى بأسوار المدينة، ومن بينهم ملك قادش وأمير مجدّو، وحوصرت مجدّو لمدة سبعة شهور، تمكن الجيش المصرى بقيادة تحتمس الثالث بعدها من تحقيق نصر حاسم أدى إلى إخضاع الملوك الكنعانيين للسيطرة المصرية لسنوات طويلة. ويقول بعض المؤرخين العسكريين: إن الخطة البارعة التى اتبعها «تحتمس الثالث» فى عبور ممر عارونا هى نفسها الخطة التى اتبعها القائد البريطانى «اللنبى» وفاجأ بها الأتراك فى سنة ١٩١٨م، أى بعد العهد الذى وضعت فيه بنحو ٣٤٠٠ سنة.

وعلى أية حال يستدل من تفاصيل الغنائم التى حصل عليها «تحتمس الثالث» أن مجدّو كانت مدينة عظيمة تتمتع بالثراء والقوة والتنظيم، ومحاطة بالأسوار المنيعة، وذات نظام سياسى واجتماعى متميز، يعرف بنظام حكومة المدينة، فقد ذكر تحتمس أنه استولى على مغانم كثيرة، تتألف من (٢٠٤١ حصانًا) و(٩٢٤ مركبة) منها (٣٢) لها تراكيب مصنوعة من الذهب والفضة، و(١٩٢٩ ثورًا) و(٢٠٠٠) من الماشية الصغيرة، و(٢٠٠٥٠٠) من الحيوانات

الأخرى، و(٢٠٠ درع) وعدد كبير من الأسلحة الثمينة، وصادروا من القصر الملكى (٨٧ ولدًا) و(١٧٩٦) من العبيد الذكور والإناث، وأباريق ذهبية وكمية من الأثاث والتماثيل وأشياء أخرى.

وعن جاذبية هذه الغنائم بالنسبة للسلطة المصرية، يحدثنا الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم: إننا نجد فى قوائم مجدّو ذكر عجلتين مصفحتين بالذهب والفضة، وتسع عشرة عجلة مصفحة بالفضة، وكل ذلك ثراء فوق مستوى الثراء الذى عهده المصريون، وكان فنًا جديدًا عليهم، بل إننا نستطيع أن نلمس فى الكؤوس والأوانى الذهبية والفضية حضارة شعوب فى مستوى الشعب المصرى، وقد اتصلت مصر بأسباب هذه الحضارة الطارئة عن طريق الأسرى والسبايا، الذين كانوا من الصناع والعمال، وامتد أثرهم على كل أنواع الحياة المصرية.

والذى يهمنا فى الأمر أنه باحتلال مجدّو خلصت فلسطين جميعها للسلطة المصرية، وتركزت حملات «تحتمس الثالث» بعد ذلك لإخضاع الممالك والمدن السورية الشمالية، وقد عنى تحتمس منذ البداية أن يعين أمراء جدد يختارهم بنفسه، ويحمل معه إلى مصر أخواتهم وأطفالهم كرهائن، وأما الحقول حول مجدّو فقد عهد بها إلى مزارعين مصريين، وبخاصة تلك النواحى المثمرة التى تزود الجيوش بحصص إضافية لتموينهم.

لكن الأمور لم تستقر للسلطة المصرية فيما بعد، حيث نجد خليفة «تحتمس الثالث» وهو ابنه «امنحتب الثانى» يبدأ حملاته الانتقامية فى السنة الثالثة من حكمه (١٤٤٨ ق.م) وكانت آخر حملاته موجهة إلى مدن مرج ابن عامر

والجليل الغربي وقراهما، التي كانت من مراكز الثورة أيام حكم أبيه، ومن وثائق هذه الحملة رسالة موجهة إلى حاكم مدينة «تعنك» في مرج ابن عامر من قبل «امنحوتب الثاني» يضمنها أمراً بإرسال رجال ومواد مختلفة إلى غزة ومجدّو اللتين كانتا قاعدتين مصريتين.

وتتعلق المرحلة الثانية من العصر البرونزي الأخير بالقرن الرابع عشر ق.م على وجه التقريب، وتضم بذلك رسائل تل العمارنة من النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م، وبشكل خاص أيام الفرعون المصري «امنحوتب الثالث» ١٤٠٢ - ١٣٦٤ ق.م، وخليفته «امنحوتب الرابع» أخناتون ١٣٦٤ - ١٣٤٧ ق.م، وقد تردد اسم «بريديا» في رسائل تل العمارنة كأحد ملوك مجدّو العظام، حيث لم يكن ينافسه سوى ملك شكيم (نابلس) وملك عكا. ويتضح من الرسالتين (٢٤٧ و٢٤٨) حدوث ثورة في مدينة «تعنك» وكان من نتيجتها الإطاحة بملكها «باشداتا» الذي لجأ إلى «بريديا» ملك مجدّو، حيث توجد حامية عسكرية مصرية. والرسالة (٢٥٤) تظهر عداء «لبايا» - ملك شكيم، و«ملكيلي» - ملك جيزر - ويظهر أن نفوذ «لبايا» قد امتد أيام «أخناتون» حتى مرج ابن عامر، وأخيراً وقع «لبايا» في الأسر، عندما هاجم «بريديا» - ملك مجدّو - وأراد إرساله إلى الفرعون في مصر برفقة «زوراتا» - ملك عكا - ولكن الأخير أطلق سراحه مقابل فدية، ولجأ إلى «جنين» حيث تم قتله بتحريض من «بريديا»، وقد أثار إطلاق سراح «لبايا» غضب «أخناتون» الذي أخذ يوبخ «بريديا» - ملك مجدّو - الذي دافع عن نفسه في الرسالة (٢٤٥) وحمل «زوراتا» مسئولية إطلاق سراح المذكور أو هروبه، وأعلن أنه

مازال مواليًا ومطيعًا للفرعون.

على الرغم من أن الفترة التى تلت فترة العمارنة حتى عام ١٣٠٦ ق.م، كانت فترة غير واضحة المعالم تاريخيًا، إلا أننا من خلال الشذرات التاريخية التى وفرتها لنا تلك الفترة نستطيع أن نستشف أن مجدّو لم تفقد مكانتها كواحدة من أهم المدن الكنعانية، يدل على ذلك ورود ذكرها ضمن قائمة المدن التى وردت فى حملة «سيتى الأول» ١٣٠٦ - ١٢٩٠ ق.م، التى تضمنت سبعة عشر موقعًا، وتكرر ذلك فى حملة قادش فى عهد «رمسيس الثانى» ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م، وظل ذكرها يتردد فى وثائق ملوك مصر اللاحقة حتى نهاية العصر البرونزى الأخير.

أما عن العمارة فى هذه الفترة فقد واكب بداية هذا العصر القضاء على آخر ملوك الهكسوس عام ١٥٦٧ ق.م، ثم حملات «تحتمس الثالث» على بلاد الشام، وقد رافق ذلك كله اختفاء التحصينات القوية المنسوبة إلى الهكسوس، وخصوصًا فى جنوب فلسطين، أما مواقع الشمال فيبدو الوضع فيها مختلفًا، إذ نجد موقع مجدّو قد انتعش بسرعة، أو استمرت سكناه بُعَيْدَ القضاء على الحكم الهكسوسى.

كانت مجدّو فى هذا العصر قد بدأت مكانتها السياسية تتضح أكثر من أى وقت مضى، لتصبح أساسًا للحكم السياسى ضمن ما يسمى بدويلات المدن، وقد تم تخطيط المدينة وبناؤها بما ينسجم مع هذا المفهوم، من حيث المرافق التحصينية والسياسية والدينية والمدنية، حيث تم تسوير المدينة وتضمينها مرافق عامة كالقصور والمعابد وغيرها.

وقد عثر فى مجدّو على قصور أمرائها الذين كانوا خاضعين لفراعنة مصر، وهى أقرب إلى البيوت الكبيرة، مثل القصر الذى اكتشف فى مجدّو بالقرب من بوابة المدينة، مؤلف من قاعة كبيرة تؤدى إلى عدد من الغرف، أقيمت حول جدران القاعة الرئيسة الشمالية والغربية، أما المدخل فكان على الجبهة الجنوبية. وتبلغ أطوال القصر (٥٠ × ٢٥م)، وعثر فيه أيضًا على مجموعة نفيسة من الآثار والعاج.

أما المعبد الذى اكتشف فوق أنقاض العصر البرونزى الوسيط فيتألف من قاعة كبيرة مستطيلة، توجد فى آخرها فجوة، خصصت للآلهة وللرموز الطقسية، ومن غرفتين كانتا تقومان عند المدخل يحتمل أنهما كانتا لسدنة المعبد.

وتم الكشف عن أعداد كبيرة من البيوت التى تضم ساحة أقيم حولها مجموعة من الحجرات (٢ - ٤ حجرات)، والتى كثيرًا ما تتوسطها أعمدة تدعم السقف، وتحتوى الساحة عادة على بركة لجمع المياه، ومرافق الخزن والطهى، وقد شيدت هذه البيوت من الحجارة أو الآجر الطينى أو كليهما، أما حفر التخزين فهى غالبًا ما تكون مقصورة ومقطوعة فى الأرض على شكل مجموعات وكأنها تخدم أغراضًا جماعية.

ومنذ عام ١٥٠٠ ق.م أصبحت مجدّو تستخدم نوعًا من الفخار عليه زخارف من لونين بأفاريز مقسمة إلى حشوات تشبه الأفاريز المعمارية، والزخارف فى داخل الحشوات تتجه فى معظمها نحو الطيور والسمك والأشكال الهندسية، كما عثر فى مجدّو على كميات من الفخار الملون الذى غالبًا ما يكون مستوردًا من قبرص والمناطق الإيجية الأخرى، وتشير اللوحات

الطينية من تل مـرديخ (عبلا) إلى وجـود علاقات تجـارية مع العديد من المدن الفلسطينية وفى مقدمتها مجدّو، مما يدل على ثراء المدينة فى ذلك العصر، وقد عثـر تحت أنقاض أحد قصـور مجدّو على مـقادير كبيـرة من الحلى والقلائد الذهبية والخواتم، ومقـادير من الخرز والحجر اللازوردى والزجاج الملون وتحف أخرى.

وأخيراً مما يجدر ذكـره هنا قبل ختام الحديث عن هذا العصـر أنه كان يتبع مدينة مجدّو مجموعة من القـرى الزراعية، وكانت تضم مرافق أخرى صناعية لدعم الحياة المدينية.

• العصر الحديدى وبداية التلفيق التوراتى •

عوداً على بدء، عـوداً إلى عملية اختلاق تاريخ يـهودى لمجدّو وإسكات تاريخـها الفلسطينى، وهى أخطر عـمليـة تلفيق ارتكبت فى حق هوية مـدينة مرتكبوها هم الآثاريون التوراتيون الذين نسبوا مجمل الحضارة المادية للمدينة فى العصـر الحديدى إلى الشراذم اليهـودية، دون توفر أى برهان آثارى أو تاريخى على ذلك، إلا نص أسطورى اختلقته مخيلة كتاب توراتهم التى تذكر فى سفر الملوك فى الإصحاح التاسع أن الملك سليمان التـوراتى قد اتجه نحو إعمار عدة مدن كنعانيـة منها مجدّو، وتلقف الآثاريون التـوراتيون هذا النص، وبدأوا فى عمليات التنقيب المسـعورة للبرهنة على صحته، وإثبات أنه حقـيقة تاريخية لا جدال فيها، وشغلوا أنفسهم بضراوة بالعصر الذهبى للملك سليمان فى مجدّو بالمخططات التفصيلية لأسواره وقصـوره فيها، وياسطبلاته، وأولوا هذه عنايتهم الفائقة، فأسهـبوا فى حسن بنائها وبهاء أرضياتها وممراتها وأعـمدتها، إلى غير

ذلك من الآراء المبنية على مفاهيم توراتية.

وقد كفانا «زئيف هرتسوج» مؤونة الرد على هذه المفاهيم، وقد أوردنا رده فى بداية الدراسة، وهو رأى لم ينفرد به وحده، بل سبقه إليه الكثير من العلماء أمثال «توماس طومسون وكيث وايتلام» وغيرهما. ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتبهم. ونكتفى هنا لضيق المقام بشهادة واحدة وردت فى كتاب طومسون حيث يذكر: أنه فى السنوات الأخيرة بدأ الإجماع على فكرة وجود مملكة داود يتداعى تدريجيًا، ويمثل هذا الاتجاه «ليتش» الذى قدم نقدًا حادًا للاستخدام التاريخى لهذه الروايات من منظور إنثروبولوجى بنائى، أما الفكرة الرئيسة المهيمنة فى عمله، فهى أن التوراة العبرية باعتبارها نصًا مقدسًا، ليست مرجعًا ولا تعكس بالضرورة الحقائق التاريخية، بل إن التوراة فى نظره تبرير للماضى يكشف عن عالم القصص الخيالية أكثر مما يكشف عن أية حقيقة تاريخية. وأسئلته المهمة للغاية تثير الشكوك حول التصورات التقليدية لحكم كل من داود وسليمان... ويشترك معه فى آرائه هذه كل من «غاريبنى وفلاناغن» وغيرهما.

أما وقد استوعب القارئ الأمر أكثر من أى وقت مضى، فلن يبقى لديه أى شك ببطلان أى ادعاء لليهود فى مجدّو، وأن ما فعلوه إنما هو مجرد نسب مادة حضارة لمجموعة بشرية ليست لها أدنى علاقة بها، وأن مجدّو ظلت كنعانية تحتفظ بقوتها وأهميتها عبر العصور. أما عن تاريخها السياسى فى العصر الحديدى القديم ١٢٠٠ - ٩٣٠ ق.م، فقد ظلت مجدّو تقوم بدورها المتميز فى هذا العصر، والأدلة على ذلك كثيرة ومتلاحقة نقابل أحدها على

بوابة من بوابات معبد الكرنك، حيث نُحتت أسماء الأمراء السوريين الذين أسرهم «رمسيس الثالث» ١١٨٤ - ١١٥١ ق.م، وسجنهم فى قلعة مجدّو. ثم إن التمثال البرونزى المحفور الذى يربطها مع «رمسيس السادس» ١١٤٢ - ١١٣٥ ق.م يومئ بأن المدينة بقيت تحت السيطرة المصرية حتى عام ١١٠٣ ق.م، فى الأقل.

وفى هذا العصر نظم أحد فراعنة الأسرة الثانية والعشرين «شيشنق الأول» ٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م، حوالى سنة ٩٣١ ق.م حملة عسكرية على فلسطين، فأخضعها للجزية، وقد دون تفاصيل حملته هذه على حجر نصبه فى معبد آمون بالكرنك، وأهم ما يتضمنه قوائم طوبوغرافية لأهم المدن الفلسطينية التى أخضعها ومنها مجدّو التى عثر فيها على جزء لوح كبير عليه اسم «شيشنق الأول» مما يؤكد ما جاء فى حجر معبد آمون.

• العصر الحديدى الوسيط والحديث ٩٣٠ - ٥٨٦ ق.م •

وحتى الآن نجد مدينة مجدّو تحتفظ بكامل سماتها العربية الكنعانية الفلسطينية، إلا أنها منذ القرن التاسع ق.م وأيضًا الثامن بدأ النفوذ المصرى عليها وعلى غيرها من مدن الشمال بالانحسار، وحل محله فيما بعد النفوذ الآشورى، مع الأخذ بعين الاعتبار أن التواصل الحضارى بين العراق وفلسطين يعود إلى قبل هذا القرن بقرون عديدة.

إن من أهم مظاهر الاحتكاك الحضارى أن اللغة الأكادية أصبحت اللغة الرسمية الدبلوماسية فى كل من العراق وبلاد الشام ومصر من حوالى القرن

السابع عشر ق.م، وحتى الثامن ق.م تقريبًا، ومنها انتقلت الديانة والتجارة والمناحى الثقافية، بما فيها تشريعات حمورابى إلى بلاد الشام، كما وجد فى طبقة التنقيبات الثامنة فى مجدّو أربعون سطرًا من ملحمة جلجامش، كتبت باللغة الفينيقية، وهذا نتاج للتأثير الكبير الذى لعبته ثقافة العراق فى بلاد الشام.

وقعت مجدّو فى يد الملك الآشورى «تجلات بلاسر» ٧٤٢ - ٧٣٨ ق.م، الذى قيل إنه اجتاح فلسطين ووصل إلى مدينة العريش، وأنه استمال بعض حكام وملوك المدن الفلسطينية بعدما كان ولاؤهم لفرعون مصر، وقيل إن مجدّو أصبحت فى عهده عاصمة المقاطعة الآشورية فى فلسطين، حيث كانت هذه المقاطعة تضم مرج ابن عامر والجليل. وتفيد الحوليات الآشورية أن الملك الآشورى «سرجون الثانى» ٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م، قام باجتياح فلسطين واحتل مجدّو، ووصل إلى غزة ورفح. وتذكر الوثائق المصرية أن الفرعون المصرى «طهراقا» ٦٩٠ - ٦٦٤ ق.م، قد بدأ ينظم المقاومة ضد الآشوريين فى فلسطين بتعاون مع أمرائها ومنهم أمير مجدو، ويقال: إنه حقق انتصارًا على الآشوريين سنة ٦٧٤ ق.م، وجعل أمراء فلسطين ينضمون إليه تباعًا.

ويستفاد من الوثائق المصرية أن مصر انتهزت فرصة تقسيم الإمبراطورية الآشورية، فتقدمت صوب العراق بقيادة الفرعون المصرى «نكاو الثانى» ٦١٠ - ٥٩٥ ق.م، وتشير الحوادث فى ذلك الوقت إلى وقوع معركة مجدّو سنة ٦٠٩ ق.م، وحسب رأى بعض الباحثين أنه قد تم تدمير المدينة على يد «نكاو» هذا، وقد هجرها أهلها وسكنوا أسفل التل.

أما عن عمران المدينة فى هذا العصر، فقد حافظت مجدّو على تقاليدها

العمرانية التى كـانت سائدة في العصر البرونزي الأخيـر، مع ميل إلى البساطة بسـبب الظروف السيـاسـية التى أحـاطت بفلسطين، وأفـسحت المجـال إلى التأثيرات المعمارية القادمة من سوريا الشمالية وفينيقية.

ويستدل من المكتشفـات الأثرية التي ترجع إلى ذلك العصر أن المدينة كانت مسورة، مع ما يرافقها من مبـان سكنية وعامة ومرافق تخزين، وفي السور من الناحية الشمالية بوابة تؤدى إلى غرف جانبية فى الداخل، وربما تعود البوابة إلى القرن العاشر ق.م، وتم العـثور في مجدّو علي مبان أخر منهـا قصر الحاكم، وهو محـاط بسور مربع تقـريبًا يبلغ طول جانبـه حوالي ستين مـترًا، وطرازه فينيقى، يتـميز باستعمال كـتل مستطيلة قليلة العرض من حجـر منحوت نحتًا جيدًا، مرتبة فى مجموعات من حجرين أو ثلاثة أحجار مرصوفة مرة بالعرض ومرة بالطول على التبادل.

إلا أن أهـم ما عثر عليه فى مجدّو هو اسطبـلاتها، اكتشفها الآثارى «غاى» فى عـام ١٩٢٨، وهى تتسـع لأكثـر من (٤٥٠ حـصانًا) في وقت واحـد، وكانت مبنية أحـسن بناء، وكانت أماكن وقوف الخيل مرصـوفة بالزلط لضمان عدم تزحلقها، أما أرضية الحـوش فكانت مكسوة بطبقة من الجير، وكانت كل وحدة بالإسطبل تـتألف من ممر فى الوسط يبلغ عـرضه حوالى ثلاثة أمـتار، وعلى جانبى الممر صـفان من الأعمدة الحجرية التى كانت تسـتعمل فى نفس الوقت كقوائم لربط الخيل ودعامات لحمل السقف، ويقع بعد الأعمدة جناحان للخيول، كل منهـما ثلاثة أمتار، وكانت كل من هذه الوحـدات تتسع لحوالى ثلاثين حصانًا.

ومن أهم ما عثر عليه في مجدّو من آثار هذا العصر مجموعة رائعة من القطع الفنية العاجية يبدو أنها تأثرت بالأعمال الفنية الكنعانية المنقولة عن أصول مصرية من عصر الرعامسة، وعثر أيضًا على عدد من تيجان أعمدة مربعة من الحجر الجيرى من طراز ما قبل الأيونى، بالإضافة إلى مجموعة غنية جداً ومتنوعة من أثاث العبادة الدينية من الطين والحجر.

• عصور الاضمحلال •

لم نعد نسمع إلا اليسير عن مجدّو بعد تدميرها على يد «نخاو»، وتبقى معلوماتنا التاريخية الموثقة عن فلسطين في العصرين البابلى الجديد والفارسى قليلة ومبعثرة، وكل ما نعلمه أن غالبية مواقع العصر الحديدى قد بقيت فيها مخلفات للعصر الفارسى، غير واضحة المعالم، وتشير بشكل عام إلى تدهور فى الحياة العمرانية والاقتصادية، حين أصبحت المدن تفتقر إلى التنظيم الذى عهدناه فى المراحل السابقة، ويظهر أن أعلى طبقة فى مجدّو تمثل مجموعة من مبانى العصر البابلى الجديد التى أعيد استعمالها فى العصر الفارسى، وأرخها المنقبون للفترة ما بين ٦٠٠ - ٣٠٠ ق.م، ويبدو من هذه الآثار وغيرها، كالنقود التى عثر عليها في موقع مجدّو، وتعود إلى القرنين الخامس والرابع ق.م - أن موقع مجدّو ظل عامراً بالسكان طوال العهدين الفارسى واليونانى، ولكن ليس كالعهود السابقة. وربما أصبحت مجدّو فى هذين العهدين مجرد قرية، ثم عادت لها بعض مكانتها في العصر الرومانى. نتبين ذلك من خلال شذرات مبعثرة جادت بها بعض المصادر التاريخية الرومانية، ويستفاد منها أن الإمبراطور الرومانى «مكسيمانوس» ٢٨٦ - ٣٠٥م قد أسس مدينة فى سهل

مرج ابن عامر مكان مجدّو أو قربها، وأطلق عليها اسمه «مكسيمانوبولس».

• مجدّو.. الدخول فى دائرة الأساطير •

وشاء القدر أن يكون هذا العهد «الرومانى» آخر عهد لمدينة مجدّو بالعمران، وآلت على نفسها إلا أن تغط بسلام فى سبات عميق، لم يعكر صفوه إلا ضجيج كتبة التوراة، حين بهرتهم شهرة المدينة الفائقة، فتفننوا فى سبيل إدخالها فى دائرة الأساطير التى تضمنها مسخهم التوراتى، وبالتالى سلب سكان البلاد الأصليين واحدة من أهم منجزاتهم الحضارية، فوصلوا تاريخها كذبًا بيشوعهم المزعوم، ثم ببراق ودبورة، بل نراهم يتمادون في غيهم إلى حد أن ينسبوا مجمل حضارتها المادية فى العصر الحديدى إلى ملك هو من مبتكرات خيالهم. إلا أن تعكير الصفو كان قد بلغ مداه حين انهالت معاول علماء الآثار التوراتيين على بقايا المدينة، ولا شاغل لهم إلا إثبات تاريخانية الأساطير مهما كلفهم ذلك من جهد ومال. ويمكن للمرء أن يتصور قيمة المليون دولار ما بين عامى ١٩٢٥ - ١٩٣٩، والمغزى من إنفاقها على موقع أثرى واحد من بين آلاف المواقع. وبلغت المأساة أو قل - إن شئت - الملهاة ذروتها حين راحوا يروجون أن مجدّو أو هرمجدون ستكون مسرح معركة هائلة يكون فيها النصر حليفًا بالطبع لليهود ومن والاهم.

وهرمجدّون أو أرمجدّون. . لفظة عبرية معناها تل أو جبل مجدّو، وقد ورد ذكرها مرة واحدة فى العهد الجديد: «ويجتمع فيه كافة ملوك الأرض فى يوم قتال الرب» (رؤيا يوحنا ١٦ : ١٦)، وهرمجدّون هى الصورة المجازية الأساسية فى العقائد الألفية الاسترجاعية البروتستانتية، ووجدت قبولاً لها فى

نفوس أصحاب الخطاب التوراتى، وهى فكرة قديمة ربما تعود بأصولها إلى عصر النهضة، حين بزغ تيار الحرفيين الذين يصرون على نبوءات تاريخية، لابد وأن تتحقق بحذافيرها.

وخلال القرن العشرين استطاع أصحاب الخطاب التوراتى التغلغل داخل حركات المسيحية الأصولية الأمريكية، لدرجة أن هذه الأوساط أصبحت تؤمن إيمانًا راسخًا بحتمية هدم المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان المزعوم فى نفس مكانه، تمهيدًا لمعركة تخوضها قوى الخير (وعلى رأسها أمريكا) ضد قوى الشر (المسلمون ومن والاهم) فى موقع مجدّو، وبعدها يأتى المسيح ليحكم ألف عام سعيد.

إن أصحاب الخطاب التوراتى، قد نجحوا فى الوصول بأول رئيس أصولى إلى البيت الأبيض عام ١٩٧٦ وهو «جيمى كارتر»، وعندما لم يحقق ما هو مطلوب بالحرف، انتخبوا «ريجان» عام ١٩٨١ وقصصه مع النبوءات والعرافين غير خافية على أحد. والأخطر فى الموضوع اقتراح أصحاب النظرية المعاصرين دفع الأمور فى اتجاه حرب عالمية ثالثة، حتى يظهر فى نهايتها الشخص المتجبر (المسيح الكاذب) المعادى للمسيح، وفى هذه الفترة يكثر أتباع المسيح، وتؤمن به معظم الأمم، بعدها يقود معركة هرمجدّون، يملك العالم ألف عام فى ظل هذا الحكم سيكون لليهود مكانة أعظم، ويعاد بناء الهيكل.

إنهم دون ريب يستطيعون ذلك ما دام العالم لاهيًا عنهم، منشغلاً عن مقاصدهم، متعاميًا عن مؤامراتهم، بل متآمرًا معهم بواسطة بعض الزعماء، عن طيش ورعونة وجهل.

إن الأمر جد خطير لا هزل فيه، فالاستيلاء على الأرض وإبادة سكانها بحد السيف إنما هى شريعة إلهية، والويل لبنى إسرائيل إذا هم خالفوا الشريعة. وغير خاف على أحد أن غاية الصهيونية الآن هى تمثيل هذه المأساة بكل فصولها من حيث إبادة السكان، وسوف نكرر هنا، ولن نمل من التكرار:

إن إسرائيل هى الاستيطان والإحلال والاجتثاث والإبادة، أطماعها الإقليمية معلنة بلا مواربة، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة: «من النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل»، وهو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة وهدف إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف، ولن يتسنى لها ذلك إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها، إما بالطرد وإما بالإبادة، وبطبيعة الحال فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة، ونحن بهذا إزاء أخطبوط وسرطان فى آن واحد، إزاء عدوان آنى واقع، وعدوان سيقع فى أى آن، فماذا نحن عسانا فاعلون؟

• المراجـــع •

١ – د. معـاوية إبراهيم، الموسوعـة الفلسطينية، القـسم الثانى، المجلد الثـانى، بيروت، ١٩٩٠.

٢ – توماس طومسـون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلى، ترجمـة صالح سوداح، دار بيسان للنشر، بيروت، ١٩٩٥.

٣ – إدوارد كيـيرا، كتبـوا على الطين، ترجمة د. مـحمود حسـين الأمين، دار المتنبى، بغداد، ١٩٦٤.

٤ – هنرى عبود، معجم الحضارات السامية، مطبعة جروس برس، لبنان، ١٩٩١.

٥ – لفيف من العلماء، الموسوعـة الأثرية العالمية، ترجمة د. محمد عبـد القادر محمد، ود. زكى إسكندر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

٦ – كاثلين كنيون، الكتـاب المقدس والمكتشفات الأثرية، ترجمـة د. شوقى شعث، دار الجليل دمشق، ١٩٩٠.

٧ – د. رشيد الناضـورى، جنوب غرب آسيا وشـمال أفريقيا، مكتـبة الجامعـة العربية، بيروت، ١٩٦٨.

٨ – آلن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميـخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

٩ – د. أحمـد قدرى، المؤسسة العـسكرية المصرية فى عصـر الإمبراطورية، ترجـمة د. مختـار السويفى، ومحـمد العزب موسى، مطبـعة هيئة الآثار المصـرية، القاهرة، ١٩٨٥.

١٠ - د. عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.

١١ - جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودى، الأهلية للنشر والتوزيع، عمار، ١٩٩٨.

١٢ - أرنولد جونز، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة د. إحسان عباس، دار الشروق عمان، ١٩٨٧.

١٣ - الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الرابع، دمشق، ١٩٨٤.

١٤ - د. نجيب ميخائيل إبراهيم، الشرق الأدنى القديم (سوريا) دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.

١٥ - د. محمد بيومى مهران، بلاد الشام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠.

١٦ - كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، إسكات التاريخ الفلسطينى، ترجمة د. سحر الهنيدى، مطبعة الوطن، الكويت، ١٩٩٩.

١٧ - قاموس الكتاب المقدس، وضعه نخبة من الأساتذة التوراتيين «الجزء الثانى»، مكتبة المشعل، بيروت، ١٩٦٧.

بيسان.. بناها الفلسطينيون منذ سبعة آلاف سنة وهدمها اليهود عام ١٩٤٨م

مدينة عربية فلسطينية، ليست من أقدم مدن فلسطين فحسب، بل من أقدم مدن العالم القديم وأعرقها تاريخًا، وطوال تاريخها المديد تم احتلالها من قبل شعوب كثيرة، إلا أنها ظلت متمسكة بهويتها العربية - الفلسطينية، حتى كان الاحتلال الإسرائيلى لها عام ١٩٤٨، ففعل بها ما لم يستطع فعله أحد من غزاتها السالفين.

• الموقع والموضع والمناخ •

بيسان من المدن القليلة التى كان لموقعها أثر بارز فى تاريخها، فسهلها يعد حلقة وصل بين وادى الأردن شرقًا وسهل مرج ابن عامر غربًا، وتشرف المدينة على ممر وادى جلود، إحدى البوابات الطبيعية الشرقية لسهل مرج ابن عامر، وتشرف أيضًا على الأجزاء الشمالية من وادى الأردن. ولا غرابة إذا ارتبطت بيسان بشبكة مهمة من طرق المواصلات، وقد جذب موقعها الأنظار إليها، فكانت محطة تتجمع فيها القوافل التى تسير بين الشام ومصر، وكانت معبرًا للغزوات الحربية بينهما أيضًا، واستطاعت بمرور الزمن أن تغرى كثيرًا من التجار والغزاة بالاستقرار فيها. وإذا كانت الطرق قد أسهمت فى نشأة بيسان الأولى، فإن المدينة أصبحت فيما بعد عاملاً رئيسًا فى جذب الطرق إليها، وغدت متصلة بالأقاليم المجاورة بشبكة حيوية من الطرق المهمة.

ويجمع الموضع الحالى لبيسان بين مواضع قديمة وأخرى حديثة، أما المواضع القديمة فتتمثل فى الخرائب القديمة التى تشتمل عليها بعض التلال المحيطة ببيسان. ففى الجهة الشمالية من بيسان يوجد تل الحصن وتل المصطبة، وفى الجهة الشمالية الغربية يحيط بالمدينة تل الجسر وتل بصول وتل توميس وتل

الزهرة، وتشتمل هذه الخرائب على بقايا الأبنية السكنية والمقابر وأماكن العبادة والمسارح والميادين والأسوار. أما الموضع الحديث للمدينة فيقوم على هضبة صغيرة (١٥٠م) تمتد فى الغور جنوبى نهر جالود. وتجدر الإشارة إلى أن الموضعين القديم والحديث لبيسان يقومان على تلال من الأرض ترتفع عما حولها من الأراضى المنبسطة داخل غور بيسان، ويعود السبب فى ذلك إلى الرغبة فى تحاشى أخطار فيضان نهر جالود والابتعاد عن المستنقعات من جهة، وإلى استغلال الأراضى المنبسطة فى الزراعة من جهة أخرى. ولعل انتقال الموضع من الشمال إلى الجنوب استهدف فى الأصل درء أخطار الفيضانات والأوبئة عن المدينة، والاستفادة من الأراضى الغورية المجاورة لنهر جالود وقنواته فى الزراعة.

نشأت بيسان فوق موضعها الحديث نسبيًا فى أوائل القرن التاسع عشر، واقتصرت أماكن مبانيها فى بداية الأمر على سطح هضبة بيسان، ثم امتد موضع بيسان نتيجة تطور نموها العمرانى بعدئذ، فضم أجزاءً من أقدام الحافة الغربية للغور وأجزاءً من أراضى الغور المنبسطة. وتنحدر أرض بيسان بصفة عامة من الغرب إلى الشرق. ويجرى نهر جالود - أحد روافد نهر الأردن - شمالى بيسان، ويمر بين تلى الحصن والمصطبة، كما أنه يغذى بعض برك الأسماك بالمياه بفرع له يمر من جنوب بيسان. وتكثر العيون المائية حول المدينة، وهى تسهم مع مياه نهر جالود وفروعه فى رى الأراضى الزراعية المجاورة.

يتأثر مناخ بيسان بموقع المدينة فى الغور، حيث تنخفض أكثر من (١٥٠م) عن سطح البحر، ويتأثر أيضًا بمواجهة بيسان لفتحة سهل مرج ابن عامر

الطبيعية فتصلها مؤثرات البحر المتوسط، وتتأثر بيسان باندفاع الرياح القادمة من الغرب نحوها، ويسبب هذا الاندفاع من المرتفعات نحو المدينة انضغاط الهواء، وارتفاع درجة حرارة الجو، وإثارة الزوابع والأتربة. وتتأثر المدينة أيضًا ببعض الموجات الحارة في فصل الربيع، عندما تهب عليها رياح جنوبية شرقية محملة بالأتربة. أما الموجات الباردة فإنها تحدث أحيانًا نتيجة هبوب رياح شمالية باردة.

• أقدم مواقع السكنى في منطقة بيسان •

إن حفريات جامعة بنسلفانيا في بيسان تمثل إحدى حملات التنقيب الرئيسة في فلسطين، التي تقوم بها جامعة أمريكية، وقد أشرف على إدارتها «فيشر» في السنين الأولى عام ١٩٢١ - ١٩٢٣، وتعاقب عليها «رو» يساعده «فيتسجرالد» في الفترة ما بين ١٩٢٥ - ١٩٢٨، وواصل فيتسجرالد الإشراف عليها على نطاق أضيق في السنوات ١٩٣٠ - ١٩٣٣، وكشفت الحفريات عن ثماني عشرة طبقة في التل الرئيس، فضلاً عن عدد من المدافن، تمثل هذه مراحل سكنية تمتد من العصر الحجري وحتى الحروب الصليبية.

وتشير المصادر التاريخية والشواهد الأثرية إلى أن منطقة بيسان كانت مأهولة بالسكان منذ العصر الحجري الحديث وحتى العصر الحالي، فموقع «المنحطة» إلى الجنوب من بيسان قد عثر فيه على آثار تدل على سكنى الإنسان لهذا الموقع في العصر الذي أطلق عليه بعض العلماء «العصر الحجري الحديث المبكر ما قبل الفخار» الذي يعود إلى الفترة الواقعة ما بين حوالي ٧٠٠٠ - ٦٠٠٠ سنة ق.م، من هذه الآثار بقايا حيوانية تمثل الماشية والماعز والأغنام والخنازير، مما يدل على أن سكان هذا الموقع قد نجحوا في تدجين الحيوان في ذلك العصر

المبكر، وعثر فى هذا الموقع على نوع جديد من الأدوات يسمى الأوانى المصنوعة من العجينة البيضاء، وقد تميزت هذه الأوانى بأن جاءت فى الغالب كبيرة الحجم، وجدرانها سميكة جداً وسطوحها غالبًا ما تكون مصقولة، وقد اعتمد سكان هذا الموقع على زراعة المحاصيل وتربية الحيوانات المستأنسة.

• نشأة بيسان ونموها •

تُرجع المكتشفات الأثرية الحديثة نشأة مدينة بيسان إلى العصر الحجرى النحاسى، أى إلى حوالى ٤٥٠٠ سنة ق.م، وقد استعمل سكان بيسان الأولى الحجر والطوب فى بناء مساكنهم وتنوعت أدواتهم وأوانيهم الفخارية لتنسجم مع إنتاجهم من الزراعة التقليدية. وقد تطورت بيسان مع نهاية الألف الرابع ق.م، لتشكل مع أخواتها من المدن الفلسطينية ذلك العهد بداية مرحلة التمدن فى فلسطين.

• فى العهد البرونزى القديم ٣٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م •

يبدو أن سكان بيسان فى بداية هذا العهد قد أخذوا فى تزايد مستمر، وأصبحوا يطورون مواقعهم السكنية تدريجيًا، حتى أصبحت مدنًا محصنة ذات طابع مستقل، وأصبح تأسيس المدينة ومرافقها الدفاعية والعامة والسكنية يفرض شيئًا من التخطيط المسبق، وغدت بيسان شأنها شأن العديد من المدن الفلسطينية التى أنشئت فى ذلك العهد، تمثل وحدة سياسية مستقلة أشبه بدويلة المدينة، التى يتبعها عدد من القرى الزراعية، وقد بنى أهل بيسان بيوتهم فى بداية هذه الفترة من الطوب المجفف على أرضية من الحجارة الملساء، وقد خزن أصحاب

البيوت حبوبهم فى جرار كبيرة، واستعانوا بالأخشاب لتشكّل المادة الرئيسة فى سقف البيوت التى كانت تدعم بأعمدة من الخشب أيضًا. وكانت البيوت تتألف من غرفة واحدة قد تلحق بها غرفة أخرى. أما بيوت الأغنياء فمن غرفتين ذات نهاية دائرية. وقد أمكن التعرف على بعض مخططات بيوت الأغنياء والأبنية العامة فى ذلك العهد من خلال التعرف على بناء متكامل تقريبًا فى بيسان، كان يتألف من ثلاث غرف، وربما كان جزءًا من بناء أكبر.

أما معبد بيسان، فكان على شكل قاعة كبيرة مستطيلة مقسمة بواسطة صف من أربعة أعمدة، ومدخل المعبد الرئيس فى الجدار الطويل الشرقى، وقد بنيت جدرانه بمداميك منتظمة أقامت سقفه دعائم خشبية مرتكزة على قواعد حجرية.

وفى المرحلة الثانية من العصر البرونزى القديم استعملت كتل من الحجر الكلسى وضعت بطريقة أفقية، وبنيت المداميك السفلية بالحجارة أحيانًا، وتم بناء الجدران العليا بالطوب المجفف بالشمس وتألفت المونة من الجير أو الحصى الصغير المخلوط بالرمل فى حالة البناء بالحجر، وبالطين فى حالة البناء بالطوب المجفف بالشمس، وطليت الجدران والأرضيات بالطين أو الجص، وأحيانًا كانت الأرضيات ترصف بالحجارة.

أما فى المرحلة الثالثة من هذا العهد (٢٦٠٠ - ٢٣٠٠ ق.م)، فكانت بيوت بيسان تشاد من طابق واحد، أساساتها ومداميكها السفلية من الحجر. أما مداميكها العلوية فكانت من الطوب المجفف فى الشمس، وهنا كانت البيوت فى الغالب مؤلفة من غرفتين تفضيان إلى باحة مكشوفة صغيرة، والغرف مربعة

الشكل تقوم سقوفها على أعمدة خشبية مرتكزة على قواعد حجرية.

وفى المرحلة الرابعة من هذا العهد تعرضت فلسطين إلى قلاقل واضطرابات بسبب هجرات قد ذهب بعض العلماء إلى أنها هى حركة القبائل العمورية، أو إحدى هجراتهم، مما أدى إلى تدنى العمارة فى فلسطين ومنها بيسان.

• العصران البرونزى الوسيط والحديث (٢٠٠٠ - ١٢٠٠ق.م) •

بدأ العصر البرونزى الوسيط فى حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م، واستمر إلى منتصف القرن السادس عشر ق.م، واعتبره العلماء العصر الذهبى لفلسطين من حيث العمران، وفيه بنيت المساكن فى بيسان على نفس النمط الذى كان سائدًا فى المرحلة الأولى من العصر البرونزى القديم. ويعتبر هذا العصر بالنسبة لفلسطين عصر التفاعل الحضارى وبناء المدن والاستقرار، وتميز أيضًا ببناء المدن المحصنة على نمط جديد والأسوار والبوابات الضخمة المائلة، أى أنه شهد تقدمًا كبيرًا فيما يعرف بالعمارة العسكرية، التى تميز بها الهكسوس الذين بسطوا نفوذهم على فلسطين فى الفترة ما بين ١٧٨٨ - ١٥٧٣ ق.م، وتميز حكمهم بالنظام الإقطاعى العسكرى.

ومن الجدير بالملاحظة أن بداية هذا العصر تمثل بداية التغلغل السياسى والعسكرى المصرى أثناء حكم الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن العلاقات التجارية قد شقت طريقها مع مصر قبل ذلك بكثير، وأدى هذا التغلغل إلى السيطرة المصرية شبه التامة، وبشكل خاص على جنوبى فلسطين فى المرحلة الثانية من العصر البرونزى الوسيط والعصر البرونزى الأخير، وأصبحت فلسطين تشكل جسر العبور المصرى لأجزاء أخرى من بلاد

الشام والمناطق الآسيوية الأخرى. ويظهر التأثير المصرى على الحياة اليومية من خلال المكتشفات المتنوعة التى تم استيرادها من مصر أو صنعت فى فلسطين، ومثال ذلك العثور على منحوتات مصرية من هذه الفترة فى العديد من مدن فلسطين ومنها بيسان.

أما العصر البرونزى الحديث، فقد بدأ بالقضاء على آخر ملوك الهكسوس حوالى سنة ١٥٦٧ ق.م، وحملات «تحتمس الثالث» على بلاد الشام حوالى سنة ١٤٨٠ ق.م، وتدلنا المكتشفات الآثارية الحديثة على أن مدينة بيسان قد أصابها بعض الدمار فى هذه الفترة، لكنها انتعشت بسرعة، واستمر سكناها بعد القضاء على حكم الهكسوس.

وقد غدت بيسان فى هذه الفترة أهم المراكز المصرية فى عمق فلسطين، وقد تم تخطيط المدينة وبناء مرافقها بإشراف مصرى مباشر، إذ تم تنفيذ بناء المدينة على النمط المصرى وما فيه من المرافق الدينية والعسكرية، وغالبًا ما تولى الإشراف على بنائها الحاكم العسكرى المصرى (رمسيس أو سرخييش). ولقد بقيت السيطرة المصرية على بيسان قائمة حتى أثناء فترة ضعف الحكم المصرى فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ق.م.

فقد وجد اسم بيسان فى الكتابات الخاصة بتحتمس الثالث فى المعبد العظيم لآمون فى الكرنك، وورد اسمها أيضًا فى رسائل تل العمارنة، كما ورد اسمها فى وصف «سيتى الأول» وابنه «رمسيس الثانى» فى القرن الثالث عشر ق.م.

وأهم ما اكتشف فى بيسان مجموعة من الآثار المصرية تحمل اسم «تحتمس الثالث»، وقد أعاد بعض الباحثين هذه الآثار إلى «أمنحوتب الثالث والرابع»

لكن عالم الآثار «وليم أولبرايت» أرجعها إلى «رمسيس الثانى» بينما أعادها عالم الآثار «مازار» إلى عهد الفرعون المصرى «مرنفتاح».

كما اكتشف «فيشر» مسلة «سيتى الأول» (١٣٥١ - ١٣٢٤ ق.م) وقد كتبت باللغة الهيروغليفية، وتصف انتصار هذا الفرعون على تحالف مدينتى (هاماثا وفحل) اللتين وقفتا ضد تحالف بيسان ورحوب. ويقول الدكتور أحمد فخرى: يقدم النصب التذكارى الذى أقيم فى بيسان، والذى يتضمن سجلاً بأحداث العام الأول من حكم «سيتى الأول» صورة واضحة لاتجاه العمليات الحربية، فنجد أن فرقة آمون وقد وجهت صوب حماه، وأن فرقة رع كانت معسكرة فى بيسان، وهى مركز عسكرى مصرى منذ القرن الخامس عشر ق.م، كما عثر على عدد من القبور المصرية المنحوتة فى بيسان، ويرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الثالث عشر ق.م.

وتذكر عالمة الآثار «كاثلين كينيون» أن العنصر الأساس فى معابد بيسان فى هذه الفترة كان صالة الاجتماعات مع غرفة مرتفعة الأرضية تضم المذبح فى أحد الأطراف، وأكثر ما يلفت النظر من أبنية العبادة المزارات وأقمعة الإراقة وأشكال الثعابين والحمام التى تتكرر مكونة الزخرفة، وتعتبر كرموز لرب الأرض، أما الدمى الصغيرة فهى دلالة على عبادة عدد مختلف من الأرباب، تضم بعض الدمى المتأثرة بالدين المصرى.

• فى العصر الحديدى ١٢٠٠ - ٥٥٠ ق.م •

فى نهاية العهد البرونزى الحديث ومطلع العهد الحديدى كانت فلسطين مسرحًا لعدد من الصراعات الداخلية والخارجية، فقد تعرضت لغزوات جديدة

من أهمهـا تلك التى جاءت من البحـر من قبل شعـوب عرفهـا التاريخ باسم شعوب البحر، ومن أهم فروعهـا جاءت لفلسطين «الفلستر أو الفلستين» الذين حملت البلاد اسـمهم فيمـا بعد، وقد اعتبـرهم البعض على أنهم من سكان فلسطين أصـلاً، وامتـزجـوا بمجمـوعات شـعـوب البحـر، الذين أثروا فى حضارتهم وأدخلوا عليها موادًا وعادات جديدة أصـبحت متميزة فى الكثير من مواقع الساحل الفلسطينى الجنوبية، واعتبر الفلسطـينيون أنفسهم حلفاء شرعيين للسلطة المصرية على فلسطين، وسيطروا على معظم أجزائها ومنها بيسان، فقد دلت الاكتشافات الأثـرية على أن الفلسطينيين قد أقاموا مراكز استـراتيجية فى سـهل مرج ابن عـامر ووادى الأردن خـصوصًـا فى بيسـان. ومما يدل على تواجدهم فيهـا تلك التوابيت الفخارية الفلسطينية التى تعـود إلى القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق.م.

وفى هذا العهد حافظت العمارة فى بيـسان على تقاليدها التى كانت سائدة فى العـصر البـرونزى الحديث، مع مـيل إلى الانحطاط بسـبب الظروف التى أحاطت بفلسطـين، أما المبانى العـامة التى كشف عنهـا حتى الآن فمـحدودة للغاية، وأهمها مـعبد بيسان، حيث لا يزال التأثير المصـرى واضحًا من خلال التفاصيل المعمارية والكتابات الهيروغليفية.

أما تاريخ بيـسان السيـاسى فى هذه الفترة فالـتوراة هى مصدره الوحـيد، واعتماد المؤرخـين المعاصرين عليها دون غيرها من شأنه الخـروج بتاريخ مشوه ومبتور لبـيسان وغيرها من مدن فلسطين. وعلى أية حال، فـباعتراف الزيف التوراتى عجـز يوشع بن نون عن ضم هذه المدينة إلى بنى قومه، كـما أنها لم تصبح فى أى يوم من الأيام مدينة يهودية، وقد أيد علم الآثار ذلك.

• من بيت شان إلى سكيثوبوليس •

ظلت بيسان أو بيت شان تحتفظ باسمها العربي هذا الذى أطلقه عليها بناتها الأولون حتى عصرها اليونانى، حيث أطلق عـليها اسم «سكيثوبوليس» وظهر هذا الاسم واضحًا فى معظم الوثائق التى تعود إلى العصر اليونانى، وربما يعود هذا الاسم إلى فترة سابقة على هذا العهد، واسم «بيت شان» يعنى: بيت الإله شان أو بيت السكون. أما «سكيثوبوليس» فيخـتلف العلماء حول تفسير سبب اتخاذ هذا الاسم، إذ يرى فريـق منهم معتمداً على رواية كـاتب إغريقى يدعى «سكونيللوس» بأن هذه التســمية ترجع إلى أنهـا كانت مدينة للسكيثـيين الذين غزوا فلسطين خلال القرن السابع ق.م، والسكيثيون أو الإشكوز، كما يلقبهم الآشوريون، شعب اختلف فى أصله، كـان يسكن قبل القرن السابع ق.م بين نهرى الدانوب والدون فى جنوبى روسـيا، وانتشر فى القرن الســابع فى معظم أنحاء الشام، وعنهم قال «هيرودوت»: إن «بسماتيك» الفرعون المصرى، أرجع هؤلاء الغزاة ببعض الـنقود والهدايا، ونجى وطنه بهذه الطريقـة، وكانوا قد أتوا من الشمال بعدما زحفوا على آشــور واقتربوا من حدود مصر، لكن المرجح أن بسماتيك كان قد قهرهم حقًا.

ويذكر «جـونز» أنه من المحال علينا أن نعرف أية أسطورة أدت إلى اخـتيار اسم «سكيثـوبوليس»، وليس ثمة سـبب يجعلنا نؤثر تفـسير «سـونكيللوس» المصبوغ بمسـحة عقلية، إذ يربط الاسم بغـزو السكيثيين التـاريخى لسوريا فى القرن السابع ق.م، نؤثره على التفسير الأسطورى الصريح الواضح الذى قدمه «ميللاس»، إذ يعزو تأسيس المدينة إلى سكيثـيين من مدينة طوروس، صحبوا «فجنايا» فى تجوالـها. أما «بلليني» فيربط هذا الاسم بديـنسيوس» الذى أسكن

أتباعـه السكيثيين هنالك، وقـال بعضهم: إن الاسم مـشتق من القرية البعـيدة «سكوث»، وقد كان «دينسيوس» هو الإله الرسمى لهـا، طبقًا للاعتماد السائد بين العلماء، وقد وجد له معبد هناك.

• بيسان وعلاقتها بالآشوريين والكلدان والفرس •

أما عن علاقة بيسان بالآشوريين فالمعلومات التى بين أيدينا شحيحة فى هذا الشأن، وكل ما نعرفه أن «سرجـون الثانى» قد هاجم السامرة سنة ٧٢١ ق.م، وأنه وصل إلى غـزة ورفح على حـدود مـصـر، وفى سنة ٧١٥ ق.م أرسل سرجـون حمـلة إلى فلسطين وحدود مـصر، وفى سنة ٧١٢ ق.م أخـضع فلسطين ثانية وجعلها مقاطعة آشورية، كـما اجتاحها خلفه سنحاريب فى سنة ٧٠١ ق.م، وظلت المدن الفلسطينية تدفع الجزية بانتـظام إلى «نينوى» عاصمة الآشـوريين حتى سـقوطهـا سنة ٦١٢ ق.م بيـد الدولة الكلدانيـة أو البابليـة الجديدة. ويقال: إن مدن فلسطين ومنها بيسـان لفترة قصيرة بقيت تدين بالولاء للحكم الكلدانى وتدفع له الجزية.

ويشهـد منتصف القرن السـادس ق.م سقوط الدولة الـكلدانية، ودخلت فلسطين بذلك عهـدًا جديدًا تحت سيطرة الفرس، وتبـقى معلوماتنا التـاريخية الموثقة عن فـلسطين فى العهد الفـارسى قليلة ومبـعثرة، ولا زالـت المعلومات المتعلقة بالتنظيمات الإدارية والأوضاع الاجتماعية مستمدة من التوراة.

• بيسان فى عهودها اليونانية والرومانية والبيزنطية •

فتح الإسكندر الأكبر المقدونى بيـسان فى سنة ٣٣٢ ق.م، وبدأت فيها منذ ذلك الوقت الحضـارة الهلينستيـة، وقد عنى بهـا البطالمة والسلوقيون واهتـموا

بهلينيتها، وفي عام ٢١٨ ق.م سلمت هذه المدينة بمحض إرادتها إلى «أنطيوخس الثالث»، ولما كانت خاضعة للحكم البطلمي في مصر أقام فيها البطالمة حصنًا وبنوا قلعة، وكانت قبل احتلال الحشمونيين (المكابيين) البغيض لها وإحراقها على يد «الإسكندر يانيوس ١٠٣ - ٧٦ ق.م» من أكبر المدن الهلينستية في فلسطين. ولم يرجع لها ازدهارها إلا في العهد الروماني، الذي يعد من أزهى عهودها، فقد حررها القائد الروماني «بومبي» سنة ٦٤ ق.م من حكم الحشمونيين، فاستقبلت هذا القائد بحفاوة، وبادلها هذه الحفاوة بجعلها مستقلة مرة أخرى، وقد أعاد «غابينوس» - ممثل بومبي في فلسطين - بناء بيسان، فأعاد إليها سابق عزها. وبالرغم من وقوعها غربي نهر الأردن، فإنها كانت إحدى المدن العشر المتحدة «ديكابوليس» واتضح هذا من قول المؤرخ «يوسيفوس» الذي أشار بأنها من أكبر مدن تلك المجموعة ورئيستها.

وقد تركت المدن العشر في هذا العهد مستقلة، بحيث تحتفظ أيضًا بما كان بينها من تعاون قوي دفاعي واقتصادي. وفي هذا العهد كانت الأراضي التابعة لبيسان واسعة جدًا، وكان خصب منطقتها مضرب الأمثال، واشتهرت بالنخيل والتين والحبوب والزيتون، وكان بها معاصر كبيرة له وللعنب، فأنتجت كميات كبيرة من الزيت والخمور، واشتهرت أيضًا بملابسها الكتانية، وأصبحت بيسان في هذا العهد مركزًا تجاريًا مهمًا، تمر منها القوافل التجارية في طريقها إلى الأردن. وقد عبد «هادريان» (١١٧ - ١٣٨م) الطريق بين بيسان واللجون. ولا تزال الشواهد على هذا الازدهار ماثلة في بيسان، حيث توجد بقايا مدرج لا يزال يحتفظ بملامحه الأصلية، ولا تزال قناطر الجسر الروماني فوق نهر الجالود، وأيضًا بقايا لهياكل وأروقة ومسارح وميادين لسباق الخيل.

وأصبحت بيسان فى العهد البيزنطى سنة ٣٢٥م مركزًا لأبرشية كان لممثلها فى مجمع نيقية الدينى دور بارز، وكان لـها فى هذا العهد إدارتها الذاتية الحرة، وأهم امتيازاتها سك النقود، وكانت عاصمة لمقاطعة فلسطين الثانية، التى شملت بالإضافة إلى بيسان، الجليل، وأم قيس، وطبرية. ومن آثارها فى هذا العهد التى لا تزال قائمة دير يتألف من ثلاث غرف.

• بيسان منذ الفتح العربى حتى الحروب الصليبية •

فى أواخر سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م حاصر المدينة «عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة» وفتحاها صلحًا، وفى رواية أن شرحبيل هو الذى فتحها وحده بعد أن حاصرها أيامًا، ولما خرج بعض من فيها لقتال المسلمين قاتلهم وهزمهم ففتحت أبوابها لفرسان المسلمين، وكان لصلح بيسان طابع خاص، فبالإضافة إلى فرض الجزية على رؤوس أهلها، والعين (المحصول) على الأرض كان المسلمون يشاطرون أهلها المنازل، فيجتمع أهلها فى نصف المدينة ويترك النصف الآخر للمسلمين، كذلك حدد موضع المسجد للمسلمين، وقد بقيت شهرة خاصة لبيسان فى تاريخ المسلمين بسبب وجود قبر الصحابى الكبير أبى عبيدة ابن الجراح - قائد فتوح الشام فيها - وربما يكون فيها أيضًا قبر شرحبيل ابن حسنة، وكلاهما توفى فى طاعون عمواس المشهور فى سنة ١٨هـ.

ويبدو أن بيسان ازدهرت فى هدوء وسلام وسط بساتينها، عندما كانت مركزًا إداريًا لأحد نواحى جند الأردن، وكانت تزرع فيها نباتات عظيمة القيمة كالنيلة وقصب السكر، وإليها يعود الفضل إلى ازدهار المدينة، كما اشتهرت بنخيلها وخمورها التى كانت تصدر إلى الحجاز، وتردد ذكر بيسان على لسان

كثير من الجغرافيين العرب نظرًا لأهميتها فذكرها «ابن خرداذبة» المتوفى ٢٥٠هـ في كتابه «المسالك والممـالك» بقوله: كورة من كور الأردن، وهي على الطريق المؤدية من دمشق إلى الرملة، تقع بين طبرية واللجون، وذكرها «المقدسي» سنة ٣٧٥هـ في كتـابه «أحسن التقاسـيم» فقال: بيـسان على النهر كثـيرة النخل، وإرزاز فلسطين والأردن منها، غزيرة المياه رحبـة، إلا أن ماءها ثقيل. ووصفها «البكري الأندلسي» المتوفى سنة ٤٨٧هـ بقوله: «بيسان موضعان أحدهما بالشام تنسب إليها الخمر الطيبة والثانية بالحجاز»، وتحدث عنها «الإدريسي» المتوفى سنة ٥٦٠هـ بقوله: أمـا بيسان فمدينة صـغيرة جدًا، بهـا نخل كثير، وينبت فـيها السافان الـتي تعمل منه الحصر السـافانية، ولا يوجد نبـاته إلا بها، وليس في سائر الشام شيء منه.

أما «الهروي» المتوفى سنة ٦١٦هـ فيقول: مدينة بيسان قيل بها جامع ينسب إلى عمر بن الخطاب، وبها عين الفلوس، قيل هي من العيون الأربع.

ويذكرها «ياقوت الحموي» المتـوفى سنة ٦٢٣هـ بقوله: بيسان مدينة بالأردن بالغور الشامي، يقال لها لسان الأرض، وهي بين حوران وفلسطين، وبها عين الفلوس، يقال: إنهـا من الجنة، وهي عين فيهـا ملوحة يسيرة جـاء ذكرها في حديث الجساسة، وتوصف بكثرة النخل.

• في عهودها الأيوبي والمملوكي والعثماني •

عندما تعرضت بلاد المشرق العربي إلى الهجمة الصليبية قاست بيسان كثيراً من غزوات الفرنجة، ونـشبت في السهول المجاورة لها عـدة وقائع، وضموها إلى مملكة القـدس اللاتينيـة بعـد أن استـولى عليـهـا «تنكرد» سنة ٤٩٢هـ/

١٠٩٩م، وأنشئوا بارونية بيسان، ولكنهم نقلوا الكرسى الأسقفى إلى الناصرة، وظل تاريخها مضطربًا، وقد حررها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م بعد معركة حطين، وتعرضت من بعد لغارة جديدة قام بها الفرنجة فى الحروب الصليبية الخامسة، ونهبوها عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، ثم كان غزو المغول الذين هزموا فى مكان لا يبعد كثيراً عن بيسان فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، بمثابة ضربة شديدة نزلت بها.

وبعد معركة عين جالوت تتبع الجنود المتصرون أثر المغول، حتى تلاقوا بهم مرة أخرى فى بيسان، فكانت موقعة دموية قتل فيها الكثير من المغول وغنم المتصرون غنائم وافرة، ولكن رغم هذه الضربات المتلاحقة، قدر لها أن تصبح فى عهد المماليك قصبة ولاية فى الثغر الثانى الجنوبى المتاخم لولاية دمشق، وشيد فى هذه الفترة «خان سلار» فى المنطقة المجاورة لها مباشرة، وكان ينزل بهذا الخان البريدية الراكبون، الذين عدل خط سيرهم ليمروا بهذا الطريق، بمبادرة اتخذها كبير الحجاب «ابن فضل الله» سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، ويقال: «إن علم الدين سنجر» من مماليك «جاول» أحد أمراء السلطان الظاهر بيبرس أقام خانًا ومارستانًا فى بيسان.

ومن حوادثها فى العهد العثمانى المعركة الكبيرة التى حدثت بين المماليك بقيادة «جان بردى الغزالى» والجيش العثمانى بقيادة «سنان باشا» انتهت بانكسار المماليك وسقوط بيسان ومنطقتها بأيدى العثمانيين، الذين بقوا فيها حتى عام ١٩١٨م. وجاء «المقريزى» فى القرن الخامس عشر الميلادى فذكر أن بيسان مدينة صغيرة، ثم انحطت حتى أصبحت قرية صغيرة. ويقال: إنها نهضت

بعد الاحتلال المصرى فى القرن التاسع عشر، وكان فيها أملاك السلطان بما فيها من حدائق جميلة لا تعوزها المياه وبها قصر له، وفى عام ١٨١٢م مر الرحالة «بيركهارت» بمدينة بيسان ووصفها بما يلى: «إن بيسان تقع على أرض مرتفعة من الجانب الغربى من الغور، حيث تنحدر سلسلة الجبال المتاخمة للوادى إلى حد كبير، وتكون أرضًا مرتفعة مكشوفة تمامًا. كانت المدينة القديمة تروى من نهر يدعى الآن ماء بيسان، وهو يجرى فى فروع مختلفة باتجاه السهل. تمتد خرائب بيسان إلى مدى واسع، والبلدة على طول ضفاف الجدول وفى الأودية التى تشكلها فروعه المتعددة، تضم قرية بيسان الحالية سبعين بيتًا أو ثمانين وسكانها فى حالة بؤس شديد، وذلك بسبب تعرضهم لأعمال السلب التى يقوم بها عرب الغور، رغم أن السكان يدفعون لهم إتاوة فاحشة».

ويبدو أن بيسان عادت إلى الانتعاش والاتساع مرة أخرى فى الربع الأول من القرن العشرين، ويقول صاحب كتاب «ولاية بيروت» عن بيسان فى الفترة ما بين ١٩١٤م - ١٩١٨م: يقدر عدد بيوت بيسان بحوالى ستمائة بيت، منها عشرون للمسيحيين والباقى للمسلمين.

• فى عهد الانتداب البريطانى والاحتلال الإسرائيلى •

تطورت بيسان بعد أن مدَّ عام ١٩٠٥م خط سكة حديد حيفا - درعا الذى يمر من شمال المدينة، وسار نمو السكان جنبًا إلى جنب مع نمو العمران، فقد زاد عدد السكان نتيجة لاستقرار بعض البدو والتجار فى المدينة، إلى جانب الزيادة الطبيعية للسكان الأصليين، ووصل فى عام ١٩١٤م إلى أكثر من ألف نسمة، أما العمران فنما بسبب اهتمام المسئولين الأتراك قبيل الحرب العالمية

الأولى بتنظيم سوق المدينة ومبانيها، وجنح امتداد المبانى للابتعاد قليلاً عن نهر جالود وفروعه والاقتراب من أراضى الغور.

وبدأت المدينة تزدهر فى عهد الانتداب البريطانى لأهمية موقعها وموضعها، ولاختيارها مركزًا إداريًا لقضاء بيسان، وتجلى ذلك فى ازدياد سكان المدينة من ١٩١٤ نسمة - منهم ٤١ يهوديًا فقط - عام ١٩٢٢ إلى ٣١٠١ نسمة منهم ٨٨ يهوديًا عام ١٩٣١، وإلى ٥١٨٠ نسمة منهم ٢٠ يهوديًا فقط عام ١٩٤٥، وتطورت المدينة عمرانيًا نتيجة إنشاء بلدية فيها، وقام المجلس البلدى بتعبيد شوارع بيسان، وغرس فيها أشجار الكينا، وجفف الكثير من مستنقعاتها ليدرأ أخطار مرض الملاريا، وأقيم فى بيسان مستوصف، وتطور فيها التعليم تطورًا ملحوظًا.

وكان يوم ١٢/ ٥/ ١٩٤٨ يومًا أسود فى حياة بيسان، عندما استولى الصهيونيون على المدينة وطردوا سكانها العرب من ديارهم التى استمروا فى سكناها حوالى تسعة آلاف سنة، وظلت بيسان مدينة مهجورة طوال عام كامل، قامت سلطات الاحتلال خلاله بتدميرها وهدم بيوتها، ثم أعادت بناء المدينة بعد أن غيرت معالمها الأثرية والتاريخية، ووطنت مئات العائلات الصهيونية فيها، وقد زاد عدد السكان الصهيونيين فيها من ١٢٠٠ صهيونى عام ١٩٥٠ إلى ١٠٠٥٠ عام ١٩٦١، وإلى ١٢٨٠٠ فى عام ١٩٦٦، وإلى ١٣٥٠٠ عام ١٩٦٨، وأخذ كثير من السكان منذ بداية السبعينيات من القرن الماضى يهاجرون من المدينة لسوء الأحوال الاقتصادية فيها، ونصف سكان بيسان حاليًا هم صهيونيون مهاجرون من شمال أفريقيا معظمهم من مصر

والمغرب، ونحو ٣٠٪ من السكان صهيونيون قـدموا من أقطار عربية وإسلامية كإيران والعراق وتركيا، أما باقى الصهـيونيين فقد قدموا من أوروبا أو ولدوا فى فلسطين.

أنشئت فى مدينة بيســان عام ١٩٦٣ مشاريع لجذب السائحين إليـها، فأقيم متحف للآثار، وأعيد بناء المدرج الرومانى القديم، وأنشئت برك لتربية الأسماك فى الجهتين الغربية والشرقية من المدينة، تستمد مياهها من أحد فروع نهر جالود المارة بجنوب المدينة، وفى بيسان مـولد كهربائى ومضخة مياه رئيـسة، ومصانع للنسيج والمـعادن واللدائن وصقل الألماس والآلات الكهـربائية، بالإضـافة إلى مطار صغير على بعد ٣كم شمالى بيسان.

• وظائف بيسان •

كانت الوظيفة الحربية داعى وجود بيـسان القديمة التى قامت فى موضع تل الحصن، ثم أضيف إليـها الوظيفتان التـجارية والزراعية فى العـهدين الرومانى والإسلامى. وفى عـهد الانتداب البـريطانى كانت بيسـان تجمع بين الوظائف الإدارية والتعليميـة والزراعية والتجارية والصناعيـة، وبقيت على هذا الحال فى عهد الاحتـلال الإسرائيلى للمدينة. فمن حيث الوظيفـة الإدارية كانت بيسان مركزًا لناحية من نواحى قضاء جنين فى زمن الأتراك، ثم جعلت مركزًا لقضاء من أقضـية لواء نابلس فى أوائل الـعهد البـريطانى، وبعد قليل ألحـقت بلواء الجليل. وقـد ضم قضاء بيـسان فى أواخـر الانتداب البـريطانى مدينة بيـسان وثلاثين قرية، وفيهـا مضارب القبائل، وكان سكان القـضاء الذين قدر عددهم بنحو ٢٣٥٩٠ نسمة فى عام ١٩٤٥ يعتمـدون على مدينة بيسان كمركز إدارى

يشتمل على مختلف الدوائر الحكومية المختصة.

أما من حيث الوظيفة التعليمية فقد ضمت بيسان مدرستين للبنين والبنات، وفي سنة ١٩٤٥ أحدث في مدرسة البنين صف ثانوي زراعي أول، وكان الطلبة يفدون على هاتين المدرستين من القرى المجاورة.

أما الوظيفة الزراعية فقد كانت بيسان مدينة زراعية في الدرجة الأولى لوقوعها في قلب سهل بيسان، حيث تتوافر المياه وتنبسط الأرض وتخصب التربة، وكانت أهم المحاصيل الزراعية في قضاء بيسان عام ١٩٤٤ : الحنطة والشعير والعدس والفول والحمص والذرة والسمسم والزيتون والبطيخ والعنب والخضر، وفي عام ١٩٤٥ كانت مساحة الأراضي الزراعية المغروسة حمضيات حول بيسان ١٦١٧ دونمًا، وأراضي الموز ٤٨ دونمًا.

أما الوظيفة التجارية فقد شجع الموقع الجغرافي لبيسان عند نقطة انقطاع بيئة غورية في الشرق وجبلية في الغرب على ممارسة التجارة، وزاد في أهمية الوظيفة التجارية إنشاء محطة السكة الحديدية في الطرف الشمالي من بيسان، ومرور الطرق المعبدة الرئيسة من قلب المدينة. وتجدر الإشارة إلى أن الطريق الطولية لوادي الأردن تتقاطع مع الطريق العرضية التي تربط وادي الأردن بالسهل الساحلي بشكل متعامد في قلب بيسان، حيث تمتد السوق الرئيسة للمدينة.

وكانت سوق بيسان تعج بالحركة التجارية، يجد فيها سكان القرى المجاورة جميع احتياجاتهم، ويبيعون فيها ما يجلبونه معهم من منتجات زراعية وحيوانية. إن سهولة المواصلات، وارتباط بيسان بهذه القرى من جهة، وبالمناطق المجاورة في الجليل وسهل مرج ابن عامر وجنين من جهة ثانية،

جعلا التجارة مزدهرة، وأعطيا بعدًا اقتصاديًا مهمًا لبيسان.

ومن حيث الوظيفة الصناعية فقد اقتصرت الصناعة فى بيسان على الصناعات التقليدية الخفيفة كمنتجات الألبان وطحن الحبوب وعصر الزيتون، والتمر والحصير والشعير والوبر والصوف، وتجفيف الفواكه، ثم تطورت الصناعة حاليًا إلى صناعة النسيج والبلاستيك والمعادن والآلات الكهربائية.

• أشهر مشاهير بيسان •

التاريخ الإسلامى حافل بسير رجال عظام، قامت بهم الدول وسعدت بهم الأمم، كبرت نفوسهم عن أن تخلد للدنايا، وترتضى بالحقير من الشهوات، فطمحت بهم إلى معالى الأمور، وانصرفت بهممهم إلى غايات الكمال، فنالوا بهذا حياة لا تفنى، وغادروا فى الوجود آثارًا لن تزول، ومن هؤلاء فخر فلسطين ابن بيسان «رجاء بن حيوة الكندى».

وهو رجاء بن حيوة بن جرول بن الأحنف بن امرئ القيس بن عمر الكندى الفلسطينى، قال «الذهبى» فى «سير أعلام النبلاء»: الإمام القدوة الوزير، أبو نصر الكندى الأزدى، الفقيه، من جلة التابعين، ولجده جرول بن الأحنف صحبة فيما قيل.

حدَّث عن معاذ بن جبل، وأبى الدرداء، وعبادة بن الصامت وطائفة، وروى عن عبد الله بن عمرو ومعاوية، وأبى سعيد الخدرى، وأبى أمامة الباهلى، ومحمود بن الربيع، وأم الدرداء، وعبد الملك بن مروان، وأبيه حيوة، وأبى ادريس وخلق كثير.

حدَّث عنه مكحول والزهــرى وقتادة، وعبد الملك بن عــمير، وإبراهيم بن أبى عبلة، وابن عون، كما روى عنه حميد الطويل، وأشعث بن أبى الشعثاء، ومحمد بن عــجلان، ومحمد بن جحــادة، وعروة بن رويم، ورجاء بن أبى سلمة، وثور بن يزيد وآخرون.

قال ابن سعــد: كان ثقة عالمًا فاضــلاً كثير العلم.. وقال النســائى وغيره: ثقة. وقال مكحول: إنه كان سيــد أهل الشام فى أنفسهم، وقال مطر الوراق: ما رأيت شاميًــا أفضل من رجاء، وقال الأمير مســيلمة بن عبد الملك: إن فى كندة لثلاثة نفر، إن الله لينزل الغيث بهم، وينصرهم على الأعداء، وذكر منهم رجاء. وقال ابن عون: ما أدركت فى الإسلام أحدًا أعظم رجاء لأهل الإسلام من القاسم بن محمد، ومحمد بن سيرين، ورجاء بن حيوة.

وأصل رجاء من مدينة بيسان، ثم انتقل إلى القدس، قال يحيى بن معين: أدرك رجاء بن حيوة معاوية، ومات فى أول إمرة هشام، وقال أبو عبيد وخليفة بن الخياط: مات رجاء سنة اثنتى عشرة ومائة للهجرة.

• إشرافه على بناء الحرم القدسى •

كان رجاء من المقدمين فى دولة بنى أميــة، يستشيره الخلفاء فى أمور الدولة والأحكام، وقد أشرف رجاء بأمر الخليفــة عبد الملك بن مروان على بناء الحرم القدسى، وكــان يساعــده فى ذلك «يزيد بن سلام» من أهل الــقدس، ولما تم البناء على الوجه الأكمل، اســتشار الخليفة فيــما يجب عمله بالمائة الألف دينار التى بقيت من الأمــوال المخصصة لإقامــة الحرم، ولما أجابهمــا عبد الملك بأن

يتقاسما المبلغ كمكافأة لهمـا على حسن تدبيرهما، بعثا إليه يقولان: نحن أولى أن نزيد من حلى نسائنا، فضلاً عن أموالنا، فاصرفها فى أحب الأشياء إليك، فكتب إليهما تسبك وتفرغ على القبة، فسبكت وأفرغت عليها.

• دوره فى البيعة لخامس الخلفاء الراشدين •

إن المكانة التى جعلها خلفاء بنى أمية لرجاء بن حيوة هى مقياس لموقفهم من الإسلام، وقد بدأ تأثيـر رجاء فى عهد عبد الملك بن مـروان، وازداد فى عهد الوليد، وبلغ أوجه فى عهد سليمان، وقد استطاع رجاء أن يقنع سليمان بجعل الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز.

كان عبد الملك قد عقد البيعة لابنه «يزيد»، على أن يتولى الخلافة بعد الوليد وسليمان ابنيه، وأخذ عبـد الملك العهد من الوليد وسليمان على ذلك، ولكن سليمان لم يلتزم العهد، فـعهد إلى ابنه أيوب بالخلافة أولاً، ولكن أيوب مات فى عهد سليمان نفسه، وقـبل أن يجعل سليمان الخلافة فى ابنه الثانى «داود»، وكان هذا مـع الجيش الأموى أمـام القسطنطـينية، كـان سليمان عـلى فراش الموت، عند ذلك وضع رجـاء يده فى الأمر، وأقنـع سليمـان بأن يرضى الله بوصية يستـخلف فيها على المسلمين الرجل الصالح، فـتخطى سليمان الورثة المباشرين، وعهد بالخلافة إلى ابن عمه الورع التقى «عمر بن عبد العزيز».

ويروى «ابن الحكم» أن سـعيد بن خـالد دخل مع عمـر بن عبـد العزيز، وبعض أهل بيته يعـودون سليمان، فرأوا به الموت، ولما انصرفـوا تخلف عمر متظاهرًا بأنه يصلح حذاءه، حتى أدركه رجاء، فقال له عمر: يا رجاء إنى أرى أمير المـؤمنين فى الموت، ولا أحسبه إلا سـيعهد، وأنا أناشـدك الله إن ذكرنى

بشيء من ذلك إلا صددته عنى، وإن لم يذكرنى أن لا تذكرنى له فى شيء من ذلك، فقال له رجاء متسترًا، لقد ذهب ظنك مذهبًا، ما كنت أحسبك تذهبه، أتظن أن بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم؟

وجاءت سكرات الموت تغشى سليمان، فبقى رجاء عنده، فلما مات حرفه إلى القبلة، وغمض عينيه وسجاه، وأغلق عليه الباب، واستوثق من إخفاء موته على أهله، ثم جمع الأمويين فى مسجد دابق، دون أن يعلن أن الخليفة مات، وطلب منهم أن يبايعوا على ما أمر به الخليفة في وصيته، ومن سمى فى العهد الذى كتبه، ولم يذكر رجاء اسم ولى العهد، ولم يخبرهم بموت سليمان، أو اسم خليفته الذى عينه بنفسه إلا بعد أن يبايعوا، وكانت مفاجأة كبيرة عندما وقف رجاء وقرأ كتاب سليمان، وفيه استخلاف عمر بن عبد العزيز، وكان عمر من فرع جانبى من بنى أمية، كان قد نحاه عبد الملك، والآن جاء ابن لعبد الملك، فآثره بناء على نصيحة «رجاء بن حيوة» على أمراء الفرع الأساس لبنى أمية على كثرتهم.

ولم يكن ذلك يخطر ببال أحد سوى رجاء، وربما كان أبعد شيء عن ذهن عمر بن عبد العزيز نفسه، فحين فض رجاء كتاب سليمان وبدأ يتلوه، حتى إذا بلغ ذكر عمر شملت من فى المسجد فرحة غامرة، لكن هشام بن عبد الملك، الذى كان يطمع فى الخلافة ويترقبها، جثا على ركبتيه كالمعترض بدهاء، فسل رجل من أهل الشام سيفه، وقال له: تقول لأمر قد قضاه أمير المؤمنين هاه؟ قال هشام: لا نبايعه أبدًا، فقال له رجاء فى تصميم: والله أضرب عنقك، فقام وبايع، وعلا صوت الناس بالقول: أين عمر؟ وطلبوه، فإذا هو فى أقصى

مؤخرة المسجد، وإذا هو فى دهشة وذهول، وتخطى رجاء الصفوف إلى مؤخرة المسجد باحثًا عنه، فلما رآه سلم عليه بالخلافة طالبًا منه النهوض للمنبر، ولكن عمر كان حينئذ كالمعقور أو المشلول، فهو لا يستطيع الحراك من هول المفاجأة وهو يردد: والله إن هذا الأمر ما سألته قط فى سر ولا فى علانية، وخاطب رجاءً متوسلاً: أنشدك الله يا رجاء، فقال له رجاء: أناشدك الله أن يضطرب بالناس حبل، فقد لقى سليمان ربه، ولما لم يستطع أن ينهض أخذ رجاء بضبعيه وأنهضه وسار به إلى المنبر وهو يسترجع ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

رحم الله عمر بن عبد العزيز، رحم الله رجاء بن حيوة صاحب البيعة لخامس الخلفاء الراشدين، الخليفة العادل الذى وحد المسلمين ولم شعثهم وجمع كلمتهم، وساس بالترفق والحكمة والإخاء دولتهم، فاستظل بلواء عدالته وإنصافه أهل السنة والشيعة والخوارج، ودخل فى رحاب مساواته أفراد الأمة من المسلمين والكتابيين وأهل الذمة، الخليفة العادل الذى ملأ الدنيا عدلاً، كما ملئت جورًا، والإمام الذى سار بسيرة جده الفاروق عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، وكان أشبه الناس به، والفارس الذى ساد العرب، والخليفة الخامس الراشد الزاهد الورع المتعبد المتقشف المتهجد، الخليفة الذى أغنى الأمة وأفقر نفسه وأهله، وأشبع الخلق وأجاع نفسه ونساءه وأبناءه، الخليفة الذى كان عهده تنفسًا بعد عسر وامتداد كرب، وكانت خلافته بسمة فى وجه زمان طال به العبوس.

وهكذا كان لابن بيسان البار دوره البارز العظيم فى توجيه إدارة وسياسة الخلافة الإسلامية.

• المراجـع •

١ - الموسوعة الفلسطينية، الجزء الأول، دمشق: ١٩٨٤م.

٢ - الدكتور معاوية إبراهيم، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة، المجلد الثاني، بيروت: ١٩٩٠.

٣ - الدكتور نقـولا زياده، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخـاصة، المجلد الثاني، بيروت: ١٩٩٠.

٤ - مـصطفى مـراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجـزء السـادس، القـسم الثـانى، دار الطليعة، بيروت: ١٩٧٤.

٥ - كاثلين كنيون، الكتاب المقدس والمكتشفات الأثارية، ترجمة: د. شوقى شعث، دار الجليل، دمشق: ١٩٩٠.

٦ - لى سترانج، فلسطين فى العـهد الإسلامى، ترجمة: محمـود عمايرى، المطابع التعاونية، عمان: ١٩٧٠.

٧ - أحمد سامح الخالدى، أهل العلـم والحكم فى ريف فلسطين، المطابع التعاونية، عمان: ١٩٦٨.

٨ - جونز، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانيـة، ترجمة: د. إحسان عباس، دار الشروق، عمان: ١٩٨٦.

٩ - الدكتـور سليم حسن، مـصر القديمـة، الجزء السـابع، الهيئـة المصرية العـامة للكتاب، القاهرة: ٢٠٠٠.

١٠ - الدكتور عـبد العظيم الراعى، محاضـرات فى تاريخ العصر الهلينسـتى ومصر البطليمية، دار لوتس، القاهرة: ١٩٧٩.

١١ - جودت السعد، أوهام التاريخ اليهودى، الأهلية للطباعة، عمان: ١٩٩٨.

١٢ - الدكتـور أحمد قـدرى، المؤسسـة العسكرية المصرية فـى عهد الإمـبراطورية، ترجمة: د. مختار السويفى، مطبعة هيئة الآثار، القاهرة: ١٩٨٥.

حاصــور..

مثال صارخ للتزييف التوراتى

حاصور، بمعنى المخيم، والمعسكر، والحصن والجدران - مدينة فلسطينية قديمة فى الجليل الأعلى عدها البعض العاصمة الطبيعية لشمال فلسطين، وهى لم تلعب دورًا هامًا بارزًا فى تاريخ فلسطين القديم فحسب بل كانت ذات شأن فى تاريخ شرقنا القديم، ودورها البارز، وشهرتها ذائعة الصيت، هما اللذان أطمعا اليهود فيها، وشأنها شأن أعرق مدن فلسطين، حرص اليهود على اختلاق تاريخ لهم فيها، بل نجدهم أحيانًا يختزلون تاريخها لصالح تاريخ إسرائيل القديمة المزعومة.

وينبه المفكر الفلسطينى «إدوارد سعيد» إلى خطورة هذا المسلك بقوله: إن إسرائيل تستطيع أن تطالب بحضورها التاريخى بناء على ارتباطها الأبدى بمكان ما، وهى تدعم عالميتها بالرفض التام لأية ادعاءات تاريخية أو زمنية مضادة (وهى فى هذه الحالة تلغى الادعاءات الفلسطينية العربية مستعينة فى ذلك بالقوة العسكرية).

وينبهنا أيضًا إلى هذه الممارسة «كيث وايتلام»، وقد أطلق عليها مصطلح «خطاب الدراسات التوراتية»، وهو عبارة عن شبكة متداخلة وقوية من الأفكار والتوكيدات التى يعتقد ممارسوها أنها نتاج الدراسات العلمية الموضوعية، بينما فى الحقيقة ما هى إلا ممارسة للقوة، إن تصور تاريخ إسرائيل بصفة خاصة تترتب عليه نتائج سياسية مهمة لا يمكن تجاهلها، ونستطيع القول: إن فى هذه النقطة على وجه الخصوص تتآمر اتجاهات البحث العلمى على التاريخ القديم للمنطقة، وذلك بصمتها وعدم اعترافها بالماضى الآخر، ويعتبر تاريخ مدينة حاصور الفلسطينية المثل الصارخ على هذه الممارسة، أو أحد أهم ضحايا خطاب الدراسات التوراتية، وهذا ما سيتضح لنا جليًا من خلال سردنا لسيرة

هذه المدينة من المهد إلى اللحد.

• النشــأة الأولــى •

تقع حـاصور فى وادى الأردن، فى الأرض الخـصبة بين بـحيرتى طـبرية والحولة، على بعـد أميـال قليلة من بحيرة الحـولة، وهى ذات مناخ معـتدل، وكانت قديمًا تشكل منطقة حدودية ما بين الدول الفـينيقية والآرامية والكنعانية، وتم الكشف فى هذه المنطقــة عن عدد كبـير من المواقع الأثرية التـى تعود إلى الحضارة «النطوفـية» التى تعود إلى العصـر الحجرى الوسيط، وحـتى الفترات الحاليـة، فهناك مـوقع «عين الملاحـة» الذى تم الكشف فـيه عن بقـايا أكواخ استـعملت للسـكنى فى الفتـرة الواقعة مـا بين (١٠٠٠٠- ٨٠٠٠ ق.م)، كذلك هناك موقع (آيل القمح) وموقع (دان) تل القاضى، الذى ازدهر فيما بعد فى العصر البرونزى الوسيط، أما أهم المواقع على الإطلاق فى هذه المنطقة فهو موقع «تل القدح» حـاصور، وجاءت أهميـتها لوقوعهـا على الطريق الرئيسى الذى يربط شمال فلسطين بدمشق.

وإن كانت تنقصنا الأدلة الآثارية عن حاصور فى العصرين الحجرى الحديث والحجرى النحاسى، فقد بدأت هذه الأدلة تظهر واضحـة جلية شيئًا فشيئًا منذ العصر البرونزى القديم (٣١٠٠- ٢١٠٠ ق.م).

فقد كانت حاصور فى هذا العصر، كـما تذكر «كاثلين كنيون»: مكانًا كبيراً يتألف من مدينة سفلى تشكل هضبة مساحتها (١٧٥ فدانًا) أضيفت فى العصر البرونزى الوسيط إلى التل الأصلى الذى يعود إلى العصر البرونزى القديم.

وجاء فى الموسوعة الأثرية العـالمية أن هذا المكان يتكون من جزئين رئيسين: تل المدينة، وتبلغ مساحته (٢٥ فدانًا) تقـريبًا، وإلى الشمال منه تتصل به منطقة مسـاحتهـا أكبر، إذ تـبلغ حوالى (١٥٠ فدانًا)، وله طريق مـنحدر مكون من أرض مدكوكـة يؤدى إلى أعلى التل، أو الجانب الغربى، وكانت مـدينة مبنية تستطيع حسب التقدير أن تأوى مع التـل الثانى أربعين ألف نسمة، وفى بعض الأقوال أن المرتفع الكبير كان يمثل بيوت المـدينة، والصغير للقلعة المجاورة لها، وتحيط بها جدران ضخمة ثخانتـها تسعون ياردة، ويقدر البعض أن هذه القلعة كان فى وسعها فى وقت الحاجة أن تضم ثلاثين ألف مقاتل، ومن هنا نستطيع أن نتفهم السر الكامن وراء لفظ حاصور، إذ حرص بناة المدينة الأول على تميز أنفسهم عن جيرانهم من البدو غير المستقرين بأنهم يسكنون فى بيوت ثابتة.

• العصر البرونزى الوسيط •

٢١٠٠ - ١٥٤٦ ق.م

الواضح أنه منذ بداية القرن الثانى ق.م بدأت المدن تنشط وتنتشر من جديد فى فلسطين، وظهرت معها أنمـاط جديدة من العمارة والمدافن، وأنواع جديدة من الخزف والأسلحة، وتتميز هذه المرحلة بعلاقات تجارية وسياسية متطورة مع غالبية مـناطق الشرق القديم، وبشكل خاص مصر وعـمق بلاد الشام، ومنها شمالى سـورية والساحل السورى وشـرقى الأناضول، ومع هذه المرحلة بدأنا نشعر بأن المصادر المكتوبة عامة والمصرية خاصة، أصبحت تسهم لأول مرة فى كتابة تاريخ فلسطين عامة، وحاصور خاصة، حيث نجد لحاصور إشارات كثيرة

فى سجل الآثار المصرى القديم.

فقد ذكرت فى إحدى الآثار المصرية التى ترجع فى تاريخها إلى عهد الملك المصرى «أمنمحات الثانى» ١٩٢٩- ١٨٩٥ ق.م، كعدو جبار للإمبراطورية ولم تظهر الحفريات فى فلسطين حتى الآن أية مصادر مكتوبة من العصر البرونزى الوسيط، إلا أن وثائق تل الحريرى (مارى)، وتل مرديخ (أبلا) بدأت تزودنا ببعض المعلومات عن الأوضاع السائدة فى فلسطين مع نهاية الألف الثالثة، والنصف الأول من الألف الثانية ق.م، فعندما اكتشف الأرشيف الخاص بالملك «زمرى ليم» ١٧٨٠- ١٧٦٠ ق.م، ملك مارى فى شمال سورية، والذى يتضمن عشرين ألف رقيمًا، ذكرت فيه حاصور كأحد المدن التى كان بينها وبين مملكة مارى مراسلات تجارية، وقد تكون حاصور المدينة الفلسطينية الوحيدة التى ذكرت فى هذا الأرشيف.

وتشير اللوحات الطينية من تل مرديخ (أبلا) إلى وجود علاقات مع الكثير من المدن الفلسطينية فى مقدمتها حاصور، وهذه الوثائق جميعها فيها إشارات واضحة إلى أن فلسطين كانت تضم عددًا يصل غالبًا إلى عشرات من دويلات المدن وعلى رأسها حاصور.

• حاصور من أهم المدن الهكسوسية فى فلسطين •

تشهد المرحلة الثانية من العصر البرونزى الوسيط تطورًا ملحوظًا من حيث المدن المحصنة التى أقيمت فى مواقع غالبًا ما قامت عليها مدن العصر البرونزى القديم، غالبية المدن فى هذه الفترة صغيرة الحجم باستثناء تل القدح (حاصور) إذ بلغت مساحة المدينة ما لا يقل عن (٧٠٠ دونم) فى أوسع تطور لها.

والجدير بالذكر أن هذه المرحلة تضم فترة حكم الهكسوس لفلسطين، الذين حكموا مصر أكثر من مائة وخمسين عامًا، حتى منتصف القرن السادس عشر ق.م، عندما تمت هزيمة آخر ملوكهم على يد «أحمس الأول» ودمر آخر حصن لهم فى جنوبى فلسطين، إذ سيطر الهكسوس على مناطق سورية وفلسطين طوال حكمهم لمصر.

إذن كانت حاصور من معاقل الهكسوس الرئيسة عندما أصبحت كل هذه المنطقة فى حوزتهم، ولعل أهم مآثر الهكسوس يتمثل فى عمارتهم، فقد أنشأوا المدينة الحصينة الواسعة، والقادرة على استيعاب جيوشهم الجرارة ومركباتهم الحربية، وإيواء خيولهم الرشيقة.

وتعتبر التحصينات المدعومة بطبقات مرصوصة من الطمم المائل من أهم مميزات هذه المرحلة، حيث كانت المدن تقوم على مرتفعات وتحيط بها أسوار محاطة فى غالب الأحيان بخنادق حولها، كانت عريضة وعميقة فى بعض الأحيان، وكان من شأن هذا النوع من التحصينات إعاقة تقدم المهاجمين لمثل هذه المدن، وغالبًا ما تتخلل السور بوابات ضخمة لها مدخلان أو ثلاثة مداخل متتابعة، وتنتصب على جوانبها الداخلية لوحات حجرية تنتشر هذه التحصينات فى مناطق مختلفة فى الشرق القديم فى: كركميش ورأس شمرا وتل عطشانة وتل مرديخ فى شمالى سورية، وتظهر بأعداد كبيرة فى المدن الفلسطينية، وحتى تل اليهودية إلى الشمال من القاهرة.

أما فلسطين فلم تشهد فى تاريخها هذا العدد من التحصينات القوية، كما حدث فى العصر البرونزى الوسيط، وهذه المواقع أشبه ما تكون بالقلاع منها

إلى المدن الكبيرة وقد تم الكشف عنها فى تل القدح (حاصور) وغيره من المواقع الفلسطينية.

وقد كشفت الحفريات فى موقع حاصور عن مبان متنوعة وبشكل خاص فى الطبقتين الرابعة والثالثة من القرن الثامن عشر وحتى السادس عشر ق.م، وهذه هى المرحلة التى يظهر فيها اسم حاصور فى سجلات (مارى).

وأهمية حاصور كما ورد فى إحدى رسائل مارى أنها كانت تصدر القصدير الذى يدخل كعنصر مهم فى صناعة البرونز، أما أهم المخلفات المعمارية داخل المدينة فتتضمن مدخلاً للأكروبوليس من عهد الهكسوس، وجزءاً من قصر كبير بالقرب من بوابة العصر الحديدى، ويعتقد أن مدينة حاصور ربما كانت عاصمة فلسطين فى العصر البرونزى الوسيط، ويؤكد هذا أنها كانت خلال هذا العصر مدينة ضخمة أخذت شكل مؤسسات الدولة ذات النطاق الإقليمى الأوسع، كما يؤكده ذكرها فى سجل الآثار المصرية، وأنها الوحيدة التى ذكرت فى أرشيف مملكة مارى.

وفى الفصل السادس من كتاب «مصر الفراعنة» الذى وضعه «السير ألن جاردنر» يستقرئ هذا المؤرخ من قصة «سنوحى»، وكذلك من نبوءة «نفرتى»: أن حاكمًا قويًا مفردًا كان يسيطر تقريبًا على معظم فلسطين، ولكنه سرعان ما يضيف قائلاً: ومع ذلك فإن ثمة ما يعارض هذا الدليل، ولا ريب فى أن وجود دولة موحدة تضم فلسطين كلها خلال القرن العشرين ق.م، هو أمر عسير حقًا، ولكن وجود دولة المدينة فى فلسطين لا شك فيه، وهو بالتأكيد أقدم من ذلك العهد بكثير.

•العصر البرونزي الأخير•

١٥٤٦- ١٢٠٠ق.م

هناك شبه إجماع بين المؤرخين وعلماء الآثار على جعل منتصف القرن السادس عشر ق.م، نهاية العصر البرونزى الوسيط عندما تمت هزيمة الهكسوس وسقوط عاصمتهم «أفاريس» حوالى سنة ١٥٦٧ ق.م، إيذانًا بانتهاء حكم الأسرة السادسة عشرة فى مصر، واستعادة (طيبة) كمركز لحكام الأسرة الثامنة عشرة، ولم يكن لهذا التحول السياسى فى مصر تأثيره الكبير المباشر على المخلفات الحضارية فى فلسطين، بالرغم من أن عددًا من المدن الفلسطينية وفى مقدمتها حاصور تعرضت للدمار أو هجرت فى نهاية القرن السادس عشر ق.م، فإنه غالبًا ما أعيد بناؤها بعد ذلك بفترة قصيرة، لتبدأ معها مخلفات تنسب للعصر البرونزى الأخير (الحديث).

إذن يعتبر هذا العصر امتدادًا حضاريًا مباشرًا للفترة الهكسوسية، فلم يطرأ أى تغيير على نظام المدينة – الدولة – ولم يتبدل سوى الغزاة الهكسوس إلى فراعنة مصر، التى انطلق ملوكها محطمين أغلال العزلة السياسية داخل حدودهم إلى الغزو نحو الشمال ليضموا جميع البلاد السورية وليعيدوا عديدًا من مراكز القوى المدينية على خريطة الأرض الفلسطينية، لتفقد إحداها دورها كمدينة هامة ذات شأن إدارى وعسكرى لتؤول إلى مدينة أخرى، وبالحتم الجغرافى الناجم عن موقع القوة الفرعونية الغازية فى الجنوب كان لابد لمدينة غزة أول المدن الفلسطينية على التخوم المصرية، أن تتأهل لدورالعاصمة الفلسطينية الإقليمية ولتأخذ مركز الثقل الإدارى والسياسى فى أرض فلسطين

كلها، وتسلب مدينة حاصور أهميتها كعاصمة لفلسطين.

تبدأ المرحلة الأولى من هذا العصر بالقضاء على آخر ملوك الهكسوس حوالى عام ١٥٦٧ ق.م، وقد ذكرت حاصور ضمن قائمة المدن التى استولى عليها هذا الفرعون، وقد رافق ذلك اختفاء التحصينات القوية والمدعومة بطبقات مرصوصة من الطمم المائل المنسوبة للهكسوس، وأصبحت الأسوار المرتفعة من الحجر والطوب هى المفضلة، رغم أن غالبية المواقع الفلسطينية التى تم الكشف فيها عن مخلفات هذا العصر تبدو غير واضحة المعالم مع بداية هذه المرحلة، ومن الملاحظ أن موقع حاصور قد انتعش بسرعة، أو استمرت سكناه بعيد القضاء على حكم الهكسوس.

وقد ذكرت حاصور ضمن المدن التى استولى عليها «أمنحتب الثانى» ١٤٣٦- ١٤١٣ ق.م، الذى بدأ حكمه بحملاته الانتقامية ضد المدن الثائرة على حكمه فى سورية وفلسطين، وكانت آخر حملاته الانتقامية موجهة ضد مدن مرج ابن عامر والجليل.

وتتعلق المرحلة الثانية من العصر البرونزى الأخير بالقرن الرابع عشر ق.م على وجه التقريب، وتضم بذلك فترة رسائل تل العمارنة من النصف الأول للقرن الرابع عشر ق.م، وبشكل خاص من أيام الفرعون المصرى «أمنحتب الثالث» ١٤٠٥- ١٣٧٦ ق.م، وابنه وخليفته «أخناتون» ١٣٧٦ - ١٣٥٠ ق.م، وقد ورد ذكر حاصور فى هذه الرسائل أكثر من مرة، ففى رسالة من «عبدى - ملكى» إلى سيده الفرعون يخبره فيها عن التحاق حاكم حاصور بصفوف الخابيرو، ولما وجه «أخناتون» فى سنة حكمه الحادية عشرة قوة بإمرة

«هانى بن مرير» - ابن أحد ملوك فلسطين - وقد رحب كل من «انتروتا» ملك مدينة أخشاف، وأرسل إليه أحد قواده المسمى «اندرا» ليكون فى خدمته، وفعل الشيء نفسه ملك حاصور.

وقد دمرت المدينة فى عهد «سيتى الأول» ١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م، دمرها حوالى عام ١٣٠٠ ق.م، ومن الواضح أن هذا الفرعون قد قضى على معاقل الفلسطينيين فى الجليل، فحين وصل إلى مرج ابن عامر اتجه شرقًا ليتجنب التورط بحصون الجليل المنيعة (وعلى رأسها حصون حاصور) فسار من سهل بيسان إلى الجولان ثم حوران، ومن هناك زحف غربًا حتى بلغ بيروت فتمكن بهذه الحركة الالتفافية من عزل الجليل عن مصادر إمداده فى سورية ولبنان.

ومن بيروت تابع زحفه شمالاً بعدما خضعت له جميع مدن الساحل اللبنانى، ووصل إلى «سيميرا» قرب أرواد، وثبت دعائم الحكم المصرى حتى تلك النقطة، وبذلك أصبح الجليل جزيرة مستقلة داخل منطقة يسودها النفوذ الفرعونى، وعاد «سيتى الأول» من سيميرا إلى مصر ليصد هجومًا قام به الليبيون على حدوده الغربية.

ثم انقض على فلسطين من جديد ليقضى على استقلال الجليل وحصونه، واستنجد ملك الجليل من عاصمته حاصور بملك حماة، ولكن الفرعون قطع الطريق على أية نجدة، ودار القتال عنيفًا فى الجليل ونتج عنه تدمير حاصور وإزالتها من الوجود، كما نتج عنه تدمير حصون الجليل كلها إلا ما رآه المصريون صالحًا لأغراضهم الدفاعية، لقد كان على ملك الجليل أن يدخل فى طاعة الفرعون بعدما رضخت له مدن الساحل الفينيقى، لأن الجليل لا يملك

أن يحارب مصر دون حلفاء قريبين، والحقيقة أن دمشق القريبة من حاصور قد كانت مدينة طفيفة الشأن فى ذلك العهد.

وهكذا يتضح لنا من خلال سجل الآثار الفرعونى، والآثار المكتشفة فى مدينة حاصور، والتى تعود بتاريخها إلى هذا العصر، أنه بالرغم من تراجع مكانة حاصور السياسية والإدارية فى مطلع هذا العصر إلا أنها سرعان ما استردت مكانتها لتصبح أساسًا للحكم السياسى ضمن ما يسمى بدويلات المدن، وقد تم تخطيط المدينة وبناؤها بما ينسجم مع هذا المفهوم، من حيث المرافق التحصينية والإدارية والسياسية والدينية، إذ غالبًا ما تم تسويرها وتضمينها مرافق عامة كالقصور والمعابد، وأفضل هذه المرافق توثيقًا هى المعابد التى تم الكشف عنها فى عدة مدن فلسطينية وفى مقدمتها حاصور.

وفى هذا الصدد تذكر الباحثة البريطانية «كاثلين كنيون»: أن موقع حاصور يظهر عددًا من المعابد التى يمكن أن تكون فى مدينة رئيسية، فستة منها تعود إلى العصر البرونزى الأخير، وكانت رهن الاستعمال حتى القرن الثالث عشر ق.م، تم تحديدها فى منطقة المدينة المنخفضة، حيث تم الكشف عن جانب منها فقط، ويمكن أن تكون هناك مناطق أخرى. إن المخططات لها ملامح شائعة قليلاً، ولم يكن لها دلالة كافية لإقرار فيما إذا كان أحد المخططات الخاصة مرتبطًا بعبادة خاصة، اثنان من هذه المعابد لهما أهمية خاصة، فأحدهما صغير نسبيًا وبسيط فى بنائه، وقد شيد فى الاتجاه العكسى لخلفية الجرف الأرضى الذى يحيط بالمدينة المنخفضة.

وفى المعاذيب فى أحد الجدران الممتدة المنفردة المستطيلة الشكل وضع تمثال

وصف من الأنصاب الحجرية التى تحمل على الصدر هلالاً معكوسًا، ويمكن أن يكون رب القمر (سين)، ويوحى بأن الحجر الرئيسى والذى نقش عليه ذراعان مرتفعتان اتجاه رمز القمر الكامل داخل قمر هلالى - يوحى بأنه يمثل زوجة رب القمر.

وهناك معبد أكثر أهمية يقع فى نهاية الطرف الشمالى للمدينة المنخفضة، واعتمدت الرواية الأخيرة والتى شوهت فى القرن الثالث عشر ق.م على أن المخطط كان ثلاثيًا، ففى الغرفة الداخلية وهى الأكبر والأوضح وتسمى بقدس الأقداس كان فيها مجموعة من أدوات العبادة مثل: موائد أوان فخارية بحجم كبير.

وتدل إحدى المشاهد المنقوشة على تمثال أسد - من المحتمل أن يكون قد وضع على مدخل المعبد - على أن الروابط كانت تتجه إلى شمال سورية أو حتى إلى الأناضول، وتظهر بعض من أجزاء مجسم حجرى بأن المعبد قد صمم لرب الشمس والطقس، والمعروف عادة باسم «هدد أو حدد»، ويرمز إليه فى موضع آخر باسم «رشف».

• العصر الحديدى •

١٢٠٠ - ٥٨٦ق.م

ذكرنا سابقًا أن «سيتى الأول» قد قام بتدمير حاصور حوالى سنة ١٣٠٠ ق.م، لكن سرعان ما أعيد بناؤها دون تغيير بمخططها فى الغالب، وإن كانت المنطقة التى شغلتها صغيرة حسب كلام «كاثلين كنيون»، وتشكل فقط النصف

الغـربى من المدينة العليـا الأصليـة (التل)، ولكن المخطط يلفت النظر والميـزة الرئيسية للقرية هو السور الدفـاعى المدعم، وهو عبارة عن جدار مزدوج يتصل بجدران اسـتنادية ويحيط بالطرف الغربى من التل ويعـزله عن الطرف الشرقى بخط يعبر الوسط.

وقد أقيمت فى منتصف السور بوابة ضخمة لها أبراج خارجية ومدخل يمر بثلاث حجرات دفاعية متـوالية، ولم يبق إلا أساس البوابة ومعظم أجزاء السور المدعم، ولكن لا يوجد شك فى أنها كانت تشكل جزءًا من مـوقع كبير جيد التصميم، لقد اختلفت مخططات المواقع السابقة بعض الشيء مع أنه يظهر فى بعض المواقع إعادة استعمال الأساسات التى بقيت من العصر البرونزى الأخير.

ويشكل عام فقـد كانت مبانى العـصر البرونزى الوسيط والأخـير تخضع للتنظيم، بينما نجد مواقع العصر الحديدى الأول أقل عددًا وتنظيمًا.

وقد تطورت البـيوت فى العصـر الحديدى وأخذت طابعًـا مميزًا طوال هذا العصر فى العديد من المواقع، فقد تم الكشف عن أعداد كبيرة من البيوت التى تضم ساحة أقيم حولها مجمـوعة من الحجرات (٢-٤ حجرات)، والتى كثيرًا ما تتوسطـها أعمدة تدعم السقف، تـضم الباحة عادة آبار جمـع المياه ومرافق الطبخ والتخـزين. وقد شيدت هذه الـبيوت من الحجـارة أو الآجر الطينى أو كليهما. أما حـفر التخزين فهى غالبًا ما تكون مـقصورة ومقطوعة فى الأرض على شكل مجمـوعات، وكأنها تخدم أغـراضًا اجتماعيـة، وقد وجدت هذه المنازل فى عدد من مدن فلسطين ومنها حاصور.

وتذكر «كـاثلين كنيون» ويحـذو حذوها جمع من البـاحثين من أصـحاب

خطاب الدراسات التوراتية: أنــه بعد أن أعيد بناء حاصور عقب تدمــير «سيتى الأول» للمدينة، قد تم تدميرها بعد فترة قصيرة وحرقت بعنف، لكن «كنيون» وصحـبها إمعـانًا فى البحث عن جذور إسـرائيل القديمة وحـرصًا على طرد التاريخ الفلسطينى من الوعى وهم يتوارون تحت عـباءة العمل العلمى المحايد - اختـزلوا تاريخ حاصور لصالح إسـرائيل القديمة فى نسـبتهم هذا التدمـير إلى «يوشع بن نون»، حين يذكـرون أنه ربما يتوافق هذا مع الوصف الذى ورد فى كتاب يوشع، فـفى نهاية سفر يوشع عند وصفـه لمعركة دارت بينه وبين حلف مكون من ملوك شمال فلسطين انتـصر فيها يوشع بجوار ميـاه بحيرة الحولة ثم تابع حملته وافتـتح حاصور التى كانت رأس تلك الممالك كلها وسبى شـعبها بحد السيف وأحرقها بالنار، كمـا كان معبرًا وذا مغزى الرأى الذى بلوره أولئك التوراتيـون، يبرهن عن جهل مـذهل للوقائع كلما كـان الأمر متعلقًـا بتاريخ إسرائيل.

إننا إذا استثنينا العهد القديم مع ما يكتنف أسفاره الأولى من غموض فإنه لا يوجد بتاتًا شواهد مادية واضحـة على هذا الحدث (تدمير يوشع لحاصور)، لم يرد فى السجـلات الآثارية الخاصة بشعوب الـشرق القديم كالمصريـين القدماء والبابليين والآشوريين والحيثين والكنعانيين، إطلاقًا اسم «يوشع بن نون»، وهذا دليل صـارخ على عـدم وجوده، هـذا من جهـة، ومن جـهـة أخرى فـإن الاكتشافات الآثارية التى جرت بموقع المدينة تدحض هذه الأسطورة.

• هل دمر يوشع حاصور حقًا؟ •

لقد تصدعت السلسلة المتصلة بين الماضى والحـاضر، وهذا التصدع قوض

الادعاءات بملكيــة المعرفة والقــوة، فالإجماع الذى أحــاط بفترة دخــول كنعان (فلسطين) ردحًا طويلاً من الزمان قد انهار بوتيرة مثيرة خلال السنوات الأخيرة الماضية حتى أصبحت هناك حاجة ماسة إلى إعادة نظر شاملة فى تاريخ العصر البرونزى الأخيــر وبداية العصر الحديدى، إن الاتجــاه الذى بدأ يتعزز الآن وهو التخلى عن الافتراضات المسبقة التى فرضها التفسير التوراتى قد حمل لواءه كل من توماس طومسون وكــيث وايتلام وصحبهما، وقــد كفونا مؤونة الرد على كنيون وأمثالها من أصحاب الخطاب التوراتى.

جاء فى كتــاب «التاريخ القديم للشعب الإسرائيلى» لطومــسون، أن وجود انقطاع فى استيطان حاصور بنهاية العصر البرونزى الأخير لا نزاع حوله، ولكن مدة هذا الانقطاع تبــقى غير مؤكــدة فى أى حال، ومن غير المحــتمل أبدًا أنه كانت هناك علاقة تاريخية بين الدمار الشامل الناجم عن الحريق فى حاصور فى أواخر العــصر البــرونزى الأخيــر، وأى من المستــوطنات الجديدة فى العــصر الحديدى الأول والجليل وحتى الاستيطان الثانى فى حاصور.

وفى الواقع إذا اعتمدنا التسلسل الزمنى الذى وضعه «فنكلشتين» يصبح من الضرورى أن نستنتج أن منطقة الجليل بكاملها قــد شهدت فجوة فى الاستيطان الزراعى لمدة قرن كامل.

ويذكر فى موضع آخر أن مدينة حاصور فى العصر البرونزى الأخير انتهت مثل «أوغاريت» بدمــار شامل وحريق، ومثل أقــرانهم فى «أوغاريت» لم يكن سكان طبقــة هذا العصر فى حاصــور قادرين على إعادة البناء والاستــمرار فى المواقع بعد الدمار، وبالفعل تشيــر الفجوة فى الموقع إلى أن أرضهم لم يأخذها

منهم عدو عنوة، بل إنها هجرت رغم وجود سلسلة من الأسباب المحتملة التى أدت إلى هذا الاقتلاع الجذرى لعدد كبير من السكان، فلا الغزو ولا التوسع الاستثمارى يحتمل أن يكونا بينها، وبالفعل عدم قدرة السكان على إعادة البناء لا تستتبع، بل توحى بضائقة حادة وفقر واضطراب سياسى.

منذ فترة ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م تقريبًا (فترة القرنين التى شهدت تغيرات جذرية عديدة فى كافة مناطق شرق المتوسط) هناك بيانات وفيرة تؤيد حصول جفاف طويل الأمد ومجاعات توجت الانهيار الاقتصادى والسياسى فى العصر البرونزى الأخير، التدهور واسع النطاق فى الحوض الساحلى للمتوسط توافق مع تغير مناخى عالمى.

ويذكر «برونوفسكى» فى كتابه «ارتقاء الإنسان» أن هذه البقاع كانت عرضة للزلازل والهزات الأرضية ولا زالت بعض الهزات الأرضية الخفيفة تحدث هنا كل يوم، كما حدثت أربع هزات أرضية كبيرة خلال قرن واحد ولم يعرف سر تلك الهزات الأرضية التى كانت تحدث فى تلك المنطقة إلا فى الآونة الأخيرة، فالبحر الأحمر والبحر الميت يقعان على امتداد الأخدود الكبير فى شرق أفريقية، ففى هذه المنطقة تتواجد - جنبا إلى جنب - الصفيحتان اللتان تحملان القارات، وعندما تنزلق بقوة إحدى الصفيحتين متجاوزة الأخرى على طول ذلك الأخدود فإن أصداء الهزات والصدمات المنبعثة من الباطن تظهر على سطح الأرض على هيئة زلازل، ونتيجة لذلك حدثت الزلازل دومًا على طول المحور الذى تقع عليه بحيرة الحولة، ذاك حسب ما أعتقد السبب فى كثرة ورود ذكر المعجزات الطبيعية فى التوارة مثل: الطوفان القديم وجفاف البحر الأحمر

ونهر الأردن ودمار حاصور.

وسواء كان ذلك التدمير الذى لحق بحاصور - والكلام لطومسون - بسبب الحريق أو الزلازل أو القوة العسكرية أو الثورة أو انهيار البنى الاقتصادية والسياسية، فقد دمر العديد من مدن العصر البرونزى الأخير فى المناطق الزراعية الأصلية فى فلسطين، إبان القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق.م، بعضها مثل حاصور عاد الاستيطان إليها فى ظروف تتسم بالفقر الشديد وتغير كبير فى البنى السياسية، وبعضها هجرت.

مهما كانت هذه الهيكليات التاريخية احتمالية فإنها توحى بوضوح بأن السكان الأصليين فى فلسطين لم يتغيروا كثيراً من العصر الحجرى القديم، وخلال فترة الألف السادس إلى الرابع ق.م أصبحت فلسطين سامية بمفهوم لغوى، وخلال العصر البرونزى القديم أقامت نمطًا استيطانيًا واقتصاديًا بقى من خصائص المنطقة حتى الحقبة الآشورية فى الأقل.

وممن قام بدحض فرية تدمير حاصور على يد يوشع «كيث وايتلام» فى كتابه - «اختلاق إسرائيل القديمة» ومن أجل دعم رأيه حشد آراء للكثير من الباحثين نذكر منهم «آلستروم» فى كتابه «تاريخ فلسطين القديم» حيث يوضح: أن التحول فى نمط الاستيطان كان ذا دوافع محلية ويمكن تفسيره فى ضوء العوامل الاجتماعية والسياسية المؤثرة فى المنطقة، وفى هذا الصدد يوضح «ليمكه» فى كتابه إ«سرائيل القديمة»:

إذا كان الوصف الآثارى لحضارة فلسطين فى العصر الحديدى يدل على وجود استمرارية بين هذه الفترة وحضارة العصر البرونزى الأخير إذن يجب

ببساطة أن نتجنب الحديث عن أية هجـرة إسرائيلية مركزة دخلت فلسطين في القرنين الثالث عشر والثاني عـشر ق.م، وأعنى بكلمة - مركزة - وجود غزو إسرائيلي جماعي، كذلك وجود هجرة جماعية غير منظمة للإسرائيليين الرحل داخل البلد.

أما «بروديل» فتـعقيبًا عـلى أصحاب الخطاب التوراتي يستنـكر بقوله: كأن التاريخ لم يمتد إلى أوقات موغلة في القدم وكـأن ما قبل التاريخ والتاريخ ليسا شيئًـا واحدًا، ويستطرد بقوله: يحتـاج تاريخ فلسطين إلى أن يكتب من خلال الوثائق المكتوبة والآثار المادية وأيضًا يحتاج إلى أن نتـتبعه في تلك الفترات التي لا يتوافر عنها أي تاريخ مكتوب.

•نهايـــة حاصـــور•

إن عملية طرد التـاريخ الفلسطيني من الوعي قد تم استكمالهـا في اختزال تاريخ حاصور لصالح التاريخ الإسرائيلي، فها هو أحد أعضاء الخطاب التوراتي «دكتور جون إلدر» في كتابه «الأحجـار تتكلم» يذكر: أن التنقيبات في حاصور قدمت أفضل دليل، فمن المرجح أن تكون حاصـور قد عانت الكثير من زلزال حـدث عام ٧٦٠ ق.م، والطبـقة الخـامسـة التي تليـها، كـانت آخر مـدينة (إسرائيليـة) محصنة، وقـد تم إعادة بنائها فـوراً طبقًا لمخطط المدينة السـابقة، والاختلاف الرئيـسي كان في تقوية التحـصينات بسبب الشعـور بخطط آشور العدوانية، وقد زودتنا طبـقة كثيفة من الرماد تغطي الطبقـة الخامسة بدليل حي على استـيلاء الآشوريين على المدينة عـام ٧٣٢ ق.م، وبالتالي اختـفاء المدينة بأكملها، وقد أقيمت بعض الأبنية الفقيرة فوق الخرائب بعد فترة قصيرة، وبعد

ذلك بنيت قلعة استخدمت مركـزًا إداريًا وعسكريًا حتى عام ٤٠٠ ق.م، كما أنشئت حولها بعض البيوت الزراعية، لكن مدينة حاصور اختفت.

أما الذى قام بافتتاحها وتدميرها زمن الآشوريين فهو «تغلات بلاسر الثالث» ٧٤٦- ٧٢٧ ق.م، قـام بذلك عام ٧٣٢ ق.م، وسـبى سكانها إلى آشـور، وقد ضـربها «نـبوخـذ نصر» الملك الكدانى الذى حكم مـا بين ٦٠٥- ٥٦٢ ق.م، ويبدو أن المدينة قد ظلت عامرة بسكانها حتى العصر الهلينستى فقد عثر بين أطلالها على نقود ضربت فى جبـيل وصيدا وصور وأرواد تعود إلى القرن الرابع ق.م.

وهكذا يعود سيناريو اختـلاق إسرائيل القديمة ليظهر بوجهـه القبيح، كلما جادت أرض فلسطين ببعض كنوزها فـينقض عليها التوراتيون بغية نسـبتها إلى إسرائيل القديمة.

تذكر التـوارة فى سفر الملوك - الإصحـاح التاسع - أن الملك سليمـان قد أعطى «أحيـرام» - ملك صور - عشـرين مدينة فى الجليل مقـابل الهدايا التى أغدقها عليه أحيرام من الأخشاب والذهب، وتضيف بأن سليمان وجه اهتمامه نحو إعمار حاصور ومجدو وجازر ومدن أخرى.

دفع هذا النص عـــددًا من الآثاريين للبـحث عـن آثار هذه المدن، ومع أن جميع المواقع التى نقبوا فيها تضم آثارًا رئيسية من العصور الحديدية فإنه اختلط عليهم الأمر بالنسبة لتسلسل الطبقات، واتباع المخلفات السكنية لمراحل وأحداث تراتية، لم تكن هذه المشاكل لتظهر بهذه الحدة لو لم يكن النص التوراتى الدافع الرئيس للكشف عن آثار هذه المواقع، أو بالأحرى لو لا النص التوراتى لكانت

الصورة أوضح مما هى علـيه الآن. لقد انطلق المنقـبون من أن مواقع مـجدو وجـازر وحاصـور، هى المواقع التى ورد ذكـرها فى التوراة، وأن النصـوص المتعلقة بإعمار هذه المدن حقيقة تاريخـية لاجدال فيها، وبدأوا عمليات التنقيب للبرهنة على صحة هذا النص، وليـست لدراسة ماهية الآثار التى يتم الكشف عنها دون الاعتمـاد فى تفسير المكتشفات على البينات التى تظهـر معها، ولكن أسلوب البحث هذا لا ينطبق فـقط على هذه الحالات، وإنما له مساس بغـالبية مواقع العصر الحديدى فى فلسطين.

وفى عام ١٩٥٣م أقام الصـهيونيون مسـتعمرة بجوار تل القـدح (حاصور) القديـمة وأسمـوها «حاتسـور» ووطنوا فيـها صهـاينة من الولايات المتـحدة الأمريكية.

وهكذا يتضح لنا - أكـثر من أى وقت مضى - أن تصـور تاريخ إسرائيل القديم، كما ورد فى الـقسم الأكبر من التوراة العبرية لا يـغدو أن يكون قصة خيالية، وهو بمنزلة اختلاق للتاريخ الإسرائيلى القديم، وقد كانت حاصور المثل الصارخ للتـزييف التوراتى، فقد أدى البـحث عن إسرائيل القديمة فى الـفترة البرونزية المـتأخرة والعـصر الحديدى إلى هـيمنة الرواية الإسرائيلـية مما أسكت بشكل فعال البحث عن تاريخ حاصور القديم.

• المراجــع •

١- الموسوعة الفلسطينيـة، الدراسات الخاصة، القسم الثـانى، المجلد الثانى، بيروت ١٩٩٠.
٢- د. أحمد سوسة «العرب واليهود فى التاريخ» دار الاعتدال، دمشق، ١٩٧٣.
٣- يوسف سامى اليوسف، تاريخ فلسطين عبر العـصور، الأهالى للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٩.
٤- د. نجيب ميخائيل إبراهيم «الشرق الأدنى القديم (سورية)» دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.
٥- قسـطنطين خمـار «موسـوعة فلسطين الجـغرافـية» منشـورات مركز الأبـحاث الفلسطينى، بيروت، ١٩٦٩.
٦- جودت السعد «أوهام التاريخ اليهودى» الأهلية للطباعة والنشر، عمان، ١٩٩٨.
٧- سليم عرفـات المبيض «غزة وقطاعهـا» الهيئـة المصرية العامة للكتـاب، القاهرة، ١٩٨٧.
٨- توماس طومسون «التاريخ القديم للشعب الإسرائيلى» ترجمة صالح سوداح، دار بيسان، بيروت، ١٩٩٥.
٩- كيث وايتلام «اختلاق إسرائيل القـديمة، إسكات التاريخ الفلسطينى» ترجمة، د. سحر الهنيدى، مطابع الوطن، الكويت، ١٩٩٩.
١٠- كاثلين كنيون «الكتـاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثـة» ترجمة د. شوقى شعث وسليم زايد، دار الجليل، دمشق، ١٩٩٠.
١١- سبيتينو مـوسكاتى «الحضارات السامية القديمة» ترجمـة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربى، القاهرة، ١٩٦٨.
١٢- وليم أولبرايت «آثار فلسطين» ترجمة زكى إسكندر ومحمـد عبد القادر محمد، مطبعة الأهرام التجارية، القاهرة، ١٩٧١.
١٣- برونوفسـكى «ارتقاء الإنسان» تـرجمة د. مـوفق شخـاشيرو، مطـابع الأنباء،

الكويت، ١٩٨١.

١٤- سير آلن جاردنر «مصر الفراعنة» ترجمة د. نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.

١٥- د. جون إلدر «الأحجار تتكلم» ترجمة د. عزت زكى، مطبعة مدكور، القاهرة، ١٩٦٥.

١٦- لفيف من العلماء «الموسوعة الأثرية العالمية» ترجمة د. محمد عبد القادر محمد، زكى إسكندر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.

الرملة..
الثائرة التى صنعت التاريخ

تعتبر الرملة المدينة الرابعة من المدن العظيمة التى أُحدثت فى الإسلام بعد البصرة والكوفة والقيروان، وقد عرف سكان فلسطين القدماء المزايا الحربية والتجارية والإدارية والسياسية لموقع الرملة والمنطقة المحيطة بها، فهى بمثابة جسر أو ممر يصل الساحل «يافا» بالجبل «القدس» وبالغور شرق الأردن، كما تصل شمال السهل الساحلى الفلسطينى بجنوبه، وهى بذلك تقع على الطريق الساحلى الذى يربط مصر ببلاد الشام والعراق وغيرها.

وقد هيأت هذه المزايا تلك البقعة الفلسطينية لتقوم عليها حضارة اعتبرت من أهم وأعظم حضارات العالم القديم، وهى الحضارة التى قامت على: بقعة «جازر» التى استدل على تراث أهلها فى قرية «أبو شوشة» بجوار الرملة، وقد قام بعمليات التنقيب فيها الآثارى «ماكاليستر» نيابة عن «صندوق استكشاف فلسطين» بين عامى ١٩٠٢ و١٩٠٩م، إلا أن طريقته فى التنقيب كانت أشبه بعمل المقاولين. واستأنفت العمل فيه بعثة مدرسة كلية «الاتحاد الأمريكى العبرى» بإشراف الدكتور «ديفير» من عام ١٩٦٤ إلى ١٩٧٤.

وقد أسفرت الاكتشافات الأثرية فى هذا الموقع أنه يعود إلى العصر الحجرى الحديث، حيث كانت فى أواخر هذا العصر وأوائل العصر «الحجرى النحاسى» مدينة مزدهرة، وكان أهلها يزرعون الحبوب والفواكه والخضار والزيتون، وكانوا يعصرون العنب والزيتون فى معاصر منقورة فى الصخور. وظلت مدينة جازر مزدهرة طوال العصر الحجرى النحاسى ٤٥٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م. وعن جازر فى هذا العصر يقول الدكتور أحمد فخرى: وعلى ذكر جازر وآثارها نستطيع أن نضيف إلى معلوماتنا عن ذلك العصر، أنهم بدأوا يضعون مع الموتى أوان فخارية فيها المأكل والمشرب، مما يدل على وجود ديانة بينهم وإيمان بالبعث، كما عثر تحت معبد جازر على بقايا من حيوان الخنزير الذى كان يقدمه سكان

فلسطين القدماء إلى آلهتهم.

وفى هذا العصر تم سكنى المدينة بمن أطلق عليهم العلماء اسم «الكنعانيون» الذين وفدوا إلى فلسطين من الجزيرة العربية ولكثرة أعدادهم فقد انصهر فيهم سكان البلاد الأصليون، وغلب اسمهم على البلاد جميعها، وقام الكنعانيون بتوسيع المدينة وتزويدها بالمرافق الدفاعية والعامة والسكنية، وغدت جازر على أيديهم تمثل وحدة سياسية مستقلة، أشبه بدويلة المدينة التى يتبعها عدد من القرى الزراعية، وقدر الآثاريون مساحة المدينة فى ذلك العصر بستة عشر فدانًا.

وقد وصفها الآثاريون بأنها مدينة يحيط بها سور حجارته مقطوعة بأدوات حادة ومهذبة قليلاً، وبلغت سماكة السور ستة عشر قدمًا. وكان للسور أبراج بلغ ارتفاعها اثنى عشر مترًا، يتوسط المدينة قصر حاكمها أو ملكها. وكانت جدرانه مقصورة، أما طرق المدينة فكانت ضيقة معوجة، وكانت حياة الجازريين تعتمد أساسًا على الزراعة، ولعل المحراث الذى استعملوه مصرى الأصل، وكانوا ينتجون الحبوب وبعض الخضراوات، ويربون الماعز والأغنام بكثرة. وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتدوا إلى دولاب الخزاف وحياكة الأقمشة الصوفية، وكانت علاقاتهم التجارية مع مصر متينة، فاستوردوا من هناك الخواتم، والأقراط، والأساور، والعاج الذى صنعوا منه الإبر، والأزرار. وثمة ما يدل على أن أهل جازر عبدوا الآلهة الأم مع آلهة أخرى كثيرة.

وكانت جازر تعتمد على مياه الأمطار وعلى نبع قريب منها، ولحاجتهم إلى الماء فى فترات الحصار قاموا بعمل هندسى ضخم لإيصال الماء إلى داخل القلعة التى أبدعوا فى إنشائها وسط مدينتهم، ويتمثل فى النفق الطويل الذى حفروه للوصول إلى ينبوع من الماء يقع تحت سطح الأرض بعمق حوالى مائة قدم،

وينزل إلى هذا الينبوع باجتيـار مدرج مكون من ثمانين درجًا، ويبلغ طول هذا النفق ٢١٥ قدمًا، ويُرجع الآثاريون هذا النفق إلى حوالى عام ٣٠٠٠ق.م.

وظل الازدهار يصاحب هذه المدينة فى عصورها التالية، ففى العصر البرونزى الوسيط ٢٠٠٠ - ١٥٤٦ق.م كانت المدينة أشبه بالقلعة تقوم على مرتفع يحيط بها أسوار كانت مدعمة بطبقات من التراب والحور المرصوص بشكل مائل وأملس، وكان من شأن هذا النوع من التحصينات إعاقة تقدم المهاجمين لمثل هذه المدن، وغالبًا ما يتخلل السور بوابات ضخمة لها مدخلان أو ثلاثة مداخل متتابعة، وينصب على جوانبها الداخلية لوحات حجرية. ويتسم هذا العصر بالعلاقة الوثيقة بين جازر ومصر، وقد جاء فى سجل الآثار المصرى أن رسل سنوسرت الأول ١٩٧١ - ١٩٣٥ ق.م قد تمكنوا أن يجوبوا البلاد الفلسطينية الجنوبية بانتظام حتى جازر، وانتشر المصريون فى تلك الأنحاء، وقد اكتشف فى المدينة منحوتات مصرية وجعارين تعود إلى هذه الفترة. ويتخلل هذا العصر الغزوة الهكسوسية لكل من مصر وفلسطين التى استمرت مائة وخمسين عامًا، انقطعت خلالها علاقة جازر بمصر، وعثر من آثار الهكسوس فى جازر على خناجر بكتف عريض ونصلة مخرزة، وفؤوس يتخللها فتحة للمقبض، وعلى اسم أحد ملوك الهكسوس «خيان» منقوشًا فى جازر.

وقد استمر هذا الازدهار طوال العصر البرونزى الأخير ١٥٤٦ - ١٢٠٠ق.م. وأول ما يقابلنا من تاريخ جازر فى هذا العصر افتتاح «تحتمس الثالث» ١٤٩٠ - ١٤٣٦ق.م لها ضمن ما افتتحه من المدن الفلسطينية، ومنذ ذلك الوقت غدت جازر تابعة لمصر. ويتخلل هذا العصر فترة العمارنة

ورسائلهم، (النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م). والرسالة ٢٥٤ تظهر عداء (لبايا) ملك شكيم و«ملكيلى» ملك جازر، ويظهر أن هزيمة «لبايا» ومقتله فى النهاية قد سهل الأمر على «ملكيلى» الذى عقد تحالفات مع عدد من الملوك وحكام المدن. ونجد فى الرسالة ٢٨٧ شكوى من ملك القدس للفرعون بأن حاكم جازر يقدم دعمًا لمجموعات العبيرو.

وكانت جازر أهم مواقع فلسطين القوية التى اجتاحها «رمسيس الثانى» ١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م، عندما زحف على فلسطين فى السنة الرابعة من حكمه، وقد وجد «ماكاليستر» فى المدينة تماثيل ولُقى تعود إلى هذا الفرعون، كما أنها لم تسلم من بطش ابنه «مرنفتاح» ١٢٢٤ - ١٢١٤ق.م، فقد ثارت فلسطين فى العام الأول من حكمه، والظاهر أن «مرنفتاح» توجه بنفسه لإخضاع الثائرين، وأخذ عسقلان ثم توجه إلى جازر، التى دافعت عن نفسها دفاعًا مجيدًا، حتى اضطر أن يحاصرها بضراوة، فسلمت له أخيرًا فانتحل لنفسه فيما بعد لقب «محاصر جازر» وتبدو المبالغة فى قصة تدميره لها، بدليل الساعة الشمسية التى وجدت فيها، وتحمل اسم مرنفتاح، وأنها كانت عامرة فى العهد الحديدى.

وقد وجد المنقبون أنها فى هذا العهد كانت مسوَّرة مع ما يرافقها من مبان سكنية وعامة، ومرافق تخزين. وفى السور من الناحية بوابة تؤدى إلى غرف جانبية من الداخل، وهى نمط مستمد من بوابات العصرين البرونزى الوسيط والمتأخر، أما فرية تدمير الفرعون «شيشنق الأول ٩٤٥ - ٩٢٤ق.م» لهذه المدينة ثم تقديمها هدية لزواج سليمان من ابنة الفرعون، فقد باتت مكشوفة وسخيفة، ولم تعد تنطلى على أحد.

وظلت المدينة عامرة بسكانها خلال العهد الآشورى، وتشير بعض اللوحات المسمارية التى وجدت فى جازر إلى أن حكام المناطق فى فلسطين حتى القرن السابع ق.م كانوا من أصل آشورى، ورغم قلة المواقع التى تعود للعهد الفارسى فى فلسطين، إلا أنه وجد مخلفات فى جازر تعود إلى هذا العهد. وقد زعم اليهود استيلاء «سمعان المكابى» ١٤٣ - ١٣٤ ق.م على جازر فى عهدها اليونانى، وإن حدث ذلك فيكون أول تواجد لليهود فى المنطقة. وفى العهد الرومانى ذكرت جازر اسم (جازارا)، وأبرز ما تم على أيدى الرومان فى المجال الحيوى، هو بناء عدد كبير من الأقنية والترع، أو على الأقل إصلاح ما كان قد تداعى منها، وتوزيع المياه فى مجارى الأنهار السفلى على الأراضى المجاورة لريها مثل منطقة جازر.

• مولد الرملة الإسلامى •

والذى يعنينا من الأمر كله أن العرب المسلمين لما فتحوا فلسطين عرفوا أهمية هذا الموقع، لكنه كان مأهولاً بسكان من الروم، فلم يتخذ الفاتحون المدينة القائمة عليه قاعدة لهم، ولما آل أمر ولاية جند فلسطين إلى «سليمان بن عبد الملك» زمن خلافة أخيه «الوليد بن عبد الملك» نزل سليمان مدينة اللد التى كانت قصبة الجند آنذاك، ثم اختط مدينة الرملة لتكون بدلاً من اللد عاصمة لذلك الجند. ويشير «البلاذرى» إلى الهيكل التنظيمى لمدينة الرملة منذ نشأتها فيقول: وكان أول ما بنى سليمان فيها قصره والدار التى تعرف بدار الصباغين، وجعل فى الدار صهريجًا متوسطًا لها، ثم اختط للمسجد خطة وبناه، فولى الخلافة قبل استتمامه، ثم بنى فيه بعد خلافته ثم أتمه «عمر بن عبد العزيز». ولما بنى سليمان لنفسه أذن للناس فى البناء فبنوا واحتفر لأهل الرملة قناتهم

واحتفر آبارًا، وسميت رملة لغلبة الرمل عليها، وقيل سميت بامرأة اسمها رملة وجدها سليمان فى بيت شَعر حين نزل مكـانها يرتاد بناءها، فأكرمته وأحسنت ضيافته، فسألها عن اسمها فقالت: رملة، فبنى البلدة وسماها باسمها.

اختط سليـمان المدينة على أرض مـربعة الشكل قسَّـمها شـارعين رئيسين متقاطعين فى الوسط إلى أربعة أقسام، ولما استقرت القبائل فى المدينة بنيت لهم الدور والحوانيت، ومن أشهر القبائل التى نزلت بها «لخم وكنانة»، ونقل بعض سكان اللد إليها.

استمرت إقامـة سليمان فى المدينة الجديدة طوال السنوات ٧١٥ - ٧١٧م، وبرزت أهميـة الرملة منذ اللحظة الأولى لقيامـها، حيث كان سليـمان يود أن يتخذهـا مقرًا للخلافـة، وأحب سليمان الرملة، وبادله أهلها نفـس الشعور، ودرج الخلفاء الأمويون بعد سليمان على الاهـتمام بالرملة وشؤونها، مما جعل المدينة تواصل خطوات النمـو والازدهار حتى إنـها أصبـحت فى مقـدم المدن الفلسطينيـة، بل عاصمـة الإقليم الفلسطينى برمـته، وقد حـملت الرملة اسم فلسطين وأصبحت كلمة فلسطين فى التنظيم الإدارى الأموى تعنى مدينة الرملة والعكس صحيح، وأصبح والى فلسطين يقيم فى المدينة.

• ثورات الرملة وطموحاتها للخلافة •

إن الأهمية الاستـراتيجية التى حظيت بها الرملة منذ نشـأتها جعلت المدينة مقـرًا للثائرين على نظام السلطة الحاكـمة، كما جـعل منها مقـرًا لمن طمحت نفوسهم إلى الخلافة، والسيطرة على مـقاليد الحكم. ففى زمن الخليفة الأموى «الوليد بن يزيد بن عـبد الملك» ثار أهل فلسطين على عـامله «سعيد بن عـبد الملك» عام ١٢٦هـ، وأحضروا «يزيد بن سليمان بن عبد الملك» ونصبوه خليفة

عليهم، واستمرت الثورة حتى عـهد خليفته «يزيد الثالث الناقص»، وقد انضم إلى الثورة ابنا «روح بن زنباع» وهما «سعيد وضـبعان»، وأسندت إليها قيادتها، كمـا انضم إليهـا أهل الأردن، ورأى الخليفـة أن من الأسلم أن يعـالج الأمر بالدبلوماسية، فانتدب «سليمان بن هشـام بن عبد الملك» ليتولى إحباط الثورة، وتمكن هذا من إخـضاع ثوار الأردن أولاً، ثم اسـتطاع لاحقًـا إخضـاع ثوار فلسطين، بعد أن اشترى القائدين بالمال والمناصب.

ثم أعقب هذه الثـورة تلك التي قام بها «ثابت بن نعـيم الجذامي» الذى ثار على الخليفة الأمـوى «مروان بن محمد» عام ١٢٧هـ، وتصدى الخلـيفة للثورة بعنف وقضى عليها، واشتد فى الانتقام من ثابت وأولاده.

وقد شهـدت منطقة الرملة المذبحة الأموية عـام ١٣٢هـ، حيث قضى على عدد كـبيـر من بنى أميـة على أيدى العبـاسيـين بالقرب من نهـر أبى فطرس (العوجا) قرب مدينة الرملة. وبانتهاء الخلافة الأموية دخلت المدينة عهدًا جديدًا من عهودها التاريخية.

• الرملة فى العهد العباسى والطولونى والإخشيدى •

على الرغم من أن العباسيين قـد نظروا إلى سكان بلاد الشام عمومًا، على أنهم ورثة الأمويين، بل والساعين لإعادة ملكهم، لذا عاملوهم معاملة متميزة، وراقبوهم بعيون مفتوحة باستمرار، إلا أن الرملة لم تتأثر بتلك المعاملة، وظلت النفوس تهفو لخطورة مركزها الاستراتيجى فى بلاد الشام، ومع ذلك فإن الرملة لم تخمد ثوراتها فى هذا العهد أو تخبو، بل ازدادت وهجًا.

من هذه الثورات تلك التى قام بها أهل الرملة فى أول عهد الخليفة العباسى «أبى جعفر المنصور»، وأعلنوا البيـعة للأمير الأموى «هاشم بن يزيد بن خالد»

عام ١٣٦هـ، وكانت الثورة بقيادة أحد أحفاد «روح بن زنباع»، فطلب الخليفة من عمه «صالح بن على» والى مصر أن يرسل أحد قواده الأشداء «أبو عون» لقتال الثائرين، وقتل خلقًا كثيرًا منهم وتم قمع الثورة.

ولما تولى «الأمين» الخلافة عام ١٣٩هـ، ولسوء سيرته ثار عليه أهل الرملة وتصدوا للأموال القادمة من مصر إلى بغداد وصادروها، وأخذوا عطاءهم كاملاً، وأطلقوا الفائض إلى بغداد، وظلت الأمور تسير بين مد وجزر بعد ذلك حتى أيام «المعتصم» ٢١٨ - ٢٢٧هـ الذى أبدى اهتمامًا بفلسطين والرملة، حيث فرض على الولاة أن يعملوا على دفع عجلة التقدم فى المدينة، ووقف لهذا مبلغًا من المال ينفقه فى هذا الشأن، إلا أن هذا لم يصرف أهل الرملة عن الثورة، حيث نقابل فى أيام هذا الخليفة ثورة «المبرقع اليمانى» وهو «تميم اللخمى أبو حرب» فلسطينى عرف بتقواه وكرهه للظلم، وسبب ثورته قيام أحد الجنود بالاعتداء على زوجة المبرقع أو أخته فى حالة غيابه بالضرب فى عقر دارها، فأخذ سيفه وسار إلى الجندى فقتله، واعتصم بالغور الفلسطينى، حيث أعلن ثورته على الخلافة العباسية فى عام ٢٢٧هـ، ووضع على وجهه برقعًا فعرف بالمبرقع، واجتمع حوله الفلاحون الفلسطينيون، وحينما اتسعت رقعة ثورته أعلن عن نيته فى إعادة الخلافة الأموية، فأطلق عليه لقب «السفيانى المنتظر»، وانضم إلى ثورته «ابن بيهس» أمير دمشق، وهكذا استطاع المبرقع أن يجمع حوله جموعًا كثيرة من المناهضين لنظام الحكم، والغاضبين على الترك وتصرفاتهم من العرب وغيرهم. وقيل إن الملتفين حول المبرقع بلغوا مائة وخمسين ألفًا، مما أدى إلى أن يتسرب الرعب فى قلب المعتصم، وقد أخذت الثورة تشق طريقها فى سبيل القضاء على الخلافة، فأعد العدة للقضاء عليها،

وانتدب لذلك «رجاء الحضارى» أحد أقدر قواده، وتمكن هذا من القضاء على «ابن بيهس» وأصحابه بدمشق، إلا أنه رغم هذا النصر الحاسم لم يجرؤ على مهاجمة المبرقع حين رأى جموعه، وهداه تفكيره إلى تأجيل ذلك حتى يحين موعد موسم الزراعة، وقد صدق حدسه إذ سرعان ما تفرقت جموع المبرقع لانشغالها فى موسم الزراعة، فنازله رجاء عند مدينة الرملة، ورغم آيات البسالة والإقدام التى صدرت عن المبرقع وصحبه، إلا أن الإمدادات المتتالية لخصمه وقلة ما بيد الثوار من المؤن والعتاد. قد أدى إلى حسم المعركة لصالح العباسيين، ووقع المبرقع أسيرًا بعد أن قتل أكثر أصحابه عام ٢٢٨هـ، ولو قدر لهذه الثورة النجاح لكان من الممكن قيام كيان سياسى مستقل فى فلسطين، ومع إمكانية تصدير الثورة كانت ستقوم خلافة أخرى تتخذ من الرملة مقرًا لها.

وفيما بعد اندلعت ثورة أمير الرملة «عيسى بن شيخ» الذى لمس ضعفًا فى الإدارة المركزية، لما بدأت العناصر التركية تضيق الخناق على الخلفاء العباسيين وتحجر عليهم بعد قتل الخليفة «المتوكل»، وقد شملت ثورته سائر فلسطين وجزءًا كبيرًا من الشام، واستمرت إلى أيام «المهتدى»، وقد رفض مبايعته عام ٢٥٥هـ، ولما قتل عام ٢٥٦هـ لم يبايع خليفته «المعتمد» أيضًا، مما اضطر الخليفة - حفاظًا على ماء وجهه وسمعة الخلافة وهيبتها - أن يرسل إليه بالولاية على أرمينية، بالإضافة إلى ما بيده من الولايات فى الشام، ولكن ذلك إلى حين، إذ سرعان ما قرر أن يضع الأمور فى نصابها، وأوعز إلى «ابن طولون» - والى مصر آنذاك - بالتأهب لمنازلة ابن شيخ، فلبى الأمر تمهيدًا لتحقيق طموحاته الاستقلالية، وسار إلى الرملة بالفعل، وقبل الاشتباك مع ابن شيخ تراجع بطلب من الخليفة بعد أن كلف «أماجور» قائده بالقيام بالمهمة لقطع

خط الرجعة فى سبيل طموحات ابن طولون التى استوعبها الخليفة وخشى عاقبتها، ووصل «أماجور» الشام واشتبك مع قوات «ابن شيخ» البالغة عشرين ألفًا، واستطاع التغلب عليها، فغادر «ابن شيخ» الشام إلى إقطاعه فى أرمينية فى عام ٢٥٦هـ، وقدر للرملة كسابق عهدها أن تتبلد طموحاتها. وهذه الأحداث وما صاحبها من ضعف سلطة الخلافة فى بلاد الشام جميعها قد مهد الأمور إلى استقلال «ابن طولون» فى مصر والشام فيما بعد، وإقامته دولة استمرت ٣٨ عامًا.

ويوجه عام كانت ثورات الرملة وفلسطين إبان فترة حكم الطولونيين قليلة ضعيفة، ثم إن العباسيين بدورهم قد استغلوا ضعف الطولونيين وأرسلوا إليهم «محمد بن سليمان» الذى دخل الرملة وانطلق منها إلى مصر، وقضى على الطولونيين، وقد أدى هذا بدوره إلى اندلاع ثورة «محمد بن الخليج».

لم يكن أهل الرملة راضين عن المجازر التى ألحقها «ابن سليمان» بالطولونيين فى مصر، وعبّروا عن ذلك بالمشاركة فى ثورة ابن الخليج - أحد كبار الضباط المصريين - فى أواخر عهد الطولونيين الذين تخلفوا عن ابن سليمان في الرملة، وقد ولدت فى نفسه الرغبة فى الانتقام لما حل بالطولونيين، فأخذ يدعو بالرملة إلى «إبراهيم بن خمارويه»، ثم لنفسه من بعده، وقد قوى جمعه، وقد أصبح جيشه يضم أهالى الرملة وأعمالها، وبقايا القوات الطولونية القابعة فى فلسطين، الأمر الذى دفعه إلى مهاجمة مصر فى عام ٢٩٢هـ، ونجح فى اجتياح مصر والوصول إلى الإسكندرية، وفيها ألحق الهزيمة بوالى مصر «عيسى النوشرى»، وأصبح واليًا على مصر، وهناك انضم إليه الحاقدون على العباسيين حتى أصبح تعداد جيشه يربو على مائة وخمسين ألف مقاتل،

وبقى يسيطر على مصر وأجزاء من فلسطين سبعة شهور إلى أن استفاق الخليفة العباسى أخيراً من غفوته، وشرع فى إرسال النجدات إلى النوشرى الذى استعاد قوته ونظم صفوفه، وانقض على ابن الخليج وقبض عليه فى عام ٢٩٣هـ، وعادت الرملة إلى سيطرة العباسيين لتشهد فترة تقارب ربع قرن من الزمان مع الحكم العباسى، واستطاع خلالها «محمد بن طفج» - القائد التركى - أن يلى أمر الرملة والشام، واستطاع بما استغله من ظروف أن يتوصل إلى الاستقلال عن النفوذ العباسى، وبدأ نفوذ العباسيين المباشر بالزوال عن الرملة والشام، وأصبحت مصر والشام تحت السيادة الإخشيدية الجديدة.

ويجب أن نذكر هنا أن الرملة لم تسعد كثيراً أيام الإخشيديين، بل ظلت مثار نزاع، وأرضها أرض حروب ما بين الإخشيديين والعباسيين، حيث قام «محمد بن رائق» ونازع الإخشيد السيطرة على جنوب الشام، بل وهاجم مصر نفسها، مما اضطر الإخشيد إلى أن يعقد معه صلحًا، ويقبل بوجوده فى شمال الشام ووسطه.

وهكذا ظلت الرملة ضمن دائرة نفوذ الإخشيديين، ثم تطورت الظروف وقتل «محمد بن رائق» فى الموصل عام ٣٣٠هـ فيما بعد، وقد حرص الإخشيديون على بقاء مفتاح الشام بأيديهم، فكرسوا وجودهم فى الرملة وجنوب الشام فى محاولة للوقوف أمام البيزنطيين والدفاع عن الوجود الإسلامى فى المنطقة. وانسجامًا مع هذا المفهوم وقف الإخشيديون إلى جانب «سيف الدولة الحمدانى» الذى دخل الرملة شاهراً سيفه على الإخشيدين، وقدموا له العون المادى والعسكرى والسياسى؛ لأنه ينفذ أهدافهم فى الدفاع عن دنيا الإسلام فى حين كان عليهم مقاومته للنهاية. وقد استمرت الدولة

الإخشيــدية فى الفترة ما بين عامى ٣٢٣ - ٣٥٨هـ وبانقــراضها دخلت الرملة فى عهدها الفاطمى.

• الرملة فى العهد الفاطمى •

بلغت الرملة أوج شهرتها أيام الفــاطميين؛ لأنهم نظروا إلى المدينة على أنها مفتاح الطريق عــبر الشام إلى بغداد هدفهم الأسمى. وكــانت الرملة قد عانت من دخول القــرامطة إليها منذ أواخــر الحكم الإخشيــدى، فقد اكــتوت المدينة بنارهم مدة، حيث هاجموها ودخلوها وقــتلوا ونهبوا. وظل القرامطة وغيرهم من القادة العباسيين يناصبون الفاطميين العداء محاولين سلخ الرملة عن مصر، ومعنى هذا أنه تم انحسار ظل الفاطميين عن بلاد الشــام واكتفائهم بمصر بقصد إبعاد خطرهم عن خلافة بغداد، لذا حرص الفــاطميون على نشر نفوذهم على الرملة وفلسطين بشتى الطرق، مما كلفهم جهدًا ومالاً ورجالاً.

إن هذا الصراع الفاطمى العباسى القرمطى، قد شجع أهالى الرملة ومنطقتها على أن يلعبــوا دورًا خطيرًا فى أحداث المنطقة برمــتها، فقــد ظهر «آل الجراح الطائيون» على مســرح الأحداث، وسيطروا على جنوب الشام فترات مــتقطعة مرة برضى الفاطميــين ودعمهم، وأخرى غصبًــا، وهكذا حاول هؤلاء إمساك العصا من الوسط فى عملية إيجاد توازن قــوى فى المنطقة لصالحهم حتى إنهم حاولوا عــام ٤٠١هـ إنشاء خــلافة علوية حــسنية مناوئة للحكم الفــاطمى فى القاهرة. ولقد لعب الوزير المغربى «أبو القاسم الحسين بن على المغربى» - وزير الحاكم بأمر الله - دورًا رئيسًا فى سبيل إقامة هذه الخلافة لثأر بينه وبين الخليفة، فقد سعى لدى آل الجراح بالرملة، والشــريف «الحسن بن جعفر» بمكة، وأقنع بجولاته المكوكيــة الطرفين بالثورة على الفاطمــيين، ولا مجال لســرد تفاصيل

الأحداث التى واكبت هذا الإعلان. والذى يعنينا أن الحاكم بأمر الله قد ألب على الشريف بنى عمومته، واستمال آل الجراح بالمال فانحازوا إليه، مما أدى إلى أن يغادر الشريف إلى مكة، والوزير المغربى إلى العراق، وبذلك قضى الخليفة الفاطمى على أكبر خطر قام به آل الجراح فى الرملة ضد الفاطميين، كما قضى على آخر طموحات الرملة فى أن تصبح مقراً لخلافة جديدة، وإن لم يقض على طموحاتها فى الاستقلال. ففى عام ٤١١هـ إثر وفاة الخليفة حاول أمراء العرب أن يعيدوا سلطانهم على بلاد الشام، فاجتمعوا وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة خاضعًا لسيادة «صالح بن مرداس»، وأن تكون الأرض من الرملة إلى مصر تابعة لحسان بن مفرج من آل الجراح. ولم يكن لهذا الاتفاق أن يعيش طويلاً، إذ دب الخلاف بين أقطابه. وهكذا ظلت الرملة تنتقل من حكم إلى حكم طيلة أربعة قرون، تزعمت فيها مدن فلسطين، حيث كانت مركزًا للإدارة فيها دور الحكم، ومنها تدار شؤون الإقليم. وظل هذا الوضع قائمًا حتى قدمت قطعان الغزو الفرنجى عام ٤٩٢هـ، وأصبحت الرملة فى ظل الاحتلال الفرنجى جزءاً من المملكة اللاتينية فى القدس.

• حياة الرملة الاقتصادية •

وذلك منذ نشأتها حتى الغزوة الفرنجية، وخلال هذه الفترة الممتدة فى الزمن اعتمدت الرملة على الزراعة والتجارة أكثر من اعتمادها على الصناعة، فذكر المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم» أن إقليم الرملة واسع الفواكه به رساتيق جليلة ومدن ثرية، ولا يوجد ألذ من فواكهه، وفيه يكثر التين والنخيل. أما الحموى فى «معجم البلدان» فذكر أن الرملة من أكثر البلاد صهاريج مع كثرة الفواكه وصحة الهواء، وأرضها سهلة كثيرة الأشجار والنخل، وحولها كثير من

المغارس والمزارع، وبها أنواع كثيرة من الفواكه المعروفة.

وقد مدح ابن بطوطة فى مهـذب رحلته خيراتها وأسواقـها الحسنة، وكانت أشجار الزيتون تنتشر فى الإقليم بجانب أشـجار البساتين المتنوعة بشكل غابات كثـيفة، وكـان إقليم الرملة يضم حوالى أربع آلاف قـرية كلها تعـترف للرملة بالسيادة، وترسل ما تنتجه ليباع فى أسواق المدينة ويشترى أهلها ما يلزمهم.

وقد وجد فى جهـات الرملة عدة صناعات خفيفة بحسب الحـاجة، فذكر «ناصر خسرو» فى كـتابه سفرنامه أنه شاهد عمليـة تقطيع حجارة الرخام الملون لاستعمـالها فى البناء، وقد أقيمت منشآت الرملة من هذا الرخـام، كما ذكر «المقدسـى» أن الرملة كانت تصـدر القطين، ولا مثـيل له فى العالم. ولكـثرة الزيتون فى إقليم الرملة، فقد اشتهـرت باستخراج الزيوت، وصناعة الصابون، وقد مـدح البلوى فى كتـابه «تاج المفرق» صنائع المـدينة فقال: وافـرة الصنائع سابغة المدارع، فيها جنات من نخيل وأعناب طوبى لمصرها وحسن مآب.

إقليم الرملة بقراه الكثيرة كان يعتمد على المدينة فى تزويده بما يلزمه من سلع محلية وخارجية، كما كان يعتمد عليها فى تصريف منتجاته. وقد عرفت عدة أسواق مشـهورة فى مدينة الرملة تحوى المئات من الحـوانيت التى تعج بمختلف السلع المحلية والمستـوردة. وقد مدح الحميـدى فى «الروض المعطار» والعليمى فى «الأنس الجليل» أسواق الرملة، وعَدَّدا قسمًـا منها، وكلها ترتبط بالمسجد - مركز المدينة - حـيث يزدهر النشاط التجارى، وتنشط عمليـات البيع والشراء. ثم ظهرت الأسواق المـتخصصة فى الرملة، فـكأن المدينة كانت مقسـمة تجاريًا حسب المهن، فسوق للأكافين، وسوق للصـياقلة، وسوق للخشابين إلى غير ذلك. وذكر «المقدسى» أن الرملة تحوى عـدداً من الفنادق والخانات والحمامات النظيفة فقال: والتجارة بها مفيدة، والمعايش حسنة موضوعة بين رساتيق زكية،

ومدن محيطة، ورباطات فاضلة ذات فنادق رشيقة، وحمامات أنيقة، وأطعمة نظيفة، ومنازل فسيحة، وقد صدرت الرملة التين المجفف والزيت والقطن والزبيب والخرنوب والصابون والفوط. والرملة ضمن الإقليم الساحلى المشرف على البحر المتوسط، ولكونها ساحلية أو قريبة من الساحل، فقد اتصلت بالخارج عن طريق ميناءى يافا وأيلة بالبحر الأبيض والأحمر، ومن ثم فى الشرق والغرب؛ لأن المدينتين تعتبران منفذ الرملة إلى البحر، بل هما فرضة فلسطين بكاملها. ولاشك أن الرملة كانت ترسل بسلعها إلى العراق ومصر وباقى إقليم الشام، وربما وصلتها تجارة (جنوة وبيزة) وغيرهما.

وليس لدينا من أدلة على ازدهار الرملة الاقتصادى أبلغ من النقود المستعملة فيها، فقد وجدت حوالى ١٥ مركزًا لضرب النقود فى جندى فلسطين والأردن أهمها الرملة، وهذا يظهر لنا مدى أهمية المنطقة التجارية كالرملة فى العصر الأموى. وفى العهد العباسى ضربت النقود فى الكثير من المدن الفلسطينية، وفى مقدمتها الرملة. وكذلك كان الحال فى العهد الطولونى، وكانت فى مقدمة مراكز ضرب النقود فى العهد الإخشيدى، ثم فى عهد القرامطة حيث حرصوا على ضرب النقود فيها، حتى الدولة البويهية أيضًا حرصت على ضرب النقود فيها، وكذلك «سيف الدولة الحمدانى». أما النقود الفاطمية التى ضربت بالرملة، فكثرتها تدل على المكانة الاقتصادية التى كانت تحظى بها الرملة فى عهدهم.

• المكانة العلمية •

وهكذا اجتمعت العوامل السياسية والإدارية مع العوامل الاقتصادية من زراعية وتجارية وصناعية لتكون سببًا فى ازدهار المدينة ورخائها، وقد عاد ذلك

على المدينة وأهلها إذ عاشوا فى بحبوحة، ونعموا بثروات كثيرة. وأدى الرخاء والثروة التى نعم بها أهل الرملة إلى الاهتمام بنواحى الحياة ومباهجها، وسرعان ما بدت الرملة كحاضرة كبيرة تجتذب إليها كل راغب فى الثروة، ولذا قصدها الشاعر المشهور «أبو الطيب المتنبى» يوم كان واليًا عليها «الحسن بن عبيد الله ابن طفج» وقد أغدق عليه هذا الأمير، ولما غادر المتنبى الرملة قال فى وداع أميرها:

ماذا الــوداع الرامــق الكــمــد هذا الوداع وداع الروح للجسد

إذا السحاب زفته الريـح مرتفعًا فلا عدا الرملة البيضاء مـن بلد

كما كـان قرب الرملة من القدس عامـلاً من عوامل ازدهار الحركة الثقـافية فيها، إذ كانت المدينة تجتذب إليـها كل عالم مقيم بالقدس أو زائر لها. وبذلك شهدت الرملة فى القرون الخمسة الأولى للهجرة نهضة ثقافية وحركة علمية مزدهرةً، تمثلت تلك الحـركة الثقـافية فى كثـرة المجالس التى كانت تعـقد فى مساجدها وبيوت علمائها، وفى استقبال العديد من العلماء الذين نزلوها وحطوا رحالهم فيها، إذ اتخذوا منها محطة فى رحلاتهم الواسعة طلبًا للعلم والتعليم.

لم تنفرد الرملة فى المرحلة التى نبـحثها من العـالم الإسلامى بابتكار طرق تعليم جديدة، أو بناء مدارس مـتقدمة، بل كان التعليم كمـا تشير الدلائل فى المدينة وفلسطين شأنه شأن غيره فى مدن العـالم الإسلامى، فقد عرفت أماكن التعليم الابتـدائى، وأماكن التعليم المتـقدم، ولقد كـانت المساجد مـراكز للعلم والتعليم والوعظ، كما عرف التعليم فى الأربطة المحيطة بمنطقة الرملة. فقد ذكر المقدسى - كمـا أسلفنا - كثرة الربط فى منطقة الرملة. كمـا عرف التعليم فى مجالس خاصة فى البيوت. وأما المدارس بمعناها المعروف، فلم تكن قد أقيمت بعدُ فى الرملة، وكانت حركة التعليـم مزدهرة فى الرملة ونشطة بدرجة كبيرة.

يدلنا على هذا المئات من العلماء الذين قدموا الرملة وأخذوا عن علمائها، ومنهم من استوطنها مدة وحمل اسمها، ومنهم من توفى فيها، ومنهم من غادرها، علاوة على من انتسب إليها من أهلها وهاجروا إلى الخارج، وظلوا يحملون اسمها ليدللوا على عظم مديتهم وعلو شأنها.

• فى عهد الحروب الصليبية •

لما اجتاح الفرنجة الرملة عام ١٠٩٩م كان سكانها قد تركوها وهاموا على وجوههم خوفًا من عدو لاقبل لهم به، فغنم الفرنجة ما فيها من خيرات. وفى سنة ١١٠١م جرد الوزير الفاطمى «الأفضل» من عسقلان حملة إلى الرملة التقت بالفرنجة عند «بيت دجن» فى معركة خسرها الفاطميون، وسميت (معركة الرملة الأولى). وفى شهر يونيو من السنة التالية جردت حملة أخرى بقيادة ابن الأفضل «شرف المعالى» التقت بالفرنجة عند (يازور) فى معركة عرفت بمعركة الرملة الثانية انتصر فيها المسلمون انتصارًا حاسمًا، ودخلوا الرملة بعد فرار «بغدوين» منها، وقتلوا معظم من فيها من فرسان الفرنجة، لكن الفرنجة عادوا إلى احتلالها عام ١١٠٥م، وبعد مذبحة الحجاج عام ١١٠٦م شنت قوات «صلاح الدين الأيوبى» غارة عليها، وبقيت الرملة فى أيدى الفرنجة إلى أن استردها صلاح الدين بعد معركة «حطين» فى سنة ١١٨٧م، لكن صلاح الدين مالبث أن أمر فى سنة ١١٩٢م - بعد معركة أرسوف - بهدم قلعتها خشية استيلاء الفرنجة عليها، لكنه جدد بناء الجامع الأبيض فيها، وفى هذا العام تم عقد (صلح الرملة) بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد - ملك إنكلترا وزعيم الفرنجة - ولما اتجه ريتشارد إلى الرملة أصيب بخيبة أمل لخرابها، وفى عام ١٢٠٤م وبمقتضى الصلح الذى تم بين الملك العادل وبين الفرنجة

أصبحت الرملة تحت السيطرة الفرنجية الكاملة، وأقاموا فيها أبرشية وشيدوا كنيسة، وظلت بأيديهم إلى أن حررها السلطان المملوكى «الظاهر بيبر» عام ١٢٦٦م.

ليس للفرنجة وحدهم يعزى ذلك التدهور الخطير الذى لحق بالرملة منذ اجتياح الفرنجة لها وظل يلازمها حتى بداية العهد المملوكى، إذ بدأت بوادره مع أواخر عهدها الفاطمى سببته الحروب الكثيرة التى دارت على أراضيها، والعديد من الكوارث الطبيعية وغيرها، فقد تعرضت الرملة إلى جملة من الزلازل والكوارث مثل زلزال عام ١٠٣١م، وهو زلزال عنيف هدم ثلث المدينة وخرب مسجدها، وأهلك كثيراً من أهلها. وفى عام ١٠٤٧م أصابها زلزال خرّب الكثير من دورها، وشتت أهلها فى البلاد المجاورة، وفى عام ١٠٦٧م جاءت زلزلة بفلسطين هدمت أكثر دور الرملة وسورها، وتضعضع جامعها، ومات الكثير من أهلها تحت الردم، وتكررت مثل هذه الزلازل فى أعوام ١٠٧٠م و١٠٨٧م، و١٠٩٣م كل هذه الكوارث مضافًا إليها كوارث الاجتياح الفرنجى حولت الرملة من مدينة إلى ماهو شبه بقرية.

• الرملة فى العهد المملوكى •

منذ أن قام «الظاهر بيبرس» بتخليص الرملة من اغتصاب الفرنجة عام ١٢٦١م بدأت المدينة تستعيد عافيتها، وقد بنى الظاهر لجامعها مئذنة ومحرابًا، وأنشأ فيها برجًا ليراقب منه تحركات الفرنجة، واهتم من جاء بعده من سلاطين المماليك بالمدينة عن طريق إقامة العديد من المنشآت مثل «محمد بن قلاوون» والسلطان «الظاهر جقمق».

وقد ألحقت المدينة منذ عام ١٣١١م بنيابة غزة أثناء نيابة «الأمير علم الدين

سنجق الجاولى»، وكان الذى يتولى الرملة يجمع معها اللد، وكانت مرتبته غير عالية، ولكن عنـدما أصبحت القدس نيـابة صار متولى الرملة أمـير طبلخانة، وممن ولى الرملة فى العصـر المملوكى «الأمير غـرس الدين بن شاور»، و«علم الدين سنجر الصالحى». وزاد الاهتمام بالرملة فيمـا بعد، فترقت مرتبة واليها، فأصـبح أميـرًا برتبة «اسـتدار»، وممن تولى اسـتدارية الرملـة «الأمير شـاهين الكيالى»، وقد بنى فيـها مسجدًا ومنارة، وأوقف على المسجد أوقافًـا كثيرة فى عـام ١٤٥٠م، أيام السلطان: «جقـمق». وزيادة الاهتـمام بالرملة لم تقـد إلى استقلاليـتها، بل بقيت تابعة لنيابة القـدس، وعلو المكانة هذه، تشير إلى زيادة الاهتمام بنيابة القدس إلى حد يمكن القول فـيه إنها اكتسبت مكانة الرملة، التى كانت تتمـتع فيها منذ قيـامها حتى بداية حـروب الفرنجة حين كانت تـتمحور حولها تاريخ فلسطين والشخصية الفلسطينية، فعادت القدس من جديد حاضرة فلسطين دينيًا وسياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا.

إلا أن الرملة وإن تلاشت أسوارها وتضاءلت قيمة قلعتها فى العهد المملوكى لكن أسواقها ظلت عامرة كثيرة ومتشـعبة نذكر منها: سوق القماحين، وسوق البـصالين، وسـوق القطانين، وسوق المشـاطين، وسوق العطاريـن، وسوق الخرازين، وسوق البـقالين، وسوق الصياقلة، وسوق السـراجية. وواضح من الأسماء التى حملتها هذه الأسواق أنها تدل عـلى نوعية النشاطات التى عرفتها مدينة الرملة.

أما عن الكوارث السياسية والطبيـعية، فلم تكن الرملة فى هذا العهد أسعد حالاً عما كانت عليه فى العهود السابقة، ففى عام ١٢٧٣م، وقعت فى الرملة أمراض وحميات أهلكت منها خلقًا كثيرًا من النساء والأطفال.

وفى عام ١٢٩٣م تعرضت الرملة لهـزات أرضية سببت تدمـير العديد من المنشآت العـمرانيـة، وفى عام ١٣٤٢م تعرضت لاجـتيـاح الجراد الذى ألحق بمزروعاتها ضرراً فادحًا، وعام ١٣٤٨م تعرضت لطاعون مات بسببه الكثير من أهلهـا، وعاد إليـهـا الطاعون عـام ١٣٦٣م، وكـذلك عام ١٣٨٨م، وعـام ١٣٩٢م، وكأن لـم تكفها الطـواعين، فاجتاحها عـام ١٤٠١م الجراد وجحافل «تيمورلنك»، فأباد الزرع والبلاد والعباد، وجاء قحط عام ١٤٠٥م ليستكمل ما فـعله الجراد والتـتار، وأجـدبت مرة أخـرى عام ١٤٢٢م، بسـبب انحبـاس الأمطار، ونجم عن ذلك هجرة عدد كبير من سكانها. وعام ١٤٢٣م عاد إليها الطاعـون من جـديد، وتكرر فى أعـوام ١٤٢٩م و١٤٣٨م، فأهلك أعـداداً لاتحصى من سكانها.

ويبدو أن هذه الأحـوال دفعت بعض قبائـل أطراف شبه الجزيرة العـربية، لاسيـما «ثعلبة» لـلهجرة إلى فلسطين فـاصطدمت بقبـائل «جرم» ودارت بين العشيرتين معـارك، كانت الرملة وأراضيها مسرح حوادثـها، وقد قصد هؤلاء الرملة فانتـهبوها، وزادوا فى التعدى، وخـرجوا عن الحد. وبعد مـضى فترة وجيزة وصلت الأخبار إلى «الأمير ولنجى» - نائب غـزة - كثرة جمع العشير وقصدهم نهب بلاد الرملة مرة ثانية.

وفى عام ١٤٤٥م، اشـتدت الحروب بين عـربان «جرم والعائذ»، فـخرج الأمير طوخ المؤيدى - نائب غزة - وتدخل إلى جانب العائذ، وانتصرت جرم وتم قتل الأمير طوخ وجرح طوغان - نائب الـقدس - ونتيجة لذلك رجحت كفة جرم، واستبد رجالها ببلاد غزة والرملة ونهبوا المسافرين.

وقد كـتب عنها «مجـير الدين العليـمى» فى كتابـه: «الأنس الجليل» عام

١٤٩٦م. أما صفة الرملة قديمًا حتى أواخر القرن الخامس الهجرى فكان لها سور محيط بها، وكان لها قطعة واثنا عشر بابًا منها: باب القدس، وباب عسقلان، وباب يافا، وباب يازور، وباب نابلس، ولها أربعة أسواق متصلة من أربعة أبواب إلى وسطها، وهناك مسجد جامعها، فمن باب يافا يدخل فى سوق القماحين، وهو متصل بسوق البصالين حتى يتصل بمسجد جامعها، وهى أسواق كانت حسنة يباع فيها أنواع السلع، ويتصل بباب القدس سوق القطانين إلى سوق المشاطين للكتان إلى سوق العطارين، إلى المسجد الجامع. ويتصل بسوق الحبالين من باب يازور، ثم سوق الخزازين، ثم البقالين إلى المسجد الجامع، وأما فى عصرنا (أواخر العهد المملوكى) فلم يبق أثر لتلك الأوصاف التى بالرملة، وقد زالت أسوارها وأسواقها القديمة لاستيلاء الفرنجة عليها نحو مائة سنة، ولم يبق من المدينة ثلثها، بل ولا ربعها، وبنى فيها مساجد ومنابر مستجدة من زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وبعده، والموجود الآن من الأبنية فى المدينة معظمه خراب، متهدم. وأما المدينة فقد تقهقرت ونقصت جدًا، وقل ساكنها، ومع ذلك فهى مقصودة للبيع والشراء، ولا تخلو من بركة معيشتها ببركة أرضها وسكانها من الأنبياء والصحابة والعلماء والأولياء.

وقد وصفها بعده بأقل من ثلاثة عقود من الزمن، وفى أوائل العهد العثمانى عام ١٥٢٤م الراهب الإيطالى «فرنسيسكو سريانى» بقوله: إنها تبعد عن الشاطئ مسافة ١٠كم تقريبًا، وتتخلل هذه المسافة عدة قرى تتمون بخضارها من الرملة بسبب جفاف أرضها وقلة مياهها، كما تتمون غزة والقدس بالفواكه من الرملة، ويصفها بأنها مستديرة الشكل، يبلغ محيطها حوالى ٥كم٢، ولا

توجد لها أسوار، وهى بمعظمها متهدمة وقليلة السكان، وبيوتها بأكثريتها مبنية من الطين المقوى بالتبن.

• العهد العثمانى •

دخلت الرملة مع غيرها من مدن فلسطين والشام فى الحكم العثمانى بعد انتصار العثمانيين على المماليك فى معركة (مرج دابق) عام ١٥١٦م. ومعلوماتنا عن الرملة فى هذا العهد جاءت قليلة ومبعثرة، منها أنه بينما كان «السلطان سليم الأول» فى طريقه إلى مصر، تأخر عن جماعته بعض أناس فى الرملة، فشاع الخبر أن أهل الرملة نكلوا بهم، وبلغ ذلك السلطان، فأمر بقتل الكثيرين من أهل الرملة، وقدر عدد سكان الرملة فى أواخر القرن السادس عشر بنحو (١٨٥٠ نسمة). ومنذ منتصف القرن السابع عشر، أقام الفرنسيون لهم نائب قنصل فى الرملة، وكانت فى تلك الآونة تصدر كميات كبيرة من غزل القطن عن طريق ميناء عكا إلى مرسيلية. وفى عام ١٧٥٩م أصاب المدينة زلزال أطاح بالكثير من أبنيتها. ولن يشغل بالنا ندرة المعلومات، فقد قامت كتب الرحالة العرب والأجانب بتعويض النقص.

فها هو الرحالة الفرنسى «لوران دارفيو» يزور الرملة فى عام ١٦٥٩م، ويشير إلى أهمية موقعها على الطريق بين يافا والقدس، وطريق القوافل بين مصر ودمشق، وتبعيتها لحاكم غزة، ويصفها بأنها قرية كبيرة كثيرة السكان، وتستفيد ماديًا من التجار الذين يؤمونها لشراء الحبوب والقطن والفواكه، وكذلك من مرور القوافل فيها، ويذكر دير آباء الأرض المقدسة الذى بنى فى الرملة بموافقة حاكم غزة، ويأوى إليه فى العادة المسافرون الأوروبيون، وإلى جانب الكنائس والجوامع التى ذكر: «دارفيو» ما اندرس وما بقى منها، يشير إلى وجود

مستشـفى للأمراض العقلية يمارس فيه العـمل، ويطلق عليه السكان المحليون اسم مارستان. وتشرب الرملة من مياه الآبار التى تستخرج بواسطة دولاب.

وذكرها الرحالة الفرنسى الشهير «فـرنسوا فولنى» عام ١٧٨٥ بقوله: جعلها آغا غزة مقره بإقامته فى دار سقفها متداعية، وتحت يده مائة فارس ومائة جندى مغربى. والأراضى التى فى جوار الرملة تعطى زيتونًـا جيدًا، غرست أشجاره على نموط هندسى لطيف، وإن اجتاز المرء بهذه البـساتين يرى الكثير من الآبار الجافة والصهـاريج الخربة والمصانع المقببة، مما يدل على أن البلدة كان لهـا فيما سبق محيط يبلغ الفرسخ ونصف الفـرسخ، والأراضى القلائل التى يفلحونها ويزرعونها، يملكها المفتى أو اثنان أو ثلاثة من أقربائه. وأهم ما يتعاطاه بعضهم من الأعمال بعضهم غزل القطن الذى يشتـريه منهم تجار فرنسيون. ويصنعون أيضًا الصابون فيبعثون به إلى مصر. ومما يجدر ذكره أنه فى عام ١٧٤٨م عهد الآغا إلى تاجر بندقى فى إقامة طاحون هوائى فى الرملة، وهو الوحيد فى مصر وسوريا.

وفى سنة ١٧٩٩م احـتلها «نابليـون بونابرت»، سار إليـها «الجنرال كليـبر» ووصلها فى ٢ آذار/ مارس، ووجد فـيها مؤنًا كثيرة ومعدات تـركها المدافعون الذين ارتدوا إلى يافـا، وكان سكان البلدة قد خـرجوا قبل دخـول الفرنسـيين إليها، والتجأت النسوة المسيـحيات إلى دير البلدة، وعندما ذهب نابليون لحصار عكا أبقى «الجنرال» ريـنيه فى الرمـلة لإحكام الحـصار من هذه الجـهـة، ولما أخفقت حملة نابليون على الشرق انسحب جنودها من الرملة.

وفى الفترة بين ١٨٣١ - ١٨٤٠م كانت الرملة خـاضعة للحكم المصرى، واشتـركت مع غيرها من مـدن فلسطين فى الثورة على «إبـراهيم باشا» - ابن حاكم مصر حينئذ محـمد على باشا، وبخروج المصريين منها عادت إلى حكم

العثمانيين. ووصف الدكتور طومسون الذى زار الرملة أيام الحكم المصرى المدينة بقوله: الرملة أكبر من اللد، بها نحو (٣٥٠٠ نسمة) تضم الكثير من البيوت الجميلة، وبعض مصانع الصابون، وفيها قناصل لمعظم الدول الأوروبية، وأديرة للحجاج والسياح الأوروبيين.

وقد زارها الرحالة الهولندى «نيهولت» عام ١٨٦٨م ووصفها بأنها مدينة صغيرة يبلغ سكانها حوالى أربعة آلاف نسمة. وكانت الرملة فى أواخر العهد العثمانى مركزًا لمديرية من أعمال قضاء يافا يتبعها (٥٩ قرية). وقدر عدد سكان الرملة قبيل الحرب العالمية الأولى بحوالى سبعة آلاف نسمة.

• الرملة بين الإنجليز والصهاينة •

انتهى عهد العثمانيين ليخلفه عهد الانتداب البريطانى، فقد استولى عليها الجنرال اللنبى يوم ١٥ من تشرين ثان/ نوفمبر عام ١٩١٧، وقد امتد عهدهم العسوف ٣١ سنة. ومن أحداث هذا العهد تعرض الرملة لزلزال عام ١٩٢٧ الذى أحدث ضررًا كبيرًا فى الممتلكات. وقد تطورت الرملة فى عهد الانتداب البريطانى تطورًا كبيرًا، وزاد عدد سكانها عام ١٩٣٢ إلى (١٠٣٤٧ نسمة) ثم ارتفع عددهم إلى (١٥١٦٠ نسمة) عام ١٩٤٥، و(١٦٣٨٠ نسمة) عام ١٩٤٦، وتبع ذلك نمو العمران فى المدينة، فامتدت المبانى السكنية والمنشآت على شكل محاور بمحاذاة الطريق الرئيسة المتفرعة من المدينة، ولاسيما طريق الرملة - يافا، وتوسعت مساحة المدينة تدريجيًا حتى بلغت عام ١٩٤٣ نحو (١٧٦٩ دونمًا) تشغلها آلاف المبانى، وشهدت نموًا سريعًا فى مستويات سكانها التعليمية والثقافية.

لكن الازدهار الذى حظيت به الرملة لم يدم طويلاً، فبعد انسحاب الإنكليز فى ١٤ من آيار/ مايو ١٩٤٨ حاصر اليهود الرملة، لكنهم صدوا عنها وتكبدوا خسائر فادحة، وحين سقطت اللد بعد ظهر ١١/٧/١٩٤٨ حتى بدأت معركة الرملة إذ قام حوالى ٥٠٠ من مشاة الصهاينة بقيادة «موشى ديان» بهجوم على المدينة تؤازرهم المصفحات، وقد تمكن المدافعون عن المدينة من صدهم وقتل عدد منهم وحرق أربع من مصفحاتهم، وفى يوم ١٢/٧/١٩٤٨ احتل الصهاينة القرى المحيطة بالرملة، وبذلك تم تطويقها وانتهى الأمر بسقوط المدينة، ودمرت بعض بيوتها، ولم يبق من سكانها إلا القليل حوالى (١٥٤٧ نسمة)، وأخذ المهاجرون الصهيونيون يحلون محل السكان العرب تدريجيًا، وارتفع بفعل الهجرة الصهيونية، فوصل إلى (٢٠٥٤٨ نسمة) فى عام ١٩٦١، ونتج عن تيار هذه الهجرة إلى المدينة توسع فى مساحتها وزيادة فى عدد مبانيها السكنية. واتجه النمو العمرانى للرملة نحو الغرب والجنوب الغربى بصورة رئيسة، وتركز معظم الصهيونيون فيما يسمى الآن بالرملة الجديدة، فى حين بقى العرب فى الرملة القديمة إلى جانب من استقر معهم فيها من الصهيونيين. وقد بلغ عدد سكان الرملة عام ١٩٨٥ حوالى (٤٠٠٠٠ نسمة) منهم أكثر من خمسة آلاف عربى، ولا تجد الأحياء العربية فى المدينة الاهتمام اللازم من قبل سلطات الاحتلال الصهيونى، وتتركز معظم الخدمات والمرافق العامة فى الأحياء الصهيونية، ولا سيما الأحياء الجديدة. وقد قدر عدد المنتمين إلى الرملة الذين يعيشون فى غزة والضفة وبعض الدول العربية والمسجلين لدى وكالة الغوث عام ١٩٩٨ بحوالى (١٠٧٩٩٤ نسمة).

* * *

• وظيفة الرملة الإدارية •

واكبت هذه الوظيفة مدينة الرملة منذ نشأتها الأولى؛ لأن المدينة خطط لها أن تكون عاصمة للقطر الفلسطينى منذ البداية بسبب توسط موقعها، بل خطط لها أيضًا لتكون عاصمة للخلافة الإسلامية، وقد ظلت عاصمة لفلسطين طوال أربعة قرون، وفى العهد المملوكى تبعت نيابة غزة، ثم نيابة القدس، وفى أواخر العهد العثمانى كانت مركزًا لقضاء يحمل اسمها، قدر عدد سكانه عام ١٩٢٢ بحوالى (٤٩٠٠٠ نسمة)، وعام ١٩٤٥ (١٢٧٢٧٠ نسمة) يمثل اليهود فيه (٢٣٪)، أما اليوم فهم يمثلون غالبية سكان القضاء المحتل.

• الوظيفة التجارية •

الرملة مركز تجارى هام منذ صدر الإسلام حتى اليوم، ففى الماضى كانت المدينة تقع على طريق القوافل التجارية بين مصر والشام. وقد استقر فى الرملة كثير من التجار لازدهار الحركة التجارية فيها معظم العصور السابقة. وفى عهد الانتداب البريطانى كانت الرملة سوقًا تجارية للقرى التابعة لها، تعرض فيها كثير من المنتجات الزراعية والحيوانية والصناعية. وقد أثر فى الرملة وقوع مدينة اللد - أكبر مدن القضاء - بالقرب منها. واليوم تقدم سوق الرملة المحلية خدمات أساسية لسكان المستعمرات الصهيونية المجاورة، وتستوعب منتجات هذه المستعمرات.

• الوظيفة الزراعية •

أثرت نشأة الرملة وسط إقليم زراعى فى أهمية الوظيفة الزراعية للمدينة، فكانت نسبة كبيرة من سكانها تعمل فى الزراعة، ولا سيما زراعة الزيتون والحمضيات والحبوب والخضر. وقد تحدث الرحَّالون الذين زاروا المدينة فى القرون الماضية عن خصب أرضها، ووفرة مياهها، وتنوع محاصيلها الزراعية

كالعنب والرمان والتفاح والبرتقـال والبطيخ والتين والنخيل والحبوب والمشمش واللوز والبصـل والقطن، وظهر أثر إنتـاجها الزراعى الكبـير فى رواج الحـركة التجارية فى أسواقها العامرة طوال كل عصورها التاريخية التى طالما تغنى الرحالة بعظمتها.

وبلغت مساحة الأراضى التابعة لمدينة الرملة فى عام ١٩٤٥ نحو (٣٨٩٨٣ دونمًا) منهـا (١١٦٩ دونمًا) للطرق والسكك الحـديدية والأودية و(١٨٥ دونمًا) ملكها الصهيونيون، وفى عام ١٩٤٣ بلغ مجـموع المساحات المغروسة بأشجار الزيتون نحـو (٧٤٢٠ دونمًا)، وأشجار البرتقال نـحو (٣٦٦٣ دونمًا)، وتتوزع بقية المحاصيل الزراعية بنسب متفاوتة على الأرض الزراعية المحيطة بالمدينة.

• الوظيفة الصناعية •

عرفت الرملـة منذ القدم بعض الصناعـات مثل صناعة الأقـمشة الـقطنية والكتانية، وغزل الصوف والبسط، ومنتـجات الألبان وزيت الزيتون واستخراج السيـرج، والمواد الغذائيـة الأخرى، وصناعة الصـابون، ودبغ الجلود، وصنع الأوانى الخزفيـة. وفى فترة الانتداب البريطانى تطور الإنتـاج الصناعى للمدينة رغم أنه بقى مقتصرًا على الصناعات التقليدية والخفيفة.

يعتمد اقـتصاد المدينة فى الوقت الحاضر على الصناعة لـوقوعها على طريق القدس - يافا، وعلى ملتقى خطوط حديدية تسـهل نقل البضائع ونقل العمال من قراهم إلى المدينة وبالعكس. وتستفيد الصناعة فى الرملة من قربها من ميناء أسدود، كما أنـها توظف آلاف العمال الذين يتوزعون على عـشرات المصانع

الكبيرة. وأهم منتجاتها الصناعية الأسمنت، ففيها أكبر مصنع للأسمنت فى فلسطين المحتلة، ومنتجات الأخشاب، والأنابيب المعدنية، والمحركات والثلاجات، والمنتجات المعدنية المتنوعة، والبيوت الجاهزة، والأطعمة المعلبة.

• الوظيفة الحضارية •

مر بنا ذكر الحضارات الأول التى قامت على أراضى الرملة، ومدى إدراك العرب المسلمين لأهمية هذا الموقع، والدور الهام الذى لعبته المدينة فى الأربعة القرون الأولى من حياتها، حين كانت عاصمة لفلسطين، ثم ما طرأ على ذلك الدور من تطورات إيجابية أو سلبية فيما بعد، حتى وقوعها فى براثن الاستيطان الصهيونى. ويبقى كلامنا ناقصًا إن لم نتناول بعضًا من مشاهدها الحضارية فى حقبات ازدهارها.

• الجامع الأبيض ومئذنته •

لعل أهم معالم الرملة الأموية مسجدها الذى شرع «سليمان بن عبد الملك» فى بنائه، واستعمل فيه عمدًا استخرجها من مغارة بالقرب من الداروم، ولما جاءته الخلافة وترك فلسطين إلى دمشق أوكل الإشراف على إكماله إلى كاتب له نصرانى من اللد يدعى «البطريق بن النكا» وتوفى سليمان قبل إتمام المسجد فأقامه «عمر بن عبد العزيز» بعد أن نقص من خطته الأصلية.

ومنذ إتمامه اعتبر مسجد الرملة من أبهى المساجد فى الإسلام، ومنبره من أحسن منابرها، أما محرابه فكان أكبر محاريبها، وقد فرشت أرض الجزء المسقوف منه بالرخام، أما الصحن فقد فرش بالحجارة المنحوتة، كما أقيمت فى طرفه مئذنة بديعة، وعرف بالجامع الأبيض؛ لأنه بنى بحجارة بيضاء. وقد دمره الفرنجة وأعاد بناءه «صلاح الدين الأيوبى»، وأسند هذا الأمر إلى أمهر

مهندسيه المعماريين «إلياس بن عبد الله» وذلك عام ٥٨٦هـ، ثم جدده «الظاهر بيبرس» بعد عام ٦٦٦هـ، وقيل إنه عمَّر القبة والمحراب والباب المقابل له، وأعاد تجديده «محمد بن قلاوون».

وأول وصف وصل لنا لهذا المسجد قول المقدسى: «ليس فى بلاد الإسلام أبهى منه». وعد بعضهم الجامع الأبيض من أندر روائع المسلمين فى بلاد الشام، وأنه الثالث من بين العمائر الدينية فى الشام بعد الأموى فى دمشق والأقصى فى القدس، وعده البعض إحدى عجائب الدنيا. أما مئذنته فأول من جاء على ذكرها هو «المقدسى» عند ذكره للجامع الأبيض قال: «وله منارة بهية» إلا أن هذه المئذنة تهدمت من جراء الزلزال الذى حدث عام ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م. أما المئذنة الحاضرة فقد أقيمت على أنقاض منارة ثانية بناها «الظاهر بيبرس» بعد استرداده الرملة. وقد بناها «المعلم ابن السيوفى» عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م، وهو رئيس المهندسين فى عهد «السلطان محمد بن قلاوون»، وقد وصفها الكُتَّاب والرحالة بأنها إحدى عجائب الدنيا فى الهيئة والعلو، وتمتاز عن نظيراتها فى العالم، بل لايوجد مثلها دلالة على إبداع بانيها الفنى وفخامتها، وهى اليوم تدعى برج الرملة أو برج الأربعين شهيدًا، وذلك للاعتقاد السائد بأنها قبة مدفون تحتها أربعين شهيدًا من الصحابة.

• بئر العنيزية •

بنى العباسيون صهريجًا فى الرملة عام ١٧٢هـ/ ٧٨٩م، ويمتاز بعمارة تقوم على أكتاف حجرية، وتغطيه أقبية طولية تقطعها بوائك عريضة، ويعرف محليًا باسم «بئر العنيزية»، ويقع على بعد نحو نصف ميل جنوب غربى مدينة الرملة على الطريق الموصل ما بين يافا والقدس، ويتكون من بئر محفور تحت

الأرض وبه حوائط ساندة قوية.

والبئر مبنيـة من الحجارة المنتظمة المداميك واللحامات وتغـشيها من الداخل طبقة سميكة من الأسمنت، ويعتقـد أنها تأسست بأمر من السيدة «خيزران» - زوجة الخليـفة العـباسى المهدى - فى زمن ولدها الخلـيفة «هارون الرشـيد»، ويعتبر هذا الصهريج الأثر العباسى الوحيد فى فلسطين، كما أنه يعتبر أقدم مثال استعمل فيه العقد المدبب فى مشروع لحفظ المياه.

• قصر سليمان بن عبد الملك •

تجمع المصادر التاريخية المتوفـرة على أن سليمان عندما بدأ فى تنفيذ مخطط الرملة كـان أول بناء أنشأه هو قصـره «دار الإمارة»، وكـان سليمـان قد نقل دواوين الإمارة إلى الرملة، وكان يـود أن تكون الرملة مقر خلافتـه، وقد ذكر «عبد الله مـخلص» أن قصر سليمان لم يبق منه إلا بقـية طلل، كان فى المكان الذى جعل دارًا للحكومة حتى أيام الحرب؟!، فـنقض وقد أقيمت مكانه اليوم حديقة البلديـة فى الرملة، ولا تزال بعض جدرانه قائمة إلى جـانب الحديقة، وقد أكد لنا بعض العارفين أن إحدى غرف هذا الـقصر التى بقيت حتى العهد الأخير كانت بطول ١٢ مترًا، وعرض ٤ أمتار، وعلو جدرانها ٢٠ مترًا.

وقد زاره الرحالة الفرنـسى الشهير «فرانسوا فولنى» وشـاهد آثار هذا القصر المتداعى آنـذاك، ولا تزال جدرانه قائمـة تشهـد على أصالة هذا البناء الـعربى الإسلامى الشامخ بفلسطين.

• ضريح الصحابى الفضل بن العباس •

وقد جزم البخارى أنه استشهد يوم «أجنادين» عام ١٣هـ فى خلافة أبى بكر (رضى الله عنه)، وفى تاريخ «اليـعقـوبى»: أن الفضل بن العـباس بن عـبد

المطلب توفى فى فلسطين، وأول من ذكر قبره هو «مجير الدين العليمى» فى كتابه «الأنس الجليل» قال: إن الأمير شاهين الكمالى أستادار الرملة بنى فى سنة ٨٥٤هـ على مشهد القبر منارة، وجعل فيه مسجداً تقام فيه الجمعة، ووقف عليه ورتب فيه وظائف، وأن المشهد المذكور تلاشت أحواله فى أيام المؤلف - القرن العاشر الهجرى - وخرب معظم الوقف، ووصف «عبد الله مخلص» قبر الفضل بقوله:

يرتفع القبر عن سطح الأرض نحو شبر واحد، وعلى جهة الرأس والرجلين منه شاهدتان مستديرتان كتب على الأولى منهما بخط بين الكوفى والنسخ لا إله إلا الله، وقد كسى من فوقه بسترة خضراء على قفص من خشب.

وأخيراً بعد هذه الرحلة مع مسيرة مدينة، سبقت فى ظهورها التاريخ، وعند بزوغه لم تذكر فيه فحسب، بل ساهمت فى صياغة بعض أحداثه، وظلت تصنع التاريخ حتى حجبها لصوص الحضارة وأعداء التاريخ، علّنا نكون قد ألقينا ولو قبس ضوء على واحدة من أنصع صفحات التاريخ، حافلة بالمعانى والدلالات الهامة، ولا هدف لنا إلا تذكير العرب والمسلمين، بعظمة تاريخ مدينتهم الأسيرة، فك الله أسرها وأعادها إلى أصحابها الأصليين.

* * *

• المراجــع •

١ – د. صادق أحــمد جــوده «مديـنة الرملة منذ نشأتهــا حتى عــام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م» مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.

٢ – مــصطفى مراد الدباغ «بلادنا فــلسطين» الجزء الرابع، القــسم الثــانى، دار الطليعــة، بيروت، ١٩٧٢.

٣ – محمد أديب العامرى «عروبة فلسطين فى التاريخ» المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٢.

٤ – الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثانى، دمشق، ١٩٨٤.

٥ – الموســوعة الفلسطينيــة، الدراسات الخــاصة، القــسم الثانى، المجلد الأول والثــانى، بيروت ١٩٩٠.

٦ – د. أحمد فخرى «دراسات فى تاريخ الشــرق القديم» مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨.

٧ – محــمد يونس الحسينى «التــطور الاجتماعى والاقــتصادى فى فلسطين» مطبــعة بيت المقدس، القدس، ١٩٤٦.

٨ – د. حسن إبراهيم حــسن «تاريخ الإسلام السياسى» مطبــعة النهضة العربــية، القاهرة ١٩٦٤.

٩ – د. سيدة الكاشف «مصر فى عهد الطولونيــين والإخشيديين» مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٠.

١٠ – قسطنطين خمار «جغرافية فلسطين المصورة» مطبعة دار الغندور، بيروت، ١٩٦٧.

١١ – عبد الله مخلص، مئذنة الجامع الأبيض والرقم التاريخية فى الرملة، المطبعة الأدبية،

بيروت، ١٩٣٦.

١٢ – عمر صالح البرغوثى، خليل طوطح «تاريخ فلسطين» مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٣.

١٣ – أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى «فتوح البلدان» تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربى، القاهرة، ١٩٥٧.

١٤ – د. كمال الدين سامح «العمارة فى صدر الإسلام» مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٦٤.

١٥ – لى سترانج «فلسطين فى العهد الإسلامى» ترجمة، محمود عمايرة، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٧٠.

١٦ – أرنولد جونز «مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية» ترجمة د. إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ١٩٨٧.

محتويات الكتاب

القدس

تقرير شهري يرصد ويحلل تفاعلات القضية الفلسطينية محليا وإقليميا ودوليا

متاح بالمشتركين

القدس

الاشتراكات السنوية:

داخل جمهورية مصر العربية

- الاشتراك السنوي للهيئات ١٢٠ جنيها شاملة رسوم البريد
- الاشتراك السنوي للأفراد ٨٠ جنيها شاملة رسوم البريد.

خارج جمهورية مصر العربية

- الاشتراك السنوي للهيئات ١٠٠ دولار أمريكا شاملة رسوم البريد.
- الاشتراك السنوي للأفراد ٥٠ دولارا أمريكيا شاملة رسوم البريد.

ترسل الاشتراكات نقدا أو بشيك مقبول الدفع على حساب

مركز الإعلام العربي:

حساب رقم ([illegible]) المصرف الإسلامي الدولي للاستثمار والتنمية - الدقي - القاهرة

أو حساب رقم (٢٧٦٠٠٢) بنك القاهرة فرع الهرم - الوحدة الفيصلية.

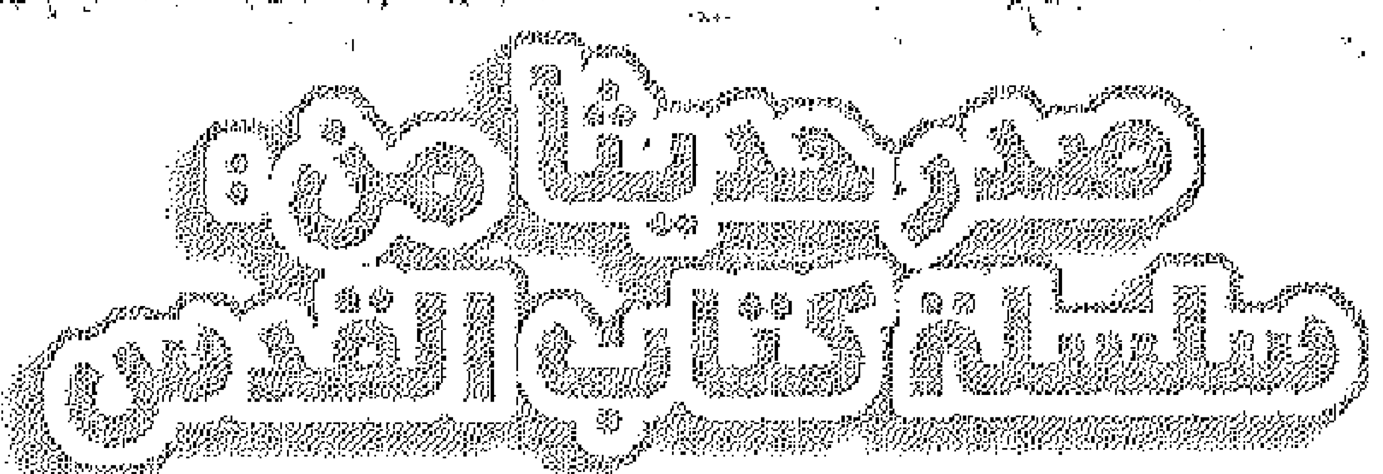
مركز الإعلام العربي

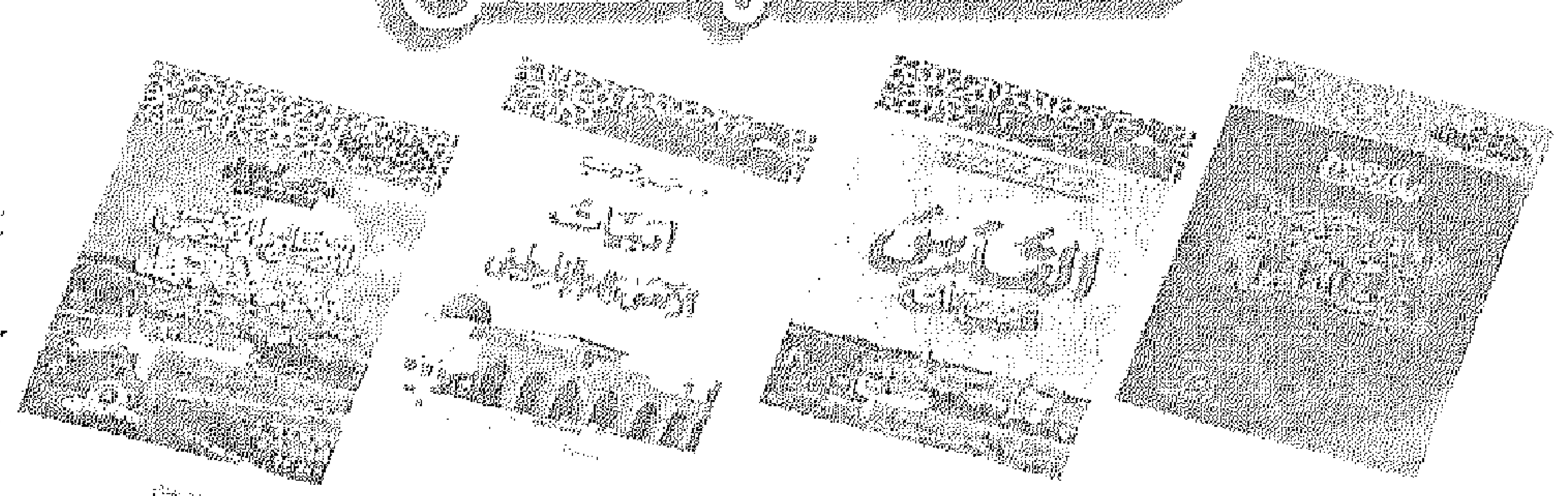
مؤسسة إعلامية مستقلة تأسست في عام ١٩٩١م تهتم بتقديم الإعلام الهادف، وترصد مختلف القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية، وتقدمها في دراسات متخصصة، كما تقوم بالأعمال الصحفية والخدمات الإعلامية والنشر، إضافة إلى عقد الدورات المتخصصة في مجالات الإعلام، وتخطيط الحملات الإعلانية.

المراسلات: مركز الإعلام العربي - مصر - الجيزة - الهرم - ص.ب 93

ت: 3833361 ت/ف: 3851751

E. Mail: media-c@ie-eg.com





(١) الخطر يتهدد بيت المقدس	أ.د. أحمد صدقي الدجاني
(٢) القدس قضية أمة	أ.د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
(٣) أدبيات الأقصى والدم الفلسطيني	أ.د. جابر قميحة
(٤) أورشليم القدس في الفكر الديني الإسرائيلي	أ.د. محمد جلاء إدريس
(٥) حرب تكنولوجية لقمع الانتفاضة	أ.د. وجدي عبد الفتاح سواحل
(٦) مدن فلسطينية	أ. فيصل الخيري
(٧) القدس بين الانتفاض والتفاوض	أ.د. محمد خالد الأزعر
(٨) انتفاضة الإنترنت من الجهاد المسلح إلى الجهاد الإلكتروني	أ.د. وجدي عبد الفتاح سواحل

ثمن النسخة في مصر ٥ جنيهات شاملة أجور البريد.
ثمن النسخة في البلاد العربية ٣ دولارات شاملة أجور البريد.
ثمن النسخة في باقي دول العالم ٥ دولارات شاملة أجور البريد.

الناشر: مركز الإعلام العربي

ص.ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر ت: ٣٨٣٣٣٦١ ت / ف: ٣٨٥١٧٥١

البريد الإلكتروني E.Mail:media-c@ie.com.

موقع المركز على الإنترنت www.Resalah4u.com

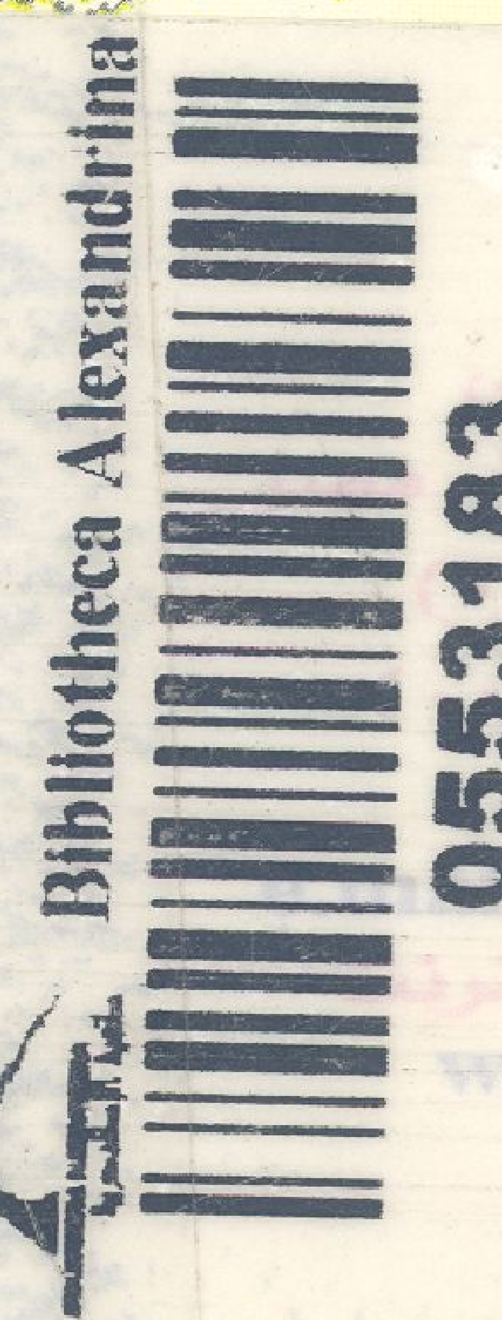
حساب رقم (٤٨٧٨١) المصرف الإسلامي الدولي للاستثمار والتنمية - القاهرة.
أو حساب رقم (٤٠٣٧١) بنك القاهرة - فرع الهرم - الوحدة الفيصلية.

هذا الكتاب

إذا كان تاريخ فلسطين متناً حافلاً، فالزعم بتاريخ يهودى لفلسطين مجرد سطر هامشى ركز عليه الآخرون، دون أن يقرأوا من المتن شيئاً، إنها وصمة فى جبين التاريخ يدعمها التراث التوراتى الذى هيمن على التاريخ والآثار لقرنين من الزمن.

فما أحوج فلسطين الآن لتغيير جذرى فى تاريخها، يحرره من قبضة الدراسات التوراتية المالكة للمعرفة والقوة معاً، ولم يمتد تأثيرها للغرب فحسب بل كانت سلعة رائجة فى قلب العالم الإسلامى والعربى.

ومن هنا كانت أهمية تضافر الجهود من أجل غربلة تاريخنا وتنقيته، وإعطائه صوتاً معبراً بعد أن حجبته مخططات توراتية صاغت رواية تحتفظ بالماضى لإسرائيل وحدها، ولأجل هذا كله كانت فكرة هذا الكتاب.



الناشر
مركز الإعلام الع
ص. ب ٩٣ الهرم - الجي
ت : ٣٨٣٣٣٦١(٢٠٢
ت ، ف:٣٨٥١٧٥١(٢
البريد الإلكترو
media-c@ie-eg.com
الموقع على شبكة الا
w.Resalah4u.com

